

بقلم: چورج مارتيلى

عميـــل
فوق العــــادة

بقــلم

چــورچ مــارتيللى

AGENT EXTRAORDINARY

By:

GEORGE MARTELLI

١٩٦٤

هذا الكتاب :

هذه قصة ميشيل هولارد ، ثم هي قصة انتصار لعمل من أعمال المخابرات ، بل ان البعض يذهبون الى أنها كانت أكبر انتصارا للمخابرات في الحرب العالمية الثانية على الأقل بالنسبة للانجليز لأنها تتصل وثيقا بعملية الحصول على رسوم الصاروخ (ف-١) ، وبهذه الرسوم أمكن صنع نماذج للصاروخ ولمواقع اطلاقه ، ووضعت هذه النماذج في مراكز قيادة قاذفات القنابل في بريطانيا ودرب أفراد أطقم القنبلات على التعرف على هذه المواقع ، كما دربوا على الانقضاض عليها وتحطيمها وبذلك أمكن انقاذ لندن في اللحظة الحاسمة ولولا هذا لكانت قصة الحرب العالمية الثانية قد سلكت مسارا أطول ..

وميشيل هولارد فرنسي رفض التعاون مع الألمان منذ أول يوم للاحتلال الألماني لفرنسا ، وعبر هولارد الحدود الى سويسرا لمقابلة الملحق العسكرى الانجليزى في بيرن وعرض عليه خدمته ولكن الرجل أوصله الى باب مكتبه مبتسما شاكرا ، ولكن بعد شهر واحد عاد هولارد من جديد يحمل الأدلة القاطعة الباتة التى تثبت قدرته للحصول على معلومات لها قيمتها ..

وفي هذه المرة جند للمخابرات البريطانية وعبر الحدود عشرات المرات وفي كل مرة كان يحمل من المعلومات التى لا يمكن أن تقدر قيمتها وبخاصة عندما جاء برسوم الصاروخ الألمانى والقنبلة الطائرة .

والمؤلف جورج مارتيلل من رجال البحرية الانجليزية عمل في الصحافة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية وله عدة كتب يعتبر « عميل فوق العادة » هو الوحيد بينها الذى يتصل بأعمال المخابرات والجاسوسية ..

وسام الخدمة الممتازة :

الكابتن فى الجيش الاحتياطى

ميشـــيل هولارد

قام هذا الضابط فى شهر يناير عام ١٩٤٢ ، ببراعة فائقة واخـلاص متنـاه ، ولمدة عامين ، بتنظيـم وادارة خـــدمات للمخابرات كانت ناجحة للغاية لمصلحة قضية الحلفاء فى شمال فرنسا .

وقد قام بمغامرة تنطوى على مخـاطرة شخصية جريئـة فى استكشاف الطائرات V. 1 التى كانت عليها حراسة شديدة ، وقدم عنها تقارير فى منتهى الدقة والوضوح بدرجة مكنت هذه البلاد من انشاء نماذج منها ، كما مكنتها من القاء قنابل فعالة لتحطيمها ..

ان شـجاعته واخلاصه لواجبه وجهوده الفـائقة ؛ كانت كلها بمثابة وحى ملهم دائم لفريقه الذى يعمل معه ..

وأخير قبض عليه فى سنة ١٩٤٤ نتيجة خيانة ، ورحل الى ألمانيا ، ومن هنـاك ــ بعد كثير من الارهاق والتعذيب ، دون أن يفضى بأى شىء ــ استطاع أن ينجح أخيرا فى الهرب ..

مقـــــدمة

بقلم ليفتنانت جنرال سير بريان هوروكس

في أثناء استعدادى لوضع سلسلتى الحديثـة عن « رجـال ومعارك » كأحاديث عن أبطـال الحرب لبرامج التليفزيون ، أتيحت لى الفرصة لأقرأ الكثير من قصص الشجاعة الفائقة .. وهذه القصة هى أعظم تلك القصص جميعا ، لأن ميشيل هولارد كان الرجل الذى أنقذ لندن بمعنى الكلمة ..

عندما استسلمت فرنسا فى سنة ١٩٤٠ ، قرر هو أن يواصل المعركة ضد الألمان بأن يقوم بالعمل كعميل للحلفاء ، وأنشأ شبكة من الجواسيس أسماها « شبكة العمل » réseau «Agir» سرعان ما اشتهر أمرها فى دوائر المخابرات البريطانية وعرفت بدقة تقاريرها ⋅⋅ ويرجع نجـاح المنظمة كلية الى كفاءته البارزة فى القيادة ⋅⋅ كان يختار العملاء بنفسه ، ويجمع ما يحصلون عليه من معلومات وكان فى الغالب يسلمها بنفسه الى ضباط مخابراتنا فى سويسرا ⋅⋅ يبدو هذا أمرا لا يمكن تصديقه ولـكن الواقع أنه استطاع أن يعبر تلك الحدود الشديدة التحصين فى أكثـر من ثمانية وتسعين مناسبة منفصلة ⋅⋅

وكانت (شبكة العمل) تكفى نفسها بكيفية تامة ، فلم تكن تستخدم أجهزة لاسلكية ، كما لم تكن تعتمد على هبوط بالمظلات من أجل الحصول على امداداتها ⋅⋅ كانت تعتمد كلية على قوة المبـادأة وعلى سرعة بديهة رجل فرنسى مقدام ثابت الجأش قوى القلب ⋅⋅

سمع ميشيل عن بعض مباني غريبة يقوم الالمان بانشائها ، فلم يتعذر عليه أن يحصل على عمل هناك فاشتغل معهم كعامل بسيط ⋅⋅ وبالرغم من ستار السرية الكثيف الذى كان يفرضه الألمان ، الا أن عملاءه استطاعوا أن يكشفوا عن مئات من المواقع المشـابهة ⋅⋅ بل ان أحد هؤلاء العمـلاء نجح فى أن يسرق رسم أحد هذه المواقع من سترة مهندس ألمانى كان قد

خرج من مكتبه لبعض شأنه ، واستطاع بسرعة أن يرسم منه صورة عاجلة ومن هذه الصورة البدائية للموقع عمل الرسم الاولى لموقع اطلاق V. 1 وأرسل الى انجلترا عن طريق سويسرا ..

ومع توفر هذه المعلومات ، فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ ، استطاع سلاح الطيران الملكى البريطانى أن يضرب بقوة مدمرة الى حد اضطر الالمان أن يتخلوا عن مشروعهم الاصلى الذى كان يهدف الى قذف لندن بخمسة آلاف قنبلة طائرة شهريا ، وانتهجوا بدلا من ذلك برنامجا أكثر اعتدالا .

وكان من المعروف وقتها أنه لولا معلومات ميشيل لكانت هجمات V. 1 على هذه البلاد ستة أمثال ما قامت به من هجمات ، ولاستمرت ستة أشهر أخرى .. بل ان لندن كانت تعانى بشدة ولأصبح غزونا لاوروبا عملية أشد صعوبة بكثير .. كانت معلوماته هذه هى ذروة نجاحه كجاسوس ممتاز .. ولكن تلك الحياة الموفقة التى كان يعيشها لم تستمر الى النهاية ، فلم يمض طويل وقت حتى وشى به البعض الى الالمان ، فراح ضحية الخيانة ، وتعرض لكل أنواع التعذيب البربرية ، من حمام التعذيب الى الجلد بالسياط الى رحلة مرعبة بالقطار لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال حيث يكدسون الاسرى محشورين معا كل مائة شخص فى عربة بحيث يضطرون الى الوقوف جميعا محشورين بعضهم بعضا ثم أخيرا يرسلونهم الى الاختناق فى معسكر الابادة فى نيونجام Neuengamme

وكان المقصود بهذا النوع من المعاملة اما قتل الاسرى أو على أى حال تحقيرهم وانزالهم الى مرتبة الحيوانات .. وقد نجحوا فى خمسة وتسعين فى المائة من الحالات .. ولكن ميشل كان من بين الرجال الافذاذ الخمسة فى المائة الآخرين الذين استطاعوا بشجاعتهم أن يصمدوا الى النهاية ..

وأخيرا عندما كانت جيوش الحلفاء المنتصرة تتقدم زاحفة ، زجوا بالاسرى فى بعض البواخر التجارية (التى كان فى نية الألمان اغراقها) ودفعوا بها الى البحر لتضربهم قنابل الحلفاء ولكن ميشيل نجا من الموت بأعجوبة ..

ولا يشك أى قارىء لهذا الكتاب أن ميشيل هولارد كان جديرا بأسمى الاوسمة التى يمكن أن نمنحها لاجنبى فى هذه الظروف أى وسام الخدمة الممتازة .. على أنه يبدو لى أن كثيرا من التماثيل قد اقيمت فى لندن ــ المدينة التى أنقذها ــ لكثيرين هم أقل منه استحقاقا لهذا التمجيد ..

تمهيـــــد

اذا وصلت الى محطة الشــمال Gare du Nord ثم اتجهت الى باب الخروج الجانبى فانك تخرج الى شارع طويل مستقيم ضيق يتجـــه رأسا الى مونتمارتر ٠

وهذه هى ضاحية سانت دنيس ٠

الشارع كريه موحش يكتظ بمساكن كئيبة المنظر سودها دخــان السكة الحديد وبه حوانيت غير أنيقة ومبانى حكومية حقيرة المظهر ٠٠

ويوجد فى نهاية الطريق مقابل المحطة خمسة أو ستة مقاهى غير جديرة بوصفها ٠٠ ليس فيها واحدة يمكن أن يختارها الانسان ليقضى ســاعة راحة ٠٠ يؤمها فى الغالب المسافرون المستعجلون أو موظفو المحطة ٠٠

ولعل أقلهــا شــأنا البــار الصــغير الذى يســمى (الصـــيادون) Aux chasseurs وربما أعطى هذا الاسم فى زمن مضى لــكى يجذب الرياضيين وهم فى طريقهم الى ركوب القطار الذى يذهب بهم الى الصيد ٠

وكان هذا البار الصــغير (أوشوسير) يقع بين مبنيين أكبــر منـــه وأحسن منه منظرا مما جعل له طابعا مختلفــا جذابا ٠٠ ومدخله ضيق حتى لا يتسع لمرور العاملين فيه وفى نهايته مكان فسيح ينتهى ببـــاب كتب عليه « دورة المياه » ٠ وقد يمر الانسان مئات المرات دون أن يستلفت نظره أو حتى يلاحظ وجوده ما لم يكن هناك شىء يستلفت نظره فعلا ٠

هذا الشىء هو لوحة صغيرة من الرخام على الجدار الخارجى محفــور عليها الكتابة التالية :

« هنا فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٤ قبض الجستابو على رئيس شـــبكة العمل ميشيل هولارد وعلى العمـلاء جوزيف ليجنـدر وهنرى دوجاربيه وجيل مايلى (الذين ماتا من أجل فرنسا فى أول يونيـه عام ١٩٤٤ فى موتهوزين) .

ان الحادث الذى تحيي ذكراه هذه اللوحة الرخامية كان فى آن واحد نهاية وبداية : كان نهاية مغامرة عظيمة تجلت فيها مخـاطرات هائلة ، وتحققت بها نتائج عظيمة لقضية عظيمة ، مع اليقين الماثل دائما فى الذهن أن الجزاء قد يكون الموت أو ما هو أشر من الموت .. أما البداية فقد كانت العذاب والآلام التى كان يبدو أنه ليس لها الا خاتمة واحدة .

وهذا الكتاب هو قصة كل من المغامرة والعذاب . أما المبررات لسرد هذه القصة الآن ، بعد أن مضى كل هذا الزمن الطويل على أحداثها ، فهو حاجتنا الدائمة الى أن نذكر أنفسنا بالآفاق العالية وبالأعماق التى يمكن أن تحرزها الكائنات الانسانية ، والتضحيات التى لابد منها من أجل الاحتفاظ بالحرية مرفوعة اللواء .

هذه هى القصة الحقيقية ، وكل حدث فيها تؤيده الأسانيد اما بواسطة البطل الرئيسى لها أو غيره من الشهود العيان ومعظمهم ما زالوا على قيد الحياة ..

على أنه لما كان من المتعذر على أى انسان أن يتذكر الكلمات بالضبط التى دارت بها كل مناقشة .. وحتى لو كان ذلك ميسورا لما كانت تصلح للقراءة .. فان المؤلف قد سار بأسلوب السرد القصصى وراعى باستمرار روح الحديث الذى قيل فعلا وطابعه .

١

الهروب من باريس

فى ذلك اليوم الحار من أيام الصيف ، كان أهل باريس يبدون جامدين غير مكترثين ، أقل من أن يقال عنهم أنهم كانوا مذعورين مصدومين .. فلم تكن ترعبهم الكارثة بقدر ما كانوا مستسلمين لأقدارها ..

وكان هذا هو رد الفعل فى أمة قد ضربت فعلا حتى قبل أن تنشب المعركة .. كان هناك فى الغالب شعور بالارتياح لأن النتيجة التى لم يكن لابد منها قد جاءت بسرعة كالملاكم الذى يرى من الافضل أن يخرج من حلبة الملاكمة فى الجولة الاولى بضربة قاضية بدلا من أن يتعرض للدك والعجن بقسوة وحشية فى عشر جولات متتابعة .

أما الآن وقد انتهى الامر فانهم يستطيعون أن ينصرفوا الى أعمالهم .. أو هكذا خيل لهم ..

لم يكن هناك ذعر حقيقى ، حتى عندما انتشرت سحائب الدخان الابيض التى انبعثت عن حدائق مبنى وزارة الخارجية مشيرة الى ذلك التقليد التافه أو الفريضة الاخيرة التى تقوم بها العاصمة المغلوبة على أمرها .. وهى حرق المحفوظات الوطنية التى كان يقوم بها حجاب وزارة الخارجية بستراتهم الطويلة الذيل ..

كان المفهوم فعلا أن الحكومة قد غادرت باريس — وأن أهل باريس — بل كل من استطاع — قد استعدوا لاقتفاء أثرها وأخذوا يحزمون بعناية أثمن مقتنياتهم كما لو كانوا مقبلين على رحلة أو فسحة طويلة ..

وكان يسود معظم أنحاء المدينة نوع غريب من الهدوء أشبه بهدوء بعد ظهر يوم الاحد قبل افتتاح دور السينما فقد كانت جميع الحوانيت وكثير من المقاهى مغلقة ، ولكن الناس كانوا لا يزالون يرحلون ويجيئون فى الشوارع كما لو كانوا لا يجدون ما يعملونه أفضل من ذلك ..

وفى الاحياء الانيقة كانت العربات محملة بأقصى ما تستطيع أن تحمل ليس العفش فقط ، بل الاشياء الثمينة من ملابس وقطع فنية وغير ذلك ٠

وعند محطة ليون ومحطة أوسترليتز كنت تجد صفوفا طويلة من المهاجرين المشردين الاذلاء ، ينتظرون قطارا قد يقوم وقد لا يقوم ، وهم يجلسون على حقائبهم ويمضغون طعامهم الذى أحضروه معهم ٠٠ كانت الظاهرة الوحيدة المنذرة بالشؤم ذلك العمود من الدخان الكثيف المنبعث من بقايا معمل تكرير للبترول قد دكته القنابل ، وكان هواء الصيف الخفيف يدفع بدخانه ببطء الى ناحية الشرق ٠٠

وفى (مركز دراسات الميكانيكا وامدادات الحرب والتسليح) وهو مؤسسة حكومية تقوم باختبارات النماذج ، حيث كان ميشيل يقوم بعمل وقت الحرب ، كانت الاوامر قد صدرت للأفراد بالجلاء عنه قبل ذلك بأيام ٠٠ وكان عليهم أن يتجهوا الى الجنوب وأن يقدموا أنفسهم للعمل فى معمل تسليح تملكه شركة براندت Brandt فى بلدة تول فى قسم كوريز واذا اضطرتهم الظروف يستطيعون أن يقطعوا رحلتهم عند (لافيرتيه سان أوبان) حيث يوجد مصنع آخر لشركة براندت ٠

وكان ميشيل قد سبق وأرسل عائلته الى الريف فلم يكن فى عجلة من أمره على الرحيل ـ وهو على خلاف معظم الرجال الفرنسيين كان مع الحرب بكل قلبه ولم يكن يستطيع أن يقنع نفسه أنهم قد خسروا الحرب هكذا سريعا ٠

لقد سبق أن حارب الالمان فى الحرب العالمية الاولى ، متطوعا فى سن السابعة عشر وأحرز نيشان (الصليب الحربى) وعرف مزايا الجندى الفرنسى ، ولم يستطع أن يفهم كيف أمكن التخلى عن الدفاعات الطبيعية لفرنسا الواحد تلو الآخر دون قتال فى الغالب ٠

ولكنه عندما سمع فقط أن الالمان قد عبروا « الواز) وأصبحوا على مقربة من (بيرسانت بومون) التى تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من باريس ، عندها فقط أدرك أن المعركة قد انتهت ٠٠

وقد تمهل لأطول وقت ، متلكئا فى الرحيل كرجل يغادر سفينة تغرق ٠٠ وعندما ظهرت فى الشوارع اللوريات محملة بمهام الجنود

المتقهقرين ومعظمها ليس فيها أى ضابط أدرك أن الوقت قد حان للخروج لم تكن لديه سيارة ولا دراجة ولم تكن هناك وسائل نقل عامة ، وأى سيارة ميسورة قد صار الاستيلاء عليها ‎..‎ وتبعا لذلك كان عليه أن يواجه رحلة على قدميه ‎..‎

كان عليه أن يسافر خفيفا فلم يأخذ معه الا كيسا ومحفظة ‎..‎ فيهما غيار من الملابس وأدواته الهندسية وبضعة صور عائلية ‎..‎ وكانت هذه الاخيرة ـ كما سيتبين فيما بعد ـ اختيارا غير موفق ‎..‎

وعند الساعة السابعة من بعد ظهر يوم ١٣ يونية ١٩٤٠ أغلق باب مسكنه وشرع فى رحلته ‎..‎

وطوال اليوم كانت سيارات البوليس بمكبرات الصوت تذرع الشوارع تنصح الناس بالتزام بيوتهم ‎..‎ وكان هذا بالطبع اشارة للباريسيين لكى يهاجروا البلدة « بالجملة » ‎..‎ ولم يكن ميشيل قد قطع مسافة طويلة حتى رأى نفسه مشتركا فى أفواج من الناس فى حركة تعتبر من أعظم عمليات « الخروج » فى التاريخ وقد قدروا أن مليون شخصا قد غادروا العاصمة فى ذلك الاسبوع ‎..‎

وتجنب ميشيل الطرق الرئيسية واتخذ طريقه الى Poterne des Peupliers « بوابة الشعب » ومن هناك اتخذ الطريق الرئيسى المؤدى الى أورليانز ‎..‎ كانت الشوارع كلها غاصة بالجماهير المتجهة الى نفس المكان ‎..‎ وفى خارج أى مصنع كان العمال يتسلقون لوريات الشركة ‎..‎

وأمام البوابة كان الزحام شديدا وكان يبدو أنه يتزايد كل لحظة ، اذ أن سيل المهاجرين الرئيسى كان يتضخم ويزداد بما ينصب فيه من سيول المهاجرين المتدفقين من الطرق الجانبية ‎..‎ كان السائرون على أقدامهم وراكبو الدراجات والعربات وعربات اليد يمتزجون معا فى طوابير وحشود تتقدم فى سرعة الراجلين ومن حين لآخر كانت احدى الطائرات تئز محلقة فوق الرؤوس ولكن دون اطلاق قنابل الى الآن ‎..‎

وبعد مسيرة حوالى ساعتين وصل ميشيل الى صليب بيرنى Croix de Berny وهو تقاطع طريف يقع خارج باريس مباشرة ، حيث يتقاطع (الطريق الوطنى رقم ٢٠) مع طريق استراتيجى آخر ‎..‎

وقد أصبح اليوم مركز ضاحية سريعة النمو تضم مجموعات بنائية كبيرة (بلوكات) للمساكن البلدية التي تقام في كل مكان منها ، ولكن منذ عشرين عاما لم يكن في هذه المنطقة الا مساحة جزئية مبنية مع قليل من المنازل في صفوف متقطعة .

وبعد حوالى خمسين ياردة من تقاطع الطرق كانت هناك بعض المنازل والحوانيت ، وهنا وقف كثير من المهاجرين لكي يقضوا الليل .. فالناس الذين معهم سياراتهم ناموا في داخلها أو على سطحها أما الآخرون فتوسدوا الارض .. والمقهيان الوحيدتان كانتا مغلقتين ، وكان من الواضح جدا أنه لم يكن هناك أي مكان خال ..

ووجد ميشيل بعد أن سار قليلا فسحة بين منزلين كان يحميهما سياج عن الطريق ووجد فيها مكانا يصلح للراحة من عناء الطريق .. ولم يكن قد تناول طعاما منذ الظهر ولم يكن معه سوى بقايا رغيف فأخذ يتناوله كعشاء ..

كانت موسيقى راديو باريس تسمع من أحد النوافذ المفتوحة وقد تجمع عدد من الناس ليستمعوا الانباء .. وقبيل منتصف الليل أعلن أن المسيو بول رينو رئيس مجلس الوزراء سيلقى خطابا على الامة .

كان الخطاب قصيرا للغاية وكان يتكون على الاكثر من الرد السلبى الذى أعطاه الرئيس روزفلت على طلب فرنسا الحصول على المساعدة .. وقد قرأه الرئيس بالكامل .. وقد انتهى بالتعبير عن ايمانه بأن فرنسا « ستبعث » من جديد ..

ولما كان الموتى فقط هم الذين « يبعثون » فان هذا التعبير قد أزعج ميشيل الذى تشاءم منه ..

ولم يكن هناك من الأنباء الهامة الا اعلان أن باريس مدينة مفتوحة ، ولم تكن الانباء ضرورية فكل انسان كان قد عرف أن هذه هي النهاية ، ولو أنه لم يكن يعرف معنى ذلك بالضبط بالنسبة لمستقبل فرنسا ..

وعاد ميشيل الى موقعه ، وبالرغم من برودته فقد حاول أن ينام ولو بضع ساعات قليلة .. وعندما استيقظ في الخامسة صباحا كان ذلك على

صوت اطلاق النار ٠٠ فالطريق الذى كان الليلة السابقة مكتظا بالمهاجرين كان الآن مهجورا تماما ٠٠ والمنازل ما زالت مقفلة الابواب والنوافذ ولم يشاهد أى انسان فأحس بشعور العزلة المزعج كما لو كان هو الانسان الوحيد على قيد الحياة ٠٠

ولكنه عندما تطلع الى الخلف على امتداد الطريق الذى جاء منه أدرك أنه لم يكن وحيدا ٠٠ كانت هناك دبابة هائلة تقف عند تقاطع الطريق بمدافعها مصوبة نحوه ٠٠ وكان مرسوما على جانبيهـا الصليب المعقوف بحجم كبير باللونين الاسود والابيض ٠٠

ولاحظ ميشيل مذهولا أكثر منه خائفا اثنين من الجنود الفرنسـيين يحملان سلاحهما ويجريان الى جانب الجدار فأطلقت الدبابة نيرانهـا مرة أخرى ٠٠ وكان من الواضح أنه لابد من الرحيل ٠٠ وتسلق ميشـيل السياج وعبر عدة حدائق الى أن وصل الى نهر صغير ٠٠ فتبعه قليلا الى أن أوصله مرة أخرى الى الطريق الرئيسى الذى كان لا يزال مزدحما بحركة المرور فى اتجاه واحد ٠٠

وكانت سرية من المشاة تتقدم في الطريق وتبدو عليها مظاهر الارهاق ووهن العزيمة ٠ وتقدم ميشيل الى أن اقترب من الضـابط وسـار الى جانبه وسـأله عن سـير الأمور فعلم منـه أنهم قادمون من ليـل Lille وأن لهم ثمانية أيام سائرون وكاد الرجال يهلكون من التعب ٠٠ ولـكنهم يحاولون العثور على باقي الكتيبة أينما كانت ٠٠ وعليهم أن يخرجوا عن الطريق لانه ضرب بالقنابل ولابد أن العدو يتعقبهم وقد يكون هدفه هذا المكان » ٠٠

واستمع ميشيل الى النصيحة وظل باقى اليوم يسـير فى الطرق الجانبية ، أو عبر المدينة ، وفى الحقـول حيث كان القمح قد نضج كان الرجال والنساء يعملون كالعادة ، كما لو كانوا لا يدركون ما يحـدث ببلادهم ٠٠ وكانوا ينظرون الى ميشيل دون اكتـراث وكان يعيش على بعض ثمار الارض ٠ وعندما حل الليل كان قد بلغ به الاجهاد حدا جعله يستلقى فى حفرة وينام فيها ٠٠

وفى صباح اليوم التالى استعرض الحالة ٠ ورأى أنه سار ثلاثين ميلا من ثلثمائة ميل عليه أن يقطعها ، وقد شعر بالارهـاق وتورم قدماه ٠٠

ولم يجد أمامه أملا فى الحصول على معونة ، وعلى أى الاحوال فان السفر بالسيارة علاوة على ما فيه من خطورة الضرب بالقنابل ، فانه قلما يكون أسرع من السفر سيرا على الاقدام ٠ ٠وقرر أن يتجه الى أقرب محطة سكة حديدية وكانت فى بلدة صغيرة تدعى ايتامب ٠ ٠

وعندما وصل وجد شباك التذاكر مغلقا ٠٠ ولكن رصيف المحطة كان مزدحما فى الغالب بالجنود ٠٠

وبينما كان ميشيل يتمشى على الرصيف شاهدته امرأة وأشارت اليه وهى تصيح بكيفية هستيرية هذا هو ! انه المظلاتى !

وظن ميشيل أن المرأة تشير الى رجل آخر خلفه تحول لكى يلتفت اليه وفى نفس الوقت انطلقت رصاصة أصابت جنديا كان يقف بالقرب منه فسقط على الارض وهو يئن ويصرخ وتطلع ميشيل لكى يرى الضارب فشاهد جنديا يخفض بندقيته وعندئذ نشبت ضجة صاخبة ٠٠

انهارت المرأة على أحد المقاعد وكان الرجل الجريح يربط فخذه وقد احتشد الجمهور حوله ٠٠ وهنا أسرع ميشيل الى خارج المحطة موليا الادبار وانحرف الى أول انحناءة من الطريق ولم يخفف من سرعته الا بعد أن شعر بالامان ٠٠

وكان من الواضح أن المحطات شىء يجب أن يتجنبه ٠٠ وأدى به الطريق الذى اتبعه الى تقاطع ٠٠ حيث وجد أبوابا مغلقة وقطار بضاعة يهدىء من سيره فيسد الطريق ٠٠ وأمامه رجال يعملون على تطهير الطريق الذى كان مغطى ببقايا كابلات كهربائية ، وكانت جماهير المشاهدين من حقل مجاور ترقب سير العمل ٠ ٠

كان القطار يسير فى الاتجاه الصحيح ، فتبادر الى ذهن ميشيل أنه لو تسلق احدى عرباته ربما نقلته جزءا كبيرا من طريقه ٠٠ وبينما هو فى تأمله سمع أزيز طائرة وشاهد طائرة بيضاء صغيرة تحلق على ارتفاع منخفض ، وكانت ايطالية ٠ ٠ورأى ميشيل ثلاثة أشياء سوداء تسقط منها ٠٠ وبعد لحظات سمع انفجاران بالقرب منه ٠٠

وكانت امرأة تقف على بعد خطوات فارتمت على الارض عند اقتراب قاذفة القنابل ولكن ميشيل أدرك دون الاقتراب منها أنها قد فارقت الحياة وأصيب رجل آخر بجراح بالغة واستعان ميشيل بآخرين ونقل الجريح الى الطريق ·· حيث استطاع ميشيل أن يوقف سيارة عسكرية واقناع سائقها أن يأخذ معه الجريح الذى كان قد فقد وعيه ، الى أقرب مستشفى .

وتذكر ميشيل أن قنبلتين فقط من القنابل الثلاث التى ألقيت قد انفجرتا فعاد الى الحقل الذى سقطت فيه ، وحيث كان جمهور الناس لا يزال محتشدا ، فالتقط غصن شجرة وربط بطرفه خرقة كبيرة وغرس الغصن كأشارة خطر بجوار القنبلة الثالثة وكان المشاهدون يصيحون به أن لا يقترب منها ، ولكنه تجاهل صراخهم ووضع العلامة ثم سار فى طريقه ··

وكان تصرفه شاذا فى نظر مواطنيه وتصوروا أنه قد يكون أحد عملاء العدو ·· ولم يدرك من الذى شن هذه الحركة ضده ، ولكنه فى الحال وجد نفسه محاطا بجمهور صاخب سرعان ما هاجمه ومزق ملابسه وألقاه على الارض ·· وبينما كانوا يجردونه من ملابسه كان آخرون ينبشون محتويات حقيبته فوجدوا بينها صور أفراد عائلته وصاح أحد المتجمهرين وهو ينظر الى صورة جده فى الحرب العالمية الاولى هاهو حبيبه الفوهرر !

وكان ميشيل فى تلك الاثناء يصيح محتجا مدللا على براءته دون جدوى وشاهد فى تلك الاثناء مرور جماعة من الجنود السنغاليين على الطريق على بعد خمسين ياردة ·· فحاول أن يكلم الجمهور فى هدوء راجيا أن يحسنوا صنعا بتسليمه الى الجنود ··

وقال الرجل الذى كان ممسكا بمسدسه ويتزعم الجمهور ، بعد تردد : « فكرة حسنة انهم سيعرفون كيف يتصرفون معه » ·

وسحبوا ميشيل عبر الحقل وسلموه للجنود وهو شبه عارى ولحسن حظه أن الصف ضابط الذى كان يقود الجماعة استطاع أن يدرك الحقيقة بسرعة ·· فقال لهم حسنا دعوه لنا وسنهتم بأمره ·· وظن الجمهور أن ضحيتهم سيعدم فى الحال ·· وصمموا على أن لا يفوتهم المشهد ··

وأشار زعيم الجمهور الى القائد السنغالى وهو يمر بأصبعه على رقبته مشيرا عليه بطريقة اعدامه لانه غير جدير باعدامه رميا بالرصاص ٠٠ فبذل الضابط جهدا ليقنعهم بأن الامور لا يجب التصرف فيها على هذا الوجه وأنه من الواجب تقديم الاسير الى أقرب نقطة قيادة ٠٠ وأخيرا أمر الجنود أن يفرقوا الجمهور الذى انصرف بالتدريج متلكئا ٠٠

وذهب أحد الجنود لاستحضار حاجيات ميشيل ، بذلته وسترته أما قمصانه فقد مزقت ولحسن حظه كان لدى الجنود ما يستطيعون تعويضه عما فقده ٠٠

ثم حرسه الجنود الى أن اختفى عن أنظار الجمهور ونصحوه أن يبتعد بسرعة ٠٠ وهو ما فعله بعد أن ألقى نظرة من بعيد على علامة الخطر التى وضعها بالقرب من القنبلة التى لم تنفجر ٠٠

وللمرة الثانية فى يوم واحد ينجو من الموت بأعجوبة ، الموت بأيدى مواطنيه ٠٠ الذين أصبح ميشيل يعتقد أنهم أشد خطرا عليه من الالمان ٠ وصمم أن يتصرف فى المستقبل بكيفية أكثر حرصا وحذرا ٠٠ على أن أحداث هذا اليوم لم تكن قد انتهت بعد ٠٠

فعندما وصل عند هبوط الليل الى ضواحى أورليانز وجد ثورة حامية تنشب ٠٠ النيران تشتعل فى الكاتدرائية وعدة حرائق أخرى تجتاح المدينة ٠٠ ورأى من الافضل أن يتجنب هذا المكان ، ولكن ذلك سيضطره الى القيام بدورة كبيرة حوله ، فقرر أن يواصل طريقه الذى أدى به الى الاقتراب من الكاتدرائية ومشاهدة ما أصابها من تلف ٠٠ وهناك شاهد المنظر الذى أزعجه الى أقصى حد ٠٠ عدد من الناس معظمهم من النساء والاطفال كان قد حجزهم اشتعال النيران فى البيوت المجاورة وكانوا يحاولون أن يشقوا طريقهم من خلال الضباب الكثيف من الدخان ٠٠

ورأى ميشيل أن هذا قد يؤدى بهم الى الاختناق ، فاقترب ميشيل من جماعة من الناس وصاح بهم أن يحاولوا الهرب عبر ثغرة ضيقة فى حلقة النيران التى جاء منها هو نفسه واستمع واحد أو اثنين لنصيحته أما الباقون فقد تخاذلوا ، فاندفع اليهم بنفسه وكان يأخذهم واحدا بعد واحد بعيدا عن النيران والدخان ٠٠

وظل منهمكا فى عملية الانقاذ هذه مدة نصف ساعة ، عندما لاحظ أن اثنين من الرجال يقفان قريبا من المكان ويشاهدان ما يقوم وهمـا يتحدثان سرا ويتطلعان اليه من حين لآخر ·· أوجس خيفة من بعض تصرفهما وموقفهما ، واندفع بغريزته الى الابتعاد عنهما ·· وتطلع اليهما من فوق كتفه فرأى أنهما يتبعانه فظل يجرى الى أن وصل الى كوبرى على نهر لوار وواصل السير الى أن وجد نفسه فى منطقة ريفية وكم طاب له أن يجد كومة من القش فيرتمى عليها لكى ينام ليلته ··

ولم يكن لديه شك فى أنه لو تردد لحظة أخرى ، لوجد نفسه مرة أخرى يواجه الجمهور الصاخب الذى يقتص منه دون مناقشة أو محاكمة ، اقتناعا منه بأنه أحد عملاء العدو ··

وبدا له الأمر لغزا فكيف يكون مظهره دون غيره من الرجال الفرنسيين مثيرا لشعورهم الى هذا الحد ·· ولكن كان هناك سببا بسيطا : أنه عندما يسيطر جو الذعر والاضطراب فان الرجل الذى يرفع رأسه ويحاول أن يكون معينا للناس فانه بهذا يجعل من نفسه هدفا للانظار وبذلك يثير الشبهات حوله ··

كان ذلك درسا مفيدا له ، تعلم منه خلال السنوات الاربع التالية أن يجعل من نفسه فردا عاديا فى عداد الجمهور ··

وبالمقارنة مع الثمانى والاربعين ساعة الاولى كانت باقى رحلة ميشيل قليلة الحوادث ·· ووصل الى منتصف الطريق عند بلدة (لافيرتيه سانت أوبان) واستمتع بأكلة طيبة لأول مرة منذ غادر باريس ، وغادر مصنع براندت قبيل تدميره بالقنابل كلية ··

وبعد يومين آخرين من سير ونوم فى العراء وجد مكانا ينام فيه فى أنجوليم ·· وفى اليوم التالى استطاع أن يركب احدى العربات وكان من حظه أن العربة كان مسموحا لها باختراق الحاجز الذى أقامه البوليس لمنع تدفق المهاجرين صوب الجنوب ··

وأنزلته العربة عند بريف Brive ومن هناك أتم رحلته باحدى عربات الاوتوبيس ·· جلس بجوار سائقها فى شكل رجل ريفى بسيط وعندما كانوا يناقشون الموقف قال السائق اننى واثق من النصر فى النهاية

فكانت المرة الاولى التى سمع فيها ميشيل التعبير عن مثل هذا الشعور الذى صدر من رجل أمين متواضع فملأه التأثر والعاطفة وبدأ هو أيضا يؤمن بالنصر ..

وعندما قدم نفسه إلى مقر الرياسة الجديد « لمركز الدراسات » فى تول Tulle أدرك ميشيل فى الحال أنه ليس هناك ما يحدث .. فالحرب قد انتهت ولم يعد ما يبرر وجود المركز .. وكان يستطيع كالآخرين أن يستمتع بحياته ويحصل على مرتبه .. ولكن هذا كان بعيدا عن تفكيره ..

وطلب الحصول على أجازة غير محدودة ـ بدون مرتب ـ واقترض دراجة وغادر المدينة فورا ليتصل بعائلته ـ وبعد يومى سفر بالدراجة وصل الى حيث يقيمون بالقرب من جانج Ganges فى اقليم هيرو Herault ولم يكن قد رآهم منذ شهر سبتمبر وكان سعيدا بلقياهم ولو لمدة قصيرة لانه كان من الضرورى لميشيل أن يجد وسيلة لمعيشته .. وبعد أيام قليلة استراح فيها خرج مرة أخرى أولا الى بيزيه ثم الى ليون . وفى ليون وجد عملا ولكن بأجر ضئيل فأخذ يبحث عن عمل آخر ..

وفى تلك الاثناء ، فى يوم ٢٥ من يونيه تم التوقيع على الهدنة وتولى بيتان السلطة وأخذت الحياة فى فرنسا ـ بقدر ما يمكن أن تكون تحت سلطة الألمان ـ تعود الى الحالة العادية وكان كثير من اللاجئين يعودون الى باريس وأخذت ادارات الحكومة التى كانت قد أخليت ، ومن بينها مكتب الدراسات ، تفتح مكاتبها من جديد فى العاصمة .

وقرر ميشيل العودة اليها .. ففى منتصف يولية عاد بكل عائلته الى باريس ، واستأنف اقامته فى مسكنه فى شارع أرنييه .

وفى اليوم التالى تقدم الى مركز الدراسات ، فاستقبله المدير بالترحاب وكان عمله لا يزال مفتوحا أمامه ، ولكن بمسئوليات أكثر أهمية ومرتب أكبر ..

ولكن ميشيل سألهم : « لحساب من تعملون ؟ » فكاد الرد لسلطات الاحتلال بطبيعة الحال ··

فقال لهم : « اذن فأنتم تعملون عكس ما كنا نعمله قبلا على خط مستقيم ·· انني أشكركم ولست أنا بالرجل المتقلب ·· وانى آسف لانى مضطرا أن أرفض عرضكم » ·

ثم نهض وسلم وانصرف ··

كان ذلك أول اتصال له بنظام الحكم الجديد الذى لم يكن يقبله ··

نعم انه لن يقبل اطلاقا ··

٢

المغامرة الأولى

كان مشيل فى الحادية والاربعين من عمره عندما نشبت الحرب وكان ذا تكوين رياضى طوله خمسة أقدام وسبع بوصات أسود الشعر الممشوط الى الخلف ، تعبيرات وجهه سريعة التغيير ، وعيناه تنمان عن النشاط والحيوية ، يرتدى غالبا بذلة غامقة تتميز بشريط (الصليب الحربى) ، ولاول وهلة لم يكن يبدو أنه يختلف عن أى رجل من رجال الاعمال الفرنسيين المتوسطى الحال ٠٠ ومع ذلك فقد كان هناك شىء فيه ــ نوع من الثقة الداخلية ــ توحى الى الخبير فى طباع البشر وخداعهم ، ان هذا الرجل ليس بالرجل العادى ٠

عندما كان فى السادسة عشر من عمره خرج من بيته هائما لكى يشترك فى الحرب العالمية الاولى وظل يعمل طيلة عام كمساعد فى أحد المستشفيات العسكرية ، اذ أن سنه لم تكن تسمح له بالانحراف فى سلك المحاربين ٠

وعندما بلغ التاسعة عشر أصبح جنديا ، وبعد ذلك بعام كان يقود فصيلته فى مطاردة الالمان المتقهقرين ، عندما وضعت الهدنة حدا لحياته العسكرية ٠ وكان فى تلك الاثناء قد اكتسب خبرة تزيد عما يحرزه كثير من الناس مدى حياتهم ٠

وعاد الى الحياة المدنية ولم يكن ذلك بالامر الهين عليه ٠٠ فقد كان تعليمه بالمدارس خاطئا غير مستكمل فكان عليه أن يتم تعليمه ، وان يكسب ما يقوم بأوده فى نفس الوقت ، ذلك لان والده ، وكان عالما ممتازا ، كان عليه أن يعول بناته الخمس فلم يكن فى وسعه أن يمده بأى مساعدة ٠

وزيادة فى تعقيد الامور أمامه أحب فتاة وخطبها بالرغم من معارضة العائلتين ، وكانت الفتاة مثله بروتستنتية المذهب ولكنها كانت أكثر منه تعلما ٠٠ ومن أجل ابعادها عن خطيبها أرسلها أهلها الى الخارج لمدة ثلاث سنوات ، واستغل هو هذه الفرصة لكى يجعل نفسه أكثر جدارة لها ٠٠

واخيرا وافق أهلهما على الزواج ·· وأنجبا ثلاثة أطفال ·· وكانت مطالب العائلة تستوعب كل مجهود مشيل ونشاطه دون أن تترك له الا وقتا ضئيلا لاهتماماته الاخرى من سياسة وموسيقى وأدب الذى كان يعشقها حقا ·

ولكى يؤهل نفسه فى مهنته المختارة وهى الهندسة ، فى نفس الوقت الذى يقمل للقيام بأود عائلته ، انضم الى الفصول الليلية فى (المعهد الوطنى للفنون والصناعات) الذى يعادل معهد (البوليتكنيك) أى معهد الفنون التطبيقية فى لندن ·· واحرز دبلوما فى علوم الميكانيكا والماكينات والصناعة المعدنية ·

وتسلح بهذه العلوم وما أحرزه من معلومات دقيقة فى الصناعة والاقتصاد ، استطاع أن يشق طريقه فى عالم ملىء بالتنافس فى سنى ما بين الحربين ، واشتغل فى مختلف الاعمال · ولكنه عندما نشبت الحرب ترك تلك الأعمال وعمل كممثل فنى لاحدى الشركات الصناعية ·

وكان مشيل يأمل ، باعتباره ضابطا فى الاحتياط برتبة كابتن ، أن ينضم مرة أخرى الى الجيش ·· ولكن هذه الطبقة لم تستدع ، وبالرغم من الجهود التى بذلها لكى يقبل فى الخدمة العاملة وجد أنه قد عين فى وظيفة مدنية تحت اشراف وزارة الحرب ·

ولكنه نبذ ذلك عندما اكتشف أن مركز الدراسات ، بكل مصادر صناعة الاسلحة الفرنسية تحت تصرفه ، كان يعمل من أجل العدو بموافقة حكومة فيشى ·

وكانت المسألة ماذا يعمل بعد ذلك ؟ كان الشىء الملح بطبيعة الحال أن يجد عملا جديدا ·· ربما تكون فرنسا قد خسرت الحرب ، واصبحت تجثو على قدميها ، والالمان أصبحوا السادة فى باريس ، ولكن لا يزال الانسان مضطرا الى أن يأكل ليعيش ، ومعه زوجته واطفاله الثلاثة الذين عليه أن يعولهم ·

ولكنه اذا كان قد قرر أن لا يفعل أى شىء أو يقوم بأى عمل فيه مساعدة للعدو ، فان الحصول على عمل فى هذه الحالة يكون من الصعوبة بمكان ·· وبالاتفاق بين السلطات الحاكمة والمستسلمة ، الراضية كثيرا أم

قليلا ، أصبح الاقتصاد الفرنسي يتكيف بسرعة لخدمة الدولة المحتلة ‥ وفي الصناعات الهندسية بصفة خاصة ، التي كان مشيل متخصصا فيها ، كانت كل الشركات الكبرى في الغالب تعمل بكيفية مباشرة أو غير مباشرة من أجل الجهاز الحربي الالماني ٠

وكانت الصدمة التي أصابت مشيل من اكتشافه هذه الحقيقة ، هي بداية ثورته النفسية ، إذ كان عليه أن يقرر الطريق الذي سيتخذه ، فاما أن يكيف نفسه لقبول الحالة واما أن يرفضها كلية ‥ لم يكن في حاجة الى وقت طويل لتقرير ذلك بعد عودته الى باريس ‥ فالواقع أن الامر لم يكن يتطلب منه استجواب ضميره ، بل كان بالاحرى تصرفا انعكاسيا أو مسلكا غريزيا يوحي به تكوينه الاساسي أكثر مما يوحي به تفكيره الذهني ٠

ولما كان قد نبذ فكرة الهزيمة فالنتيجة المنطقية الوحيدة هي أن يواصل القتال ، وهذا هو ما عقد مشيل النية عليه حتى لو أضطره ذلك أن يحارب وحده ، وبالرغم من أنه في تلك اللحظة لم يكن يرى كيف يكون ذلك مستطاعا ٠

وفي نفس الوقت كان يواصل البحث عن عمل ‥ فكان مشيل يرد على اعلانات العمل ، ويحضر المقابلات، ويستلم عروضا ولكنه كان يرفضها جميعا بمجرد أن يكتشف أن قبوله ينطوي على اخلاله بمبدئه ٠

وفي أوائل أغسطس ، وكانت قد نفذت النقود من يديه ، قرأ اعلانا في صحيفة من « ديجون » بدا له أنه يتمشى مع شروطه ‥ شركة هندسية تنتج ماكينات للسيارات تعمل بالغاز وكانت تريد ممثلا لها في باريس ٠ وهذه الماكينات التي كانت تدار بالفحم النباتي كانت مطلوبة في ذلك الحين نظرا لنقص البترول ٠

ولو أنه كان مطلوبا من المرشحين أن يبعثوا باجاباتهم كتابة ، الا أن مشيل قرر أن يتوجه بنفسه ‥ ومزق الخطاب الذي كان قد شرع في كتابته ، واخذ أول قطار الى ديجون وقدم نفسه دون سابق اخطار الى الشركة التي تسمى : Maison Cazogène Autobloc

وفي اليوم التالي عاد الى باريس بالوظيفة في جيبه ‥ فقد حصل على نوكالة لنصف باريس وعلى وعد بان لا يعين غيره لمدة أسبوعين ٠

وبفضل خبرته السابقة قبل الحرب كانت لديه اتصالات رائعة فى الصناعات المتعلقة بالسيارات ، فما أن انتهى الاسبوعان حتى عاد الى ديجون بحزمة من الطلبات ·· وعندئذ طالب الشركة بالحصول على الوكالة عن باريس بأكملها وبمدة أسبوعين آخرين لا يقبل فيهما طلب أى وكيل آخر ·· وأجابوه الى طلبه بارتياح ·

وأخيرا بعد مجهود كبير ورحلتين أخريتين الى ديجون ، عينته الشركة الوكيل الوحيد لها لمنطقة السين بلقب « الوكيل العام » وخول حق التوقيع على العقود وتعيين الممثلين الخاصين به ·

وهذه الوظيفة علاوة على أنها هيأت له الاستقلال المالى كانت فى خلال السنوات الاربع التالية بمثابة ستار تختفى وراءه جهود مشيل السرية·· وبالرغم من أنه حصل على هذه الوظيفة بمحض الصدفة البحتة ، وفى لحظة أحس فيه باليأس من ايجاد عمل يتعيش منه هو وعائلته ، الا أنه كان من العسير عليه أن يجد عملا آخر أفضل منه كان يمكن أن يخدم اهدافه فى « المقاومة » بمثل هذه الصورة الفعالة ·

ولم يسمح مشيل للقلق والانزعاج الذى كان يحس به من جراء تعطله عن العمل أن يبعد عنه تفكيره واهتمامه الرئيسى الا وهو كيف يشن الحرب ضد المانيا ·· وبمجرد أن استقر فى وظيفته الجديدة ، وحلت بالنسبة له مشكلته المالية ، راح يكيف نفسه بالنسبة للطرق والوسائل التى يتبعها ·

ولكن هذا لم يكن بالامر السهل ·· وبالرغم من أن الاذاعة البريطانية كانت كثيرا ما تتحدث عن حركة المقاومة الفرنسية ، الا أن الحقيقة أنها لغاية هذا التاريخ لم تكن قد وجدت فعلا ·· وراح مشيل يتعقب تلك الحركة بتحرياته عنها دون أن يصل الى حقيقتها ·· واخيرا قرر أن الحل الوحيد هو الاتصال المباشر مع الحلفاء ·· وفى خلال فصل الشتاء من عام ١٩٤٠ / ١٩٤١ كرس جهوده وتفكيره لهذا الامر بكيفية مستمرة ·

وفى تلك الاثناء كانت قد ازدهرت الاعمال الخاصة بماكينات الغاز·· وكانت الطلبات تتدفق عليه لدرجة أنه كان من الصعب تلبيتها جميعا ·· وكان يمكن أن تكون الطلبات أكثر لولا رفضه تلبية طلبات الالمان ·

وكان من الممكن أن يسبب له ذلك بعض المتاعب ـ والواقع أن هذا هو ما حدث فعلا ·· اذ لم يكن البترول متوفرا لدى الالمان أنفسهم فكانوا

يكثرون من استعمال الغاز ولكنه كان يتحايل بتكتيكات بارعة بابعاد العدو بينما كان يقوم بتلبيته طلبات عملائه من مواطنيه الفرنسيين ۰۰ وكان في بادىء الامر يستخدم مسكنه كمكتب لعمله ، ولكنه سرعان ما اتسع العمل فاستأجر مكاتب خاصة له في شارع بارمنيتيه Psrmentier

وكانت كلما ازدهرت أعماله كلما شعر بأنه أكثر حرية في تكريس نفسه لخطته ، وقد درس مختلف الاحتمالات التي يمكن أن يقوم بها : وقد استبعد فكرة عبور القنال .. فقد كان كل شبر من الساحل تحت حراسة شديدة ۰۰ حدود اسبانيا كانت بعيدة عن باريس ولا يعرف شيئا عن ظروفها ۰۰ أما عن سويسرا فقد كانت حدودها قريبة نسبيا ، ويعرف الكثير عن الاقليم وفوق كل ذلك كان يستطيع أن يجد مبررا قويا لرحلته اليها فهي منطقة غنية بالغابات ، التي تنتج فحم الخشب ، وهذا له علاقة كبيرة بعمله كتاجر في ماكينات الغاز ۰

والواقع أن الطلب كان كثيرا على تجارته وكان من الصعب عليه الوفاء بكل المطالب .. وكان مضطرا الى بذل جهود اضافية لكي يتيسر له ارضاء عملائه ، ولو قصر في بذل هذه الجهود لتدهورت حالة ماكينات الغاز بسبب عدم توافر الوقود ۰

ولذلك لم يكن في حاجة الى تلفيق « القصة الساترة » لتبرير انتقاله۰ فانه امر طبيعي للغاية أن يهتم « الوكيل العام » للمؤسسة المختصة بتوريد الفحم لعملائها ويتوجه بنفسه الى المواطن التي يستطيع أن يحصل منها على المزيد من تلك السلعة النادرة ۰ فاذا كان بحثه يقتضيه أن يذهب الى الحدود السويسرية فمن الذى يستطيع أن يلومه على ذلك ۰

كانت هناك عقبة واحدة ۰۰ فانه لكى يصل الى الحدود كان عليه أن يعبر (خط التوقيف في الشمال الشرقي) Ligne d'Arret وان يدخل الى المنطقة الحمراء Zone Rouge ۰۰ وكان هذا عبارة عن كردون يتراوح اتساعه بين خمسين وستين ميلا ويدور حول طول خط الحدود الفرنسية من الشرق ۰

وبالنسبة لاى فرد يعيش خارج هذه المنطقة كان من الضرورى الحصول على اذن لدخولها ۰۰ وكان مشيل يعرف أنه لا سبيل الى الحصول عليه .. ثم ان مجرد المطالبة بالحصول على هذا الاذن كانت مدعاة لاثارة الشكوك ۰

ولكن دون مغامرة لن يحرز الانسان كسبا ٠٠ وصمم على أن يتخطى أى عقبة يصادفها ٠٠ وأخذ يستعد في أوائل ربيع ١٩٤١ فكان يوفر بعض النقود كل اسبوع لتمويل رحلته واخذ فى مناسبات عارضة يبدى ملاحظاته لموظفيه توحي اليهم بأنه قد يقوم برحلة لتوفير ما يلزمهم من الفحم النباتى ٠

واخيرا أتم كل استعداداته ٠٠ وكان سكرتيره يقوم بالرد على الطلبات فى أثناء غيابه ، وأعد قدرا من المال يكفيه لمدة أسبوعين وحصل على تذكرة العودة ٠٠ وفى مساء ١٥ مايو ركب قطار المساء الى ديجون وأخذ معه دراجة ومحفظة وحقيبة فوصل ديجون فى فجر اليوم التالى ٠٠ ووصل توا الى مصانع شركته (جازوجيم) Gazogème حيث قضى فترة الصباح وحضر عدة اجتماعات مناقشا مسألة الحاجة الى الفحم ٠

وبعد أن برر مأموريته وغيابه على هذا الوجه ، غادر المصنع ، واتخذ وجهته الى طريق لانجرز Langres — الطريق الى مغامرته الكبيرة ٠

وقد اختار طريق لانجرز الذى يسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى من ديجون ، بعد تأمل عميق فى العقبة الرئيسية التى تعترض طريقه ٠٠ وكانت قنال المارن وساؤن Canal de la Marne et Saône التى كانت تكون الحد الغربى للمنطقة الحمراء ٠٠ وكانت هذه القناة تمتد شمالا وجنوبا من شرقى ديجون ٠٠ وكانت تمر فى معظم طريقها عبر مناطق مبنية ٠

ولكى يتجنب مشيل هذه المناطق قرر أن يتجه مباشرة صوب مكان يدعى كازى Casey على بعد ٢٥ ميلا لشمال ديجون ، كان يبدو أنه يقع وسط منطقة ريفية مفتوحة وكان به هويس وكذلك بضع كبارى وكان طريقه يمتد مستقيما عبر أرض مستوية كان السير عليها بالدراجة سهلا وكان يستمتع بالهواء العليل فى فصل الصيف والمناظر الريفية الجميلة من حوله ٠ كان فصل اعداد أكوام القش والحصاد والهواء مشبع بالرائحة الجميلة المنبعثة من الحشائش التى جففتها الشمس ٠٠ وعمل على أن يصل الى القناة عند الغروب ، وفعلا كانت الساعة السابعة مساء عندما اقترب منها ٠

، بينما كان يسير بموازاتها ، توقع أن عبورها لن يكون سهلا ٠٠ فكل كوبرى مقام فوقها كان محروسا جيدا بالحراس ، بينما كان

الوصول الى الهويس تعترضه حواجز من الاسياخ المدببة المعززة بالاسلاك الشائكة ٠٠ يضاف الى هذا اعلان كبير مكتوب يحــذر أى انســان من الاقتر ب من الحاجز لانه متصل بلغم ، ينفجر بمجرد اللمس ٠

وبدا له أنه لم يبق أمامه الا السباحة اذ أن القناة ضيقة وقد تكون مياهها ضحلة ، ولم يكن هذا مستحيلا حتى ومعه دراجته ٠٠ ولكن لاشك أنها عملية غير مريحة ولا ملائمة ، والامر الخطير ، أنها يمكن أن تستلفت النظر ٠٠ ولكن لم يكن هناك على ما يبدو بديلا عنها ٠٠ ولم يكن يهمــه الاسلاك الشائكة أما اللغم فأمره خطير ٠

وبينما كان يمعن التفكير فى الموقف وهو مختبىء خلف السياج ٠٠ شاهد على بعد ثلاثة يركبون الدراجــات ٠٠ وعنــدما اقتربوا تبين أنهــم داوريه المانية مكونة من انباشى ونفرين ٠

وبعد أن مروا به أصبحوا على بعد ياردات قليلة من مخبأه توقفوا عند الهويس ٠٠ عندئذ ترجل الانباشى وسلم دراجته لاحد رجليه ثم تقدم الى الحاجز ٠

وكان مشيل قريبا جدا بحيث كان يستطيــع مراقبــة كل حركة ، فشاهده يتمهل قليلا ثم يقبض على قسم من سياج القضبان ويدفعه ٠٠ وكما لو كان بابا سريا فى غرفة ، انزاح هذا القسم الى الداخل ، تاركا فراغا يكفى اتساعه لمرور رجل ٠

وبعد أن مرت الداورية عبر هذه الفتحة اعاد الانباشى هذا الجزء الى مكانه ، ثم ذر التراب على القضبان بعناية ، وتطلع حوله ليرى ما اذا كان أحد يراه ، ثم تبع رفاقه عبر بوابة الهويس ٠

وقد جاء هذا المشهد بكيفية مفاجئة لم تكن متوقعة فى نفس اللحظة التى كان ميشيل يحزم أمره على السباحة . ولكن كان أمامه الهويس بحاجزه الذى كان يبدو اختراقه متعذرا واستطاع أن يرى الالمان يتحركون على الضفة الاخرى من القناة دون أن ينفجر لغم ٠٠ وانتظر خمس دقائق أخرى قبل أن يغادر مكمنه ٠٠ وظل يرقب بانتباه ذلك الجزء من السياج ذى المظهر البرىء ، بل انه أحصى عدد القضبان على كل من جانبيه ٠

وكرر بنفسه الحركات التي راقبها فوجد نفسه فى الحال فى الفجوة والحاجز يقفل من خلفه ٠٠ وهكذا مرت أول عقبة وفى داخل الحاجز كان يوجد بيت مربع صغير والارجح أنه لسكن حارس الهويس ٠٠ ولكن لم يكن هناك ما يدل على وجوده ٠٠ ولكن بينما كان مشيل يجتاز الطريق ، فتح الباب بواسطة رجل متقدم فى السن ٠٠ ولكنه كان يبدو فى مظهره وملابسه وشعره الضارب الى الحمرة وشاربه الدقيع أشبه برجل فرنسى٠

وفوجىء مشيل به ٠٠ ولكن كانت لديه قصته التى أعدها ليقولها للالمان ٠٠ ولكنه لم يكن قد أعد ما يقوله لو وقع فى أيدى بعض مواطنيه٠ وهو فى حال تثير شكوكهم ٠٠ هل يحاول أن ينجو بنفسه أم يكشف أوراقه ويصرح لهم بحقيقة حالته ؟

وضع أصبعه على شفتيه وقال : اسمع انى أحاول الوصول الى الحدود ولا أريد أن أقع فى أيدى الالمان ٠

وتفرس فيه حارس الهويس من رأسه الى قدميه ثم حول وجهه ناحية البيت ، وتبعه مشيل الى الداخل ، وكان فى الغرفة الصغيرة بقايا عشاء وزجاجة نبيذ ٠٠ وملأ الحارس قدحان واعطاه الى مشيل وملأ هو قدحه ورفعه قائلا « فى صحتك » دون أن يطلب منه أى ايضاحات :

كان اسم الحارس فرينيون **Vrignon** ولم يشدد على زائره بتناول العشاء فقد كان الوقت متأخرا وكان مشيل يريد أن يرحل قبل اطفاء الانوار ، ولذلك فانه بعد أن شكر مضيفه ووعده بالعودة اليه ودعه وانطلق فى طريقه ٠

هذه المصادفة الناجحة رفعتمن روحه المعنوية كثيرا ٠٠ فان اكتشافه لمكان أمين لدخول المنطقة ، ولشريك يمكن الركون اليه ، بمثابة أول تشجيع يصادفه وبدا له أنه فأل طيب لخطته ٠

واشار عليه المسيو فرينيون بان يلتزم الطرق الجانبية ولكن لما كان الليل قد أوشك أن يرخى سدوله ، ولا يزال أمامه حوالى خمسين ميلا قبل وصوله الى المكان الذى عزم أن يقضى فيه الليل ، فقد رأى أن يجازف باتخاذ الطريق الرئيسى وهو أقصر الطرق ٠ وبعد أن قطع أربعين ميلا ، وكان خارج احدى القرى شاهد جنديين المانيين يسيران فى نفس اتجاهه٠

ولكنه زاد من سرعته متجاهلا منافستهما واستمر في طريقه الى أن ابتعد عنهما ·· وبعد ساعة وصل الى دول Dole دون أى حادث آخر فدخل الى الفندق الوحيد الموجود بها ليقضى فيه ليلته ·

وعند الساعة السادسة من مساء اليوم التالى اتجـه مشيل الى قرية لو سيرنوا Le Cernois التى تقع على بعد أميال قليلة من الحـدود السويسرية ·· كان يركب دراجته منذ الصباح الباكر وكان المطر يتساقط طوال اليوم ، فوصل مرهقا ، مبللا ·· وكان اختياره لهذه القرية نتيجة محادثة جرت مصادفة في باريس فان أحد عملائه كان قد ذكر أمامه بأنه يعرف حارس الجمارك بها وانه صديق حميم طيب ·

ومكتب الجمرك فى القرية وهو أيضا محل اقامة الحـارس كان أكبر ثلاثة أو أربعة مبانى فى هذا المكان ·· وبينما كان مشيل ينتظر فى الخارج بعد أن قرع الباب ، شاهد فى الحوش عدة دراجات مسندة الى الحائط ·

وعندما فتح الحارس الباب قال له مشيل « أنا صديق فلان وأود أن أتحدث معك » فتمعن فيه الحارس ثم طلب اليـه الدخول الى مـكتبه وهو يقول له أظنك تعرف أن عندى المان هنا ·· فقال مشيل كلا لست أعرف ولكنى شاهدت عدة دراجات فى الخارج ·· ولكن لا يهم والافضـل أن تستريح ·

وعرض مشيل موضوعه وقال أنه يحاول أن يعبر الحدود وأنه اختار قرية (لو سيرنوا) لان صديقه أخبره بأن الحارس يمكن أن يساعده ·· وناشد الحارس أن يدله على الطريق الصحيح· واذا صادفه الالمان فسيقول أنه يبحث عن الغابات ·

وهز الحارس رأسه أشارة الى أنه فهم مقصده ثم اتجه الى الحائط حيث كانت خريطة كبيرة معلقة عليه واشار اليـه بأصبعـه على الطريق الذى يقتضى على مشيل أن يسلكه ·· وبينما هما فى هذا الحديث دخل أحـد الالمان الغرفة ودون أن يلتفت الحارس اليه رفع صوته قليلا وكأنه يواصل حديثه قائلا « ولكنك تعلم أن كل الاخشاب الجيدة قد قطعت الان » ·

وعبر الضابط الالمانى الغرفة وفتح الباب الى غرفة أخرى داخلية ، ثم غاب عن نظرهما ·

فسأله مشيل « وما هو أفضل وقت للمحاولة ؟ » ونظر الحارس الى ساعته واجاب « الان ـ فان كل واحد يتناول عشاءه الان ـ وتستطيع أن تقوم بمهمتك قبل الظلام اذا أسرعت » وتستطيع أن تترك دراجتك هنا ، وتأخذها عند عودتك ٠٠ سر خمسين ياردة فى اتجاه الطريق ثم انحرف الى اليمين ٠٠ فستجد الممر الذى يوصلك رأسا الى الحدود ٠

وبعد هزة يد سريعة ، وعبارة تمنى بحسن الحظ كان مشيل يسير فى طريقه المرسوم ٠

ولكنه قبل أن يذهب بعيدا ، لم يكن قد قطع أكثر من نصف ميـل ولم يصل بعد الى الغابة٠٠ عندما فوجىء بداورية المانية اخرى٠٠ جنديان يرفعان بنادقهما على الاكتاف يمران فى نفس الطريق فى مواجهته ٠

فوقف وأخذ يتطلع فى يأس الى مخبأ يستره ٠٠ ولكنه لم يجد أمامه شيئا يصلح لذلك ٠٠ علاوة على أنهما كانا قد رأياه ٠٠ فلم يكن أمامه الا أن يواجه الموقف بوجه جرىء ٠٠ وعندما أصبح على بعد خمس ياردات منهما توقفا ٠٠ كان مشيل فى بدلته الريفية وهو يحمل حقيبته ، المبللة الملوثة ، يدرك مدى تأثير مظهره وهو فى هذا الطريق الريفى الوحيد فى مثل تلك الساعة ٠

وأخذ احد الجنود الالمـان يستجوبه بالالمانيـة ٠٠ عن الطريق الذى يقصده وعما يعمله وعن الاوراق التى يحملهـا ٠٠ واخـذ مشيل يجيب بالالمانية التى يعرفها قليلا ، فكرر القصة التى كثيرا ما كان يتلوها لنفسه، من أنه فى طريقه الى الغابات ٠٠ ولكن لماذا فى مثل هذا الوقت من الليل ؟ لان الدنيا كانت تمطر طوال النهار وقد صار الجو صحوا الان ، فرأى أن يكسب وقتا ٠٠ ولـكن الالمان لم يقتنعـوا وأصروا على أن يصحبهـم الى البوليس الحربى ٠

وعادوا الى الجمرك ولم يشاهدوا الحارس ولا الضابط ٠ كانت هناك عربة حربية فى الخارج فركبها مشيل وحارسـه ٠٠ وبدأ مشيل يشـعر بالقلق ٠٠ وأحس أنهم عندما يفحصون بطاقته فى البوليس الحربى ويرون أنه يعيش فى باريس ، فقـد يسـألونه كيف استطاع دخول « المنطقـة المحرمة ٠

وبعد قليل وقفت بهما العربة فى قرية حقيرة تدعى (موث) حيث يوجد مركز رياسة البوليس الحربى المحلية ، وأخذ مشيل الىحجرة صغيرة وقفلوا بابها عليه ليقضى فيها الليل . لم يكن بها فراش فنام على أرضهـا الخشبيه ، وكان مرهقا واهن العزيمة فسرعان ما استقر فى النوم .

وفى صباح اليوم التـالى نقلوه الى فنـدق الجراند بوست فى جهـة بونتارلييه Pontarlier لاستجوابه .. وكان مستجوبه ضـابطا ألمانيا شابا فى كسوته العسكرية تبدو عليه الشدة والصلابة وكان من الواضح أنه لا يصدق قصة مشيل .

وكانت الوثيقة الوحيدة التى يحملهـا مشيل خـلاف اوراق تحقيق شخصيته ، تقريرا احصائيا كان قد حصل عليه من احدى الوزارات فى باريس .. كان يبين الانتاج الشهرى للمصـانع الفرنسيـة من العربات الحربيه للالمان .. فأخرجه فى زهو وأبدى أنه حصل على هذه المعلومات فى حدود أعماله المتعلقة بالماكينات التى تعمـل بالغـاز .. وكان البيـان مختوم بخاتم الوزارة فكان له شيء من التأثير على الالمانى .. ولكن كان من الواضح أن مشيل لم يكن مطمئنا بعد .

لم يكن مشيل قد سئل بعد عن كيفية عبوره (منطقة التوقف) بدون تصريح .. فكان يتوقع هذا السؤال فى أى لحظة وهو سؤال فيه هلاكه ، وكان من الضرورى أن يجد مخرجا قبل أن يحصل ذلك .

استمر الاستجواب نصف ساعة دون أن يبدو أنه على وشك الانتهاء . عندما خطرت لمشيل فكرة رائعة .. فقال مقترحا لمـاذا لا يسـلمونه الى السلطات الفرنسية ؟ حيث لم يستطع أن يعبر بلغته عما يقصده ، والمحقق الفرنسى سيستطيع أن يقدر ما اذا كان يقول الحقيقة .

وتردد الضابط الالمانى فترة .. وبدا أن الاقتراح يغريه .. فهـل الطريقة المثلى .. وكان متأكدا فى نفس الوقت أن هنـاك ما يدعوه الى الريبة .. وتأمل وجه الاسير ، ورد مشيل على هذه النظرة بنظرة جريئة ووجه جامد واخيرا نهض الضـابط وهو يقول حسنـا ! سنرسـلك الى الفرنسيين .

٣

خلف الجبـــل

كان تصرف البوليس الحربى الالمانى فى تسليم مشيل الى السلطات الفرنسية متمشيا مع سياسة هتلر فىذلك الوقت، اذ كان الالمان يحاولون أن يحكموا بقفاز ناعم ، مستخدمين السلطات الفرنسية فى تنفيذ حكمهم. وكانت حكومة فيشى ، من أجل أن تظهر جديرة بهذه الثقة ، كانت تطبق القوانين الجديدة بحمية وحماسة ولكنها فى نفس الوقت كانت تمـارس فى تصرفها الحكمة والروية الى حد ما .

وتبعا لذلك فان القاضى المحقق فى بونتارلييه ، عندما أحضروا اليـه مشيل فى اليوم التالى بعد أن قضى الليل فى مركز البوليس ، لم يكن متلهفا على لصق التهمة بالاسير ، بقدر ما كان يريد أن يستوثق من أنه لن يطلق سراح مجرم خطير قد تقع مغبة جرائمه فيما بعد على رأسه .

وكان مشيل بطبيعة الحال بريئا كلية : فلم تكن لديه أى فكرة عن أن بحثه عن الفحم كان يمكن أن يأخـذه بعيـدا الى أن يصـل الى قرب الحدود .. واذا فرض أنه كان من الواجب أن يبحث الخريطة أولا .. ولكن لم يكن يخطر بباله أنه يقـدم على شىء خـاطىء .. الخ الخ .. وما من انسان كان يمكن أن يبدو أكثر أمانة من ميشيل ، وكانت قصته مقبولة بدرجه كافية لم يكن فيهـا الا عيب واحـد هو دخوله غـير المشروع الى (المنطقة الحمراء) وكان مما لا مناص منه أن يسأل فى هذه النقطة ان عاجلا أو آجلا ثم تتضح الحقيقة عندئذ .

والواقع أن هذه النقطة لم تخطر لأحد اطلاقا .. وكان من البديهى أن المحقق قد افترض أن البوليس الحربى قد أثار هذه النقطة وحصل على توضيح مرضى عنها .. وبخلاف ذلك لم تكن هناك أى تهمة أخرى يمكن أن توجه الى مشيل ، وبعد نصف ساعة فىاستجوابه سمحوا له بالانصراف حـرا .

على أنهم اشترطوا عليه فقط أن يأخـذ أول قطـار الى باريس ٠٠ وللتأكد من تنفيذه ذلك ارسلوا معه اثنين من رجال البوليس لحراستة الى المحطة ووضعه فى الاكسبريس القائم الى باريس ٠

عند هذا الحد ، وبعد هذه النجاة التى كان ميئوسا منها ، كان يمكن أن يفرر مشيل نبذ هذه المحاولة وان يعود الى باريس اثباتا لبراءته قبل أن يحاكم مرة أخرى ٠٠ ولكن الذى حدث ، أن النتيجة الوحيـدة لهـذا الحادث أن أصبح أكثر تصميما على محاولته أكثر من قبل ٠

وكان يعتقد أن رجلى البوليس لن ينتظرا الى أن يقوم القطار فعلا ، فما أن اطمأنا الى استقراره به حتى ودعاه متمنيين له رحلة طيبة وانصرفا٠

انتظر مشيل بضع دقائق ، ثم فتح الباب الذى على الجانب المضـاد للرصيف ، وقفز على الشريط وعبر الخط الحديدى وبعد أن دار حول المحطة عاد الى المدخل حيث كان قد شاهد سيارة أتوبيس منتظرة ٠

كانت السيارة ما زالت منتظرة وكانت ذاهبة الى مورتو Morteau وهى نرية صغيرة تبعد ١٥ ميلا عن بونتارلييه ، وأقرب منها الى الحدود ٠

وظل مشيل مختفيا عن الانظار : الى أن قام قطار باريس وعندئذ قفز الى الاتوبيس وجلس مختفيا وراء جريدة ٠٠ ثم قامت السيارة بسرعة ٠

وهكذا انتهت مواجهته الاولى مع العدو ٠٠ تنافس فيها دهاؤه مع الالمان وشركائهم الفرنسيون ، وتغلب عليهم ٠ كانت بداية مشجعة أعطته ثقة جديدة لتنفيذ خطته ٠

وكانت (مورتو) التى وصلها حوالى الظهر مكانا حقيرا يقع فى سفح جبال الجورا Jura ، وتغسلها مياه نهر دوبس Doubs ـ وأحب ميشيل منظرها : ولم يكن بها ألمان ولا بوليس . اشترى خريطة للمنطقة وأخذ يدرسها وهو يتناول طعامه فى احدى المقاهى ٠٠ كانت مورتو تقع على بعد أربعة أميال فقط من الحدود السويسرية بالطريق الرئيسى ، ولكن هذا كان من الواضح أنه يجب أن يتجنبه ٠

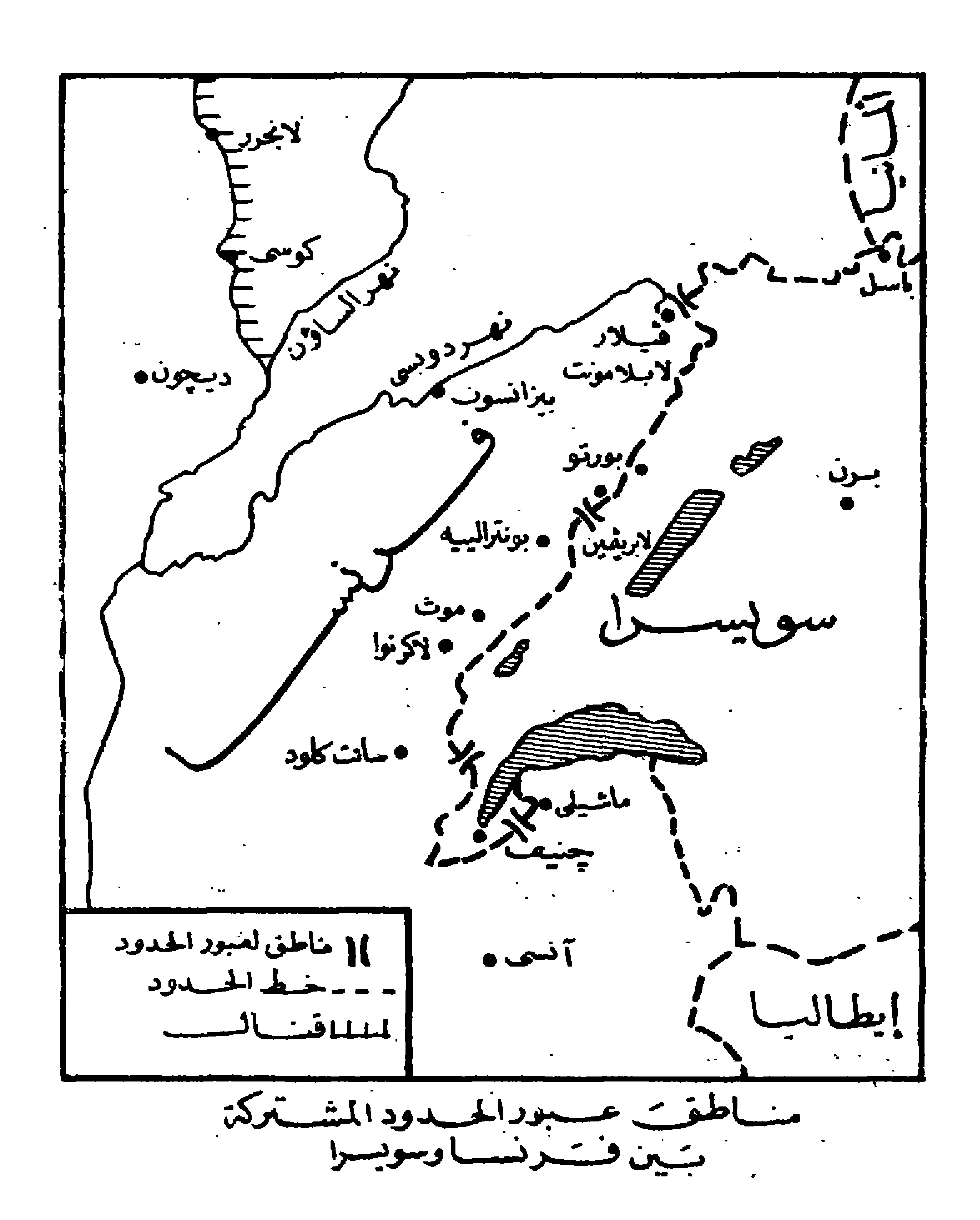
وبينما كان يدرس الخريطة بحثا عن طريق آخر استلفت نظر اسمان غريبان لا يبتعدان كثيرا عن بعضهما هما : (فوق النهاية) Au dessus de la Fin و (خلف الجبل) Derriere le Mont ·

وراق له هذان الاسمان اذ دلاه على انهما اثنتان من نقاط خارجيـــة صغـــيرة منعزلة ، بعيـــدة عن المـــدق المطروق وعـــلاوة عـــلى ذلك فان الطريق المؤدى اليها يبدو أنه ينتهى عند (خلف الجبل) ·· لذلك قرر أن يجعل هذا هدفه الاول ·· فغادر مورتو سيرا على الاقدام ، ووجد طريقا جانبيا ، أخذ يتصاعد كلما توغل فى الغابة ·· حيث لم تكن تتمثل مظاهر الحياة الا فى عشة أحد رجال الغابة التى يصادفها الانسان من حين لآخر ، أو مزرعة بدائية عند أحد مناطق نقل الاخشاب ·

ظل يسير حوالى الساعة الى أن صـــادف أول مبنى من تلك المبـــانى المتناثرة التى تتكون منها تلك القرية الضئيلة وعندما اقترب منه تبين له أنه مصنع لنشر الاخشاب ·· ودخل مشيل الى المكان وسأل عن رئيسه فادخلوه الى مكتب بدائى حيث قابل رجلا متوسط العمر قال أنه صاحب المصنع واســـمه المسيو سيزار جـــايف Cesar Gaiffe . — وذكر مشيل اسمه هو أيضا وابدى أنه يبحث عن الفحم النباتى ·

كان المسيو جايف كبير الجسم يبدو عليه مظهر الرجل الناجح ، ولكن يداه كانتا كيدى الرجل العامل ، وأبدى استعداده للمساعدة فقال حقا أنه توجد بعض أنواع ملائمة من الاخشاب يمكن أن تشترى ، ولكنها فى مكان بعيد وعال فى الجبل ويحتاج الامر الى من يرشده الى الطريق ·· وسائق العربة هو وحده الذى يتردد على هذا الاتجاه ويستطيع أن يقوم بارشاده وارسل المسيو جايف فى طلب السائق وقدمه الى مشيل ·

كان (بول كونو — Paul Cuenot) طابعـــا مثاليـــا لفلاحى الجورا ضئيلا نحيلا خفيف الشعر ، لوح الجو وجهه ، يتعذر تحديد سنه فهو بين الثلاثين والستين ·· وفى أول لقاء له مع مشيل أخذ يتفحصه بدقة ولكن دون أن يتكلم الا قليلا وتبين لمشيل أنه رجل قد يكون غريب الاطوار ولكنه لم يكن ثقيل الظل على أى حال ·· وبعد أن بحثا الامر معا اتفقا على أن يقوده كونو الى موقع يدعى مونت شاتلو من أعلى نقط هذا الاقليم حيث يمكن العثور على أشجار من أفضل الانواع على أن يقوما برحلتهما فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ·· وبات ليلته فى غرفة لدى (جاكو) وهو مقر



مناطق عبور الحدود المشتركة
بين فرنسا وسويسرا

صيفي بدائي ، مفتوح لزوار الصيف الذين يأتون من وقت لآخر . وكان هذا هو البيت الوحيد فى هذه المنطقة بخلاف منزلى المسيو جايف و بول كونو .

كان كل شيء يسير على ما يرام الى الآن .. ولم تكن لدى مشيل فكرة عن كيفية مسيره فى اليوم التالى ولكنه استطاع أن يفهم من خريطته أن مونت شاتلو كانت تقع على الحدود .. وشعر بأنه عندما يتواجد فى المكان . فان خطة ما ستتبادر الى ذهنه هناك .

وفى الساعة السابعة تماما كان كونو فى انتظاره فى الخارج كان الجوذى يقود عربة بحصان صغير .. كانت العربة من صناعة يدوية بعجلات من المطاط .. وكانت تنفع أيضا فى حمل الاخشاب ومن النوع الوحيد الذى يصلح لهذا النوع من النقل فى طريق الغابة الضيق .

كان مشيل مستعدا ، وقد تناول افطاره ، فقام فى الحال مع مرشده. كان الصباح جميلا وباردا ، ورائحة أشجار الصنوبر التى اعتادها مشيل فى باريس كان يستنشقها منتعشا .. وكان الطريق الضيق يمتد بين الاشجار .. كل ما حوله هادىء ساكن لم يكن يعكره من حين لآخر الا صوت أجنحة الطيور أو خرير مجرى مائى فى الجبل .

وبينما هما فى طريقهما الصاعد عبر الغابة ، كان مشيل يتأمل عدة خطط للعمل .. هل يحاول أن يكسب ثقة الجوذى ، أم ينتظر الى أن يصبح عند الحدود وعندئذ يتملص منه وكان على ثقة من أن (كونو) لن يخونه عامدا .. ولكن هناك على أى حال خطر اطلاعه على سره .. وبينما كان لا يزال يقلب الامر على كل وجوهه مع نفسه ، وصلا الى نقطة يفترق فيها الطريق فتوقف كونو وقال له مشيرا للطريق الأيسر هذه هى أسرع الطرق ولكنى أفضل أن تأخذ الطريق الاخر لانه أقل تعرضا لمقابلة « الالمان » وقد لا نجد حيلة نبرر فيها وجودنا .

وكان هذا كافيا ليجعل مشيل يقرر أمره . فقال له انك على حق ولا سيما واننى أفكر فى أن أعبر الحدود .

وهز كونو رأسه كانه قد أدرك قصده قائلا أنى كنت أشك فى الامر كثيرا منذ رأيتك .. وماذا عن حكاية الفحم فقال ميشيل أنها مجرد تغطية فقال كونو : « كنت أفهم ذلك والآن دعنى أوصلك الى الطريق الصحيح .

شكرا وهذا ما كنت آمله ٠

وبعد مسيرة ساعة أخرى أخذت الاشجار تقل ، ووصلا الى درب آخر كان يحدر برفق الى أسفل ٠ فسارا فيه قليلا ثم وقف كونو اذ وصـــلا الى نهاية الغابة ٠٠

وجد ميشيل نفسه يتطلع الى الوادى الصغير وهو يختفى خلف أشجار الغابة التى كانت تظلله فكان يشعر برطوبة وانتعاش وكان الارض أمامه مباشره تنحدر بدرجة شديدة ورأى فى قاع المنحدر مجرى مائى يليه منحدر آخر مزروع بالحشائش ٠٠ ومن تلك النقطة وما بعدها تتكاثر الحشائش بشكل كثيف وكذلك أشجار الصنوبر ، وتصعد فى ميل شديد الى خط الافق على بعد نصف ميل ٠٠ وأشار كونو الى القمة وقال عند هذه القمة ستجد حائطا وهذا هو خط الحدود ٠٠

وأحدق فيه ميشيل وكأنه ينظر الى الارض الوعرة ٠٠ بعد متـاعب الاربعة الايام الماضية ، أصبح يعتقد أنه صار قريبا من تحقيق هدفه ٠٠ منذ ستة شهور وهو يعيش من أجل هـذا الغرض ٠٠ وكانت الظروف تعاكسه دائما ٠ أما الآن فقد أصبح النجاح فى قبضته ٠٠

وشاهدا فى أسفل المكان الذى كانا يقفان فيه الى اليمين بناء أشـبه (بالشاليه) فى بطن الوادى ٠٠ قال عنه كونو انه بيت ريفى مهجـــور وأنه يستخدمه الآن لتخزين الخشب والقش فيه ٠٠ وكان كونو يتـأمل الوادى بحرص وانتباه وهو يلتفت يمينا ويســارا ٠٠ ثم همس قائلا : « هذه هى اللحظة الملائمة فان الالمـــان يذرعون الوادى بداورياتهم دون انقطاع وقال وهو يشير الى بيت مماثل آخر فى أسفل الوادى وفى الجانب الآخر من المجرى المائى : هذا المنزل هو احدى نقط مراقبتهم ، كما أنهم يستعملون بيتى أيضا لهذا الغرض ٠٠ ولكن الجو خالى الآن تماما ، ولديك الوقت للمرور ٠٠ متى تتوقع أن تعود ؟

فقال ميشيل غدا اذا ساعدنى الحظ وفى مثل هذا الوقت ٠٠ فقـال كونو حسنا اذا كانت الحالة مأمونة فسأترك لك باب المخزن مفتـوحا ، وتستطيع أن تراه بسهولة من الناحية الاخرى ، أما اذا وجدته مغلقا فلا تحاول فتحه ٠

ـ اتفقنا وشكرا على كل خدماتك ٠٠

ـ لا تندفع ولا تتعجل بل سر في تؤدة كأنك تعرف طريقك جيدا ، وحظا سعيدا ..

وعندما سار ميشيل في طريقه ، شعر لاول مرة منذ خروجه فيرحلته هذه باحساس من الخوف ، احساس من ترك ستار الغابة الواقي الى العراء الفسيح الذى يكون فيه منظورا لاى انسان يسير في الوادى .

والالمان ـ كما قال له كونو ـ لا يترددون في اطلاق الرصاص وهم دائما يأخذون معهم كلابهم البوليسية ، فليست أمامه أى سبيل للهروب كما أنه ليس من المعقول ، اذا قبض عليه في حالته هذه أن يبدى أىعذر مقبول ..

وأخذ ينحدر الى المجرى دون أن يتلفت يمينا أو يسارا ، لم يكن هناك أى دليل على الحياة ، فيما عدا بعض أبقار كانت ترعى فى الحقل .. ووصل الى المجرى دون عجلة ، بل كان يحاول أن يبدى عدم الاهتمام بما حوله ، وعبر المجرى وأخذ يصعد الجانب الآخر ، وبعد حوالى مائة ياردة وصل الى ستار من الغابة ولكن مازال عليه أن يتسلق مرتفعا شديدا ، وهو يتلمس طريقه بين الاغصان المطروحة على الارض والصخور الكبيرة الى أن رأى خط الحدود حائط غير مرتفع عبارة عن طبقة من الاحجار موضوعة فوق طبقة أخرى بطريقة غير متينة .. فما أن تخطاه حتى وجد نفسه واقفا على الارض السويسرية الحرة .. وعندما وقف لكى يسترد أنفاسه كان قلبه يضرب بشدة ..

كانت لحظة تأمل واعمال الفكر ولكنها لم تطل فقد أسرع الخطى دون أن يلقى نظرة حوله ، لم يلتفت الى الوراء فى اتجاه فرنسا المحبوبة الا بعد أن أصبح آمنا بأنه قد صار بعيدا عن الانظار ..

وكان الوقت يوم ٢١ من مايو سنة ١٩٤١ .

وتبعا للمبدأ أن أى الطرق تؤدى الى مكان ما فقد سلك طريقا أدى به أخيرا الى الطريق العام .. وشاهد منزلا قرأ على بابه اسم لا بريفين La Previne ـ كان يبدو من منظره أنه مبنى الجمرك ، واكد له ذلك أنه عندما اقترب من وجود حارس الجمارك ، وتقدم منه ميشيل

واطلعه على بطاقته الشخصية •• وقال له أن عنده عمل غاجل فى سويسرا ولم يكن لديه وقت لاستخراج جواز سفر •• وفحص الحارس بطاقته وسأله ما نوع الاعمال ؟ فقال أمور عائلية •

والواقع أن ميشيل كانت له أخت تعيش فى سويسرا كانت متزوجة من ابن أخ الجنرال جيسان Guisan قائد عام الجيش السويسرى ولكنه فضل أن لا يزج باسمها فى مشكلته •

ـ وكم من الوقت ستبقى هنا ؟

ـ ٢٤ ساعة •

وهل ستعود من نفس الطريق •

ـ وهز ميشيل رأسه بالايجاب •

ـ لا بأس تستطيع أن تواصل طريقك ولكنى سأحتفظ ببطاقتك ، وستأخذها عند عودتك •

ـ ولكن اذا فرض أن أوقفنى أحد وسألنى عنها ؟

ـ قل له أنها عندى وهو يخلى سبيلك •

ـ أشكرك كثيرا سأكون عندك غدا •

ـ وقال حارس الجمارك وهو يعود الى بيته « سأنتظرك غدا » وسار ميشيل فى طريقه يواصل رحلته •

سار ثلاث ساعات الى بلدة لى لوكل Le Locle التى كان يأمل أن يجد فيها قطارا يأخذه الى بيرن •• وكانت الشمس ساطعة وهو يستمع بسيره ، ويمرح باحساس بالحرية •

وفى القرى التى مر بها كان الناس يرتدون ملابسهم المفضلة التى يرتدونها يوم الاحد •• كلن منظرهم وهم يذهبون بسلام الى أشغالهم دون

ظل من الخوف أو الحاجة ، الذى يخيم على رءوس مواطنيه ، كان يملاء ميشيل بالسعادة وتمنى أن يعود هو أيضا ويستمع به يوما ما مرة أخرى، وتفكيره فى أن مهمته التى يقوم بها قد تقرب ذلك اليوم ، بعث فيه قوة جديدة واحساسا جديدا من نحو مهمته ٠

وعندما وصل الى كول دى روش ، وهى القرية الاخيرة مثل لى لو كل شاهد الناس يخرجون من الكنيسة ، كان يبدو عليهم هدوء النفس والاطمئنان على طريقتهم السويسرية القويمة كانوا يزدهون فى ملابسهم الانيقة وهم يتبادلون التحيات الى حد أنه شعر بأنه منخدب اليهم ٠٠ تحول عن الطريق ودخل الى المقبرة ، حيث كانت كثير من العائلات تزور مقابرها ٠

وبينما كان ميشيل مختلطا بهذا الجمهور اقترب منه أحد رجال البوليس السويسرى وطلب أن يرى أوراقه ٠٠ فشرح له ميشيل موقفه٠٠ كان السويسرى مهذبا ولكنه لم يقتنع باقواله ٠٠ فاقترح عليه ميشيل أن يذهبا معا الى مركز البوليس ليتصل تليفونيا بمكتب الجمرك ٠٠ وفعلا تم ذلك ٠٠ وتأيدت قصة ميشيل ٠٠ وتلطف السويسرى فدعاه لتناول الطعام معه ثم كلف أحد زملائه بمرافقته بالدراجة الى (لى لوكل) ٠

وكان هذا الزميل وهو أنباشى شديد التحمس لمهمة ميشيل وكان واثقا أن رئيسه الضابط ، الذى كان دائما يبدى تلهفه لمقابلة الزوار القادمين من فرنسا ، يسر جدا بان يقابله فورا ٠٠ فسأل ميشيل عما اذا كان يمنحه هذا المعروف وان يمر معه على المكتب ويسمح له بأن يقدمه الى ضابطه ؟

وكان فى هذا مضايقة له ، لانه كان قد أضاع فعلا وقتا ثمينا ولكنه رأى مع ذلك أن يتمشى مع رغبة السويسرى فوافق مترددا ٠

ولم يكن الانباشى مبالغا فى تعبيره عن اهتمام الضابط بميشيل ٠ وكان من واجب الضابط باعتباره ضابط المخابرات المحلى أن يجمع المعلومات ٠ عبر منطقة الحدود ٠٠ وميشيل القادم من باريس كان من هذه الناحية لقطة ثمينة ٠٠ فوضع الضابط أمامه فرخا كبير من الورق ، وفى يده قلمه الحبر واخذ يتوقع أن يدون المعلومات الثمينة التى ستتساقط من فم زائره ٠

وشعر ميشيل بالقلق والاضطراب الى حد ما ٠٠ أنه قد جاء ليؤدى خدماته الى البريطانيين لا ليقدم معلوماته الى السويسريين على أى حال لم يكن فى مقدوره أن يعطى اجابات تفصيلية عن الاوضاع العسكرية الالمانية. لم يكن قد قام ابدا بعمل من اعمال الجاسوسية ولم تكن لديه فكرة عن نوع الاشياء التى ينتظر من الجواسيس أن يكتشفوها كل ما استطاع أن يقوله هو أن يصف رحلته وان يذكر ما عرفه عن الالمان الذين صادفهم فى طريقه ٠

ولحسن الحظ أن هذه المعلومات بدت فى منتهى الاهمية بالنسبة للضابط ، الذى ارتسمت عليه كل مظاهر الارتياح والسعادة وهو يستمع الى قصة ميشيل ٠ لقد كان الضابط بالطبع يعلم الكثير عما يجرى فى منطقة الحدود ولكن هذه الحقيقة ، مثلا ، أن السرية الثانية من الالاى الثالث من قوة البوليس الحربى كانت معسكرة فى مورتو التى أيدها له ميشيل ، سببت له على ما يبدو ارتياحا كبيرا ٠

فقام من كرسيه واتجه الى الخريطة الكبيرة التى كانت تغطى كل الحائط واختار بعناية أحد الاعلام الصغيرة التى لا عدد بها والمرشوقة على الخريطة ، ونقله الى موضعه الجديد ٠٠ وأولئك الذين خدموا فى ادارات المخابرات يدركون مقدار السرور والارتياح الذى أحس به الضابط ومدى التقدير الذى شعر به نحو ميشيل ٠

وكانت الخطوة التالية أن أبرز ميشيل الوثيقة الوحيدة التى كان يحملها ٠٠ وهى تقرير عن الانتاج الفرنسى من العربات الحربية والتى سبق أن استغلها للتدليل على حسن نيته نحو الالمان ٠٠ وهذه الوثيقة أيضا كان لها تقدير عظيم لدى الضابط السويسرى ٠

وانتهت المقابلة أخيرا ٠٠ واضاع ميشيل ساعتين ٠٠ ولكنه كسب صديقا ، وهو شخص يمكن أن يكون مفيدا له فى المستقبل وبلغ من سرور الضابط وارتياحه من عمل يومه أنه خرج بنفسه لحراسة ميشيل وتوصيله الى المحطة ، ولما كان اليوم يوم أحد ومن المتعذر عليه استبدال نقود فرنسية ، الح الضابط فى أن يشترى له تذكرة الى بيرن ٠

لم يكن بعد ظهر يوم الاحد بالوقت الملائم للتوجه فيه الى السفارة البريطانية ، وبالاخص بالنسبة لاجنبى بحت ٠٠ ولا مظهر ميشيل كان

يساعده على ذلك ‥ لقد قضى فى سفر متواصل أربعة أيام بلياليها أغلبها بالقدم أو بالدراجة ، وقضى ليلتين من لياليه فى الحبس ‥ ومنذ اللحظة التى ترك فيها مكان استراحته فى وقت مبكر من هذا الصباح قد قطع حوالى عشرين ميلا سيرا على قدميه ‥ فكان معفرا مشعث الشعر وقد فقد نعل أحد حذائيه ، وبالاختصار كان يبدو ويحس بانه أشبـه . بجواب الآفاق .

كان هذا من غير شك هو الانطباع الذى أوحى به مظهره لبـوّاب السفارة عندما طلب منه مقابلة السفير ‥ فقد تطلع اليه البواب بارتياب ثم طلب منه فى برود الى مكتب ملحق بالسفارة حيث قابله أحد الموظفين فى غرفة الانتظار .

وسوف لا ينسى مشيل أبدا غرفة الانتظار هذه لا بسبب ما كان بها من أثاث ، أو تلك الاعـداد القديمة البـالية من مجلة (بكتشر بوست) ولكن بسبب تلك الصورة الوحيدة التى كانت تزين جدرانها ‥ لم تكن فى الحقيقة صورة بمعنى الكلمة بل اطار فيه لوحة من الورق كتب عليها الاسطر التالية : ـ

فى الحرب : التصميم

فى الهزيمة : التحدى

فى النصر : العظمة

فى السلم : حسن النية

كانت معرفة مشيل باللغة الانجليزية ضئيلة ‥ ولكن خلال الساعتين اللتين قضاهما فى غرفة الانتظار قبل أن يجىء اليه أى أحد ، كانت لديه الفرصة أولا ترجمة الكلمات ، بالاستعانة بقاموس كان موجودا بالغرفة ، ثم ينقلها ثم يحفظها عن ظهر قلب تلك الجمل ذات الطابع التشرشلى ‥ ولم ينسها منذ ذلك الحين الى اليوم ، وهى الجمل الانجليزية الوحيدة التى يستطيع أن يتلوها دون تلقين ‥ وطوال السنوات الاربع التالية كانت بمثابه الآم دائم له ‥ ولا سيما سطرها الثانى .

وأخيرا فتح البـاب وظهر شاب انجليزى طويل القـامة يرتدى بدلة رمادية ‥ وتطلع الى ميشيل بسرعـة ومن غـير أن يجلس أو يطلب من

الزائر الجلوس سأله ببرود عن حاجته ٠٠ لم يقدم نفسه ٠٠ ولكن ميشيل علم فيما بعد أنه الماجور ب مساعد الملحق العسكرى ٠

وفى مظهر غريب وبرود ظاهر كان يستمع الى قصة ميشيل وعرضه تأدية خدماته للحلفاء وكان رده على هذا العرض بالنفى البات ٠٠ وابدى أسفه لاستحالة الاستفادة من هذا العرض ٠٠ وكان على ميشيل أن يعلم أنه منذ سقوط فرنسا انقطعت جميع الاتصالات المباشرة مع المملكة المتحدة ٠٠ وعلى أى الاحوال فان سويسرا بلاد محايدة وليس من اللائق اطلاقا للسفارة البريطانية أن تنغمس فى أعمال جاسوسية ضد دولة تقوم بينها وبين سويسرا علاقات ودية ٠

ان عدم استقبال ميشيل بالاذرع المفتوحة كان الى حد ما أمرا مفهوما٠ فان مظهر ميشيل كما سبق أن رأينا كان رغم ارادته ، كما أنه لم يكن يحمل معه أوراق اعتماد فلم تكن هناك وسيلة لاثبات حسن نيته ٠٠ ومن المحتمل أن يكون عميلا بوجهين يستخدمه الالمان أو عميلا لجس النبض مرسلا من جانب السويسريين ٠٠ فالعملاء السريون لا يجندون بمثل هذه الطريقة والماجور ب كان على حق عندما تصرف بمثل هذا الحذر ٠

واحتدم ميشيل غيظا وكتم غضبه بصعوبة وكتب على ورقة العبارة التالية وسلمها للماجور ، ٠

« هنا أسماء وعناوين اثنين من الانجليز : نسيبى المستر روبرت بيست من أصحاب الاعمال الهامة فى برمنجهام ٠٠ والمستر ستورج مور الشاعر والناقد ولا شك أنه معروف لكم بالاسم ٠٠ يمكنكم اذا تفضلتم الاستفسار منهما عنى » ٠

ونظر (ب) الى الورقة فى غير اهتمام ثم وضعها على المائدة كما لو كان يخشى أن مجرد حيازته لمثل هذه الورقة قد يعرضه للمسئولية ٠

واستطرد ميشيل « سأعود بعد شهر ٠٠ وفى نفس الوقت لا أحب أن أضيع رحلتى عبثا فسأترك لك هذه الوثيقة ويمكنك أن تعتمد على صحة المعلومات التى وردت بها ٠٠ وعندئذ أخرج للمرة الثالثة والاخيرة وثيقته عن المصانع الفرنسية ٠٠ لقد اظهرت فائدتها مرتين ، ومن يدرى فربما تكون لها أهميتها للبريطانيين أيضا على أنه قد حفظ محتوياتها عن ظهر قلب ، وسئم الاحتفاظ بها معه ٠

والواقع أن المعلومات كانت مفيدة فعلا للحكومة البريطانية اذ بعد أن عرضها الماجور ب على لندن ، استخدمتها الاخيرة فى الاذاعة البريطانية كجزء من الدعاية المضادة لحكومة فيشى .

وسمع هذه الاذاعة فى الوزارة الفرنسية من أعطى هذه المعلومات لميشيل فاستاء كثيرا لان هذا الامر وضعه فى مركز خطير كما أنه قد يعرض ميشيل نفسه للخطر .. وكانت اذاعتها فى الواقع غلطة حمقاء من جانب البريطانيين .

ولما لم ير ميشيل فائدة من اطالة وقت الزيارة حيا الماجور (ب) وانصرف .. منفعلا .. وعندما وصل الى المحطة كان قد هدأ طبعه وقال يحدث نفسه .. يا الهى ما طبيعة هؤلاء الانجليز !

ونظر ميشيل عبر الوادى من مكمنه بين الاشجار ، فشاهد باب العنبر مفتوحا .. وهكذا حافظ (كونو) على وعده .. وتطلع ميشيل الى المشهد بعنايه ، نفس الابقار كانت تمضغ نفس الكومة من الحشيش .. وفيما عدا ذلك كان المنظر مقفرا على أنه بالطبع لا يدل على عدم وجود من يرحبون . ومع ذلك فأمامه علاقة (كونو) التى تشير الى حالة الامان .. الانتظار لا يفيد فى هذه الحالة ، ما عليه الا أن يقدم .

وفى هذه المرة ، بدلا من أن يسير فى خط مستقيم عبر الوادى ، أراد أن يعرج فى طريقه فى خطوط مائلة .. ولو أنها تستغرق وقتا أطول فأنها تجنبه الاقتراب كثيرا من مكان كونو .. وهكذا حتى لو تصادف أن الالمان كانوا يراقبونه فانه على الاقل لا يتسبب فى القاء الشبهة على شريكه وكانت بضع دقائق تكفى لكى يخرج من مخبئه ، وينزل المنحدر المزروع بالحشائش ويعبر المجرى ثم يتجه الى الغابة الفرنسية التى تستره بظلها واشجارها .. ثم عبر الحدود دون حادث .. وعندئذ توقف قليلا لا لكى يستريح وانما لكى يقدم صلاة شكر صامتة .

على أنه لم يكن قد نجا من الخطر نهائيا ، فان وجوده على هذا الشكل قريبا جدا من الحدود أمر يثير الاشتباه لو أنه تقابل مع داورية المانية .. انحرف الى اليسار وسرعان ما وجد المدق الذى كان قد تسلقه هو وكونو فى اليوم السابق فانحدر فيه الى أن أوصله الى (خلف الجبل) .

ودهب الى منزل كونو حيث وجد الحوذى أيضا وعائلته فى انتظاره ليرحبا به بأكلة طيبة ٠

وبالرغم من أن شر ما فى الامر قد انتهى ، الا أنه لم يكن فى مأمن بعد طالما أنه لا يزال موجودا فى المنطقة المحظورة ٠٠ ولذلك فانه بمجرد أن تناول طعامه ودع مضيفيه واستأنف رحلته على قدميه ٠

كانت محطته التالية هى (لى سيرنوا) على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا ٠٠ وكان يأمل أن يصلها فى نفس اليوم ٠٠ ولكنه قبل أن يقطع نصف المسافة شعر بالارهاق والتعب فقرر أن يقضى الليل فىبونتارلييه٠

ونام متأخرا ، فلم يصبح على مشارف (لى سيرنوا) الا فى ظهر اليوم التالى .. وهذه هى القرية ، على ما نذكر ، التى كان قد ترك فيها دراجته قبيل مقابلته مع الداورية الالمانية ٠٠ وبالرغم من مجازفته بمقابلة الالمان مرة أخرى ، اذ أنهم يحتلون مبنى الجمرك حيث توجد دراجته ، الا أنه كان مصمما أن لا يعود الى باريس بدونها ٠ فعلاوة على أن الدراجة كانت ثمينة للغاية فقد كان فى حاجة اليها ليقطع بها المنطقة الحمراء ٠

ولكن فى هذه المرة كان ميشيل فى حالة ذرية ، ففى خلال الثلاثين ساعة الاخيرة كان قد سار على قدميه أكثر من ستين ميلا ، وبالرغم من ليلة قضاها فى فندق بونتارلييه ، حيث استحم واستراح الا أن قدميه المقرحتين كانتا تؤلمانه جدا ٠

كانت ساعة تناول وجبة الظهر والطريق مقفر ٠٠ على أنه عندما اقترب من مبنى الجمرك شاهد جنديا المانيا وكان ميشيل مستعدا لمثل هذه المصادفة ، ولكنه لم يكن مستعدا لما حدث فعلا بعد ذلك ٠٠ وهو أن كلا منهما تذكر فى وقت واحد أنهما سبق أن تقابلا معا فى مكان ما قبل ذلك ٠٠ فقد كان الجندى هو نفسه الذى قد قبض عليه منذ أيام قلائل ٠

وتوقف ميشيل وقال بكياسة « صباح الخير ٠٠ ها أنت ترى أن الفرنسيين قد أطلقوا سراحى ٠٠ وقد عدت لاطلب من قائدكم الاذن بأخذ دراجتى » ٠

وتطلع الالمانى اليه بشىء من الارتياب ، وبدون ابداء أى مظهر ودى ، هز راسه فى اتجاه معنى الجمرك وهو يقول بلهجة جدية « ستجده هناك »

ثم تركه وانصرف ·· ولم يكن الوقت متأخرا على ميشيل فواصل طريقه وهو يشعر بالثقة فى أنه سيخدعه ·· على أنه عندما وصل الى المبنى لم يجد به أحدا ·· ولم يجد أثر لدراجته في الحوش الذى تركها به ولكنه بعد أن فتح بضعة مخازن وجدها مركونة فى احدها ·

ولم يجد من اللائق أن يأخذ دراجته كما لو كان يسرقها فعاد الى المبنى الحاوى وأخذ قطعة من الورق وكتب كلمة للضابط الالمانى معبرا عن شكره على احتفاظهم بدراجته وعلى ترك مخزنها مفتوحا ·· ثم ركبها وانصرف ·

لم يكن هناك طريق للخروج من هذه القرية الصغيرة الا عن الطريق الذى جاء بها اليها ولذلك كان من المرجح كثيرا أن يقابل صديقه القديم مرة أخرى ·· والواقع أنه عندما اقترب من الزاوية وجد الجندى الالمانى مقبلا نحوه وهز ميشيل يده بابتهاج وهز الجندى رأسه ·

أما باقي رحلته فلم تكن بها أحداث أخرى ·· بعد أن ترك لى سيرنوا اتبع نفس الطريق السابق عكسيا ·· ونام مرة أخرى فى (دول) وشرب زجاجه ببيذ أخرى مع صديقه حارس البوابة ثم توجه الى مقر الشركة فى ديجون لكى يقدم تقريره عن موارد الفحم فى منطقة جورا ·· وبعد سبعين ساعة من عبوره الحدود عائدا كان فى شقته فى باريس مرة أخرى ·

لم يكن قد حقق هدفه ، فانه لم يقبل بعد كحليف للبريطانيين ·· ولكنه أدى مهمة قد تكون أكثر أهمية ، فقد أثبت ، بما يقنعه ، أن خطته التى قضى وقتا طويلا فى اعدادها هى فى الواقع ممكنة التنفيذ عمليا ·· فقد اكتشف وسائل لمغادرة أراضى فرنسا ثم العودة اليها مع توفر الفرصة المعقوله لتجنب اكتشاف أمره ، واستطاع أن يقوم باتصالات مبدئية مع أصدقاء فرنسا فى الخارج ·

وهذا ، بالرغم من استقباله بواسطة الماجور ب وما صادفه من مضايقة بسبب التصرف الانجليزى ، قد ملأه حماسا وتصميما قاطعا على التمسك بتنفيذ خطته ·

٤

المحاولة الثانية

كان ميشيل قد وعد بالعودة الى بيرن فى خلال شهر ·· وفى صباح يوم ١٦ من يونية ركب القطار مرة أخرى الى ديجون ··

قام برحلته السابقة بقلب منشرح ·· أما هذه المرة فقد كان يشعر بنفاذ الصبر والتخوف ، فقد أصبح يعرف الآن بمخاطر المخازفة ، والتى ليس أقلها شأنا رفض آخر من جانب البريطانيين لانه فى هذه الحالة يذهب كل ما يتعرض له من متاعب وأخطار أدراج الرياح ··

وظل ثلاثة أسابيع يحتفظ بسره فى قرارة نفسه ·· كانت رحلته تقتضى غيابه حوالى أسبوع ومثل هذه الفترة الطويلة من الغياب تتطلب أن يفسر سرها لزوجته وسكرتيرته ·· وتمكن فى النهاية من اقناعهما بقصة صعوبة ايجاد الفحم وسوء المواصلات الخ ··

واستأنف حياته العادية مقسما وقته بين مسكنه فى شارع أرين ومكتبه فى شارع بارمنييه وكان يبدى الاهتمام الكلى بكل من عائلته واشغاله ·· ولكن « الخطة » هى التى كانت تشغل تفكيره أكثر من أى شىء ··

وكان ذهابه بين مسكنه ومكتبه يقتضيه أن يعبر السين أربع مرات يوميا ·· وفى كل مرة كان يصل فيها الى الكوبرى كان نظره يقع على صورة دقيقة لونش جبار يرتفع فوق أسطح المدينة ·· وعلى مسافة بعيدة عند الافق فى الاتجاه الجنوبى الشرقى كان هذا المنظر علامة واضحة جلية ترى على مسافة أميال ··

وقد أصبح هذا المنظر رمزا لهدفه ، مغريا ومنذرا فى آن واحد ·· وكان يراه أكثر ازعاجا له يوما بعد يوم ·· الاتجاه الجنوبى الشرقى وهو

الاتجاه الى برن ، وكان بالنسبة لميشيل كأن يدا تشير اليه وصوتا يقول « هذه هى الطريق التى عليك أن تأخذها » ..

وكما لو كان حكما قدريا لا منـاص من التخلص منه ، يتسم فى آن واحدى بالتحدى والاغراء ، أصبح تأثير تلك الآلة الرافعة الجبـارة على ميشيل كما لو كان قوة مغنطيسية ، فلم يكن يراها الا وينتابه نوع من التشدد الداخلى فى عماق نفسه ..

لذلك شعر بالارتياح وهو يجلس في القطـار الذاهب الى ديجون أو أيقن أنه لا مكان للنكوص الآن .. ومما زاد ارتياحه أيضا أنه قد نجح فى ادخار جزء من أرباح أعماله الناجحة لكى ينفق منها على رحلتـه دون أن يحرم عائلته شيئا ، ومع ذلك كان لا يزال محتفظـا بمبدئه وهو رفض طلبيات الالمان الذين كان من الممكن أن يكونوا من أفضل عملائه ..

وكان قد أخطر صاحب مصانع (الجازوجين) بأن ينوى القيام برحلة أخرى بحثا عن الفحم النباتى ، ولذلك فأن وصوله الى مقر الشركة لم يثر أى دهشة .. وقضى فترة بعد الظهر يبحث معهم مختلف الشـئون .. وكان هذا موافقا لميشيل لانه لم يكن يريد مغادرة ديجون فى وقت مبكر ..

وعندما تم له كل شيء ، ركب دراجته في طريق جنجرز المعروف له وبعد حوالى ثلاث ساعات وصل الى مشارف كورين وكان الوقت لا يزال نهارا فانحرف الى طريق جانبى ، وجـد به خان صغير تناول فيه طعامه وانتظر حلول الظلام .. وعند ذلك غادر الخانة واتخذ طريقه عبر الحقول مقتربا من القنال .. وكان قد لاحظ قبلا أن جميع كباريها كانت محروسة ولو تقدم على امتداد الطريق لشاهد الحارس ..

ووصل الى الهويس ، وكان يبدو أشد من كل وقت تحذيرا ، بسياجه المحيط من القضبان المدببة والتهديد بانفجار اللغم .. ولـكن أسراره لم تعد خافية على ميشيل .. فسار قدما الى الناحية اليمنى ودفع بيده الجزء الذى يدور على مفصلات فانفتح الممر ، واجتازه ومعه دراجته .. وبعـد ذلك أعاد الحاجز الى مكانه بكل عناية ..

كان النور لا يزال مضيئا بغرفة حارس الهويس .. وقرع البـاب بحرص ، وفى الحال عرفه المسيو (فرينيون) الطيب الذى رحب به وهو يقول : « هذا أنت .. كنت أعجب من الذى يقرع بابى فى هذه اللحظة ! »

ـ قلت لك انى سأعود ··

ـ أذكر ذلك · الأفضل أن تدخل ··

وفى الغرفة المتواضعة قدم المضيف الزجاجة والاقداح · وتبادلا أنخاب الصحة كما فعل من قبل ··

وسأله فرينيون ·· ألم تصادف أى صعوبة ··

ـ أبدا ·· لقد جئت عن طريق الحقول ··

ـ حسنا ، انهم يغيرون حراس الدركات عند الغروب ولاشك أنك قابلت رجال الغيار فى الطريق ··

ـ ولهذا تعمدت أن أتفاداهم ··

ـ انك تقدم على مغامرة خطيرة ·· فقد شددوا الحراسة منذ حضرت فى المرة السابقة ·

ـ أعلم أن أعمالى تتطلب المخاطرة ··

ونظر اليه الحارس نظرة فاحصة وهو يقول : « لا أدرى ما هى أعمالك ولكن لدينا فكرة أنا وزوجتى بأنك لا تعمل لحسابك ··

ـ كلا ·· انى أعمل من أجل فرنسا ··

وقال فرينيون : « كنت أشتبه فى ذلك ـ وأتمنى لك النجاح » ·· مع السلامة

كانت نية ميشيل أن يواصل رحلته دون توقف ·· ولكن الحارس نهاه بشدة عن ذلك ·· وقد ألح عليه هو وزوجته ورضخ ميشيل فىالنهاية ووافق على قضاء الليل معهم ·· وأعد له فراش وسرعان ما راح فى النوم ·

استيقظ فى الفجر وارتدى ملابسه بسرعة وانصرف دون أن يزعج مضيفيه ·· ولكن مدام فرينيون كانت فى مطبخها تعد القهوة وأصرت بأن يتناول افطاره أولا ··

ولم توجه اليه أسئلة أخرى ·· فعـائلة فرينيون قد عرفت كل شيء عن ميشيل وأن أسبابا قوية تجعله يتجنب مقابلة الجنود الالمان · وكانت هذه الاسباب فى نظر الناس البسطاء تبريرا كافيا يجعلهم أن يعرضـوا أنفسهم للعقوبة بتقديمهم الملجأ اليه ··

كان الجو ممطرا عندما غادر ميشيل كوزى ·· وكانت فكرة قطع مائة ميل لغاية الحدود غير مشجعة ·· ولكن لحسن حظه بعد أن سار بدراجتـه مدة ساعتين شاهد أوتوبيسا فى طريقه الى بيزانسون ·· وتمكن من أن يضع دراجته على سقفه وأن يجد مكانا له فى داخله فقطع الاربعين ميـلا التالية فى راحة نسبية ··

كان الاوتوبيس مكتظا من أهل الريف ، معظمهم يحمل سلالا فيهـا مؤونة وكانت تدور بينهم الاحاديث الودية العادية أثناء سيره البطىء ، مع الوقفات المتوالية لانزال أو التقـاط بعض الركاب ·· كان الحديث يدور حول الامور المحلية ·· المحاصيل والاسواق والاسعار والعائلات ·· لم يذكر أى فرد منهم شيئا عن الحرب أو الاحتـلال الالمانى ·· وبمقارنتهم بأهل باريس وجدهم ميشيل أكثر تغذية وأكثر قناعة ·· فلم يكونوا قد شعروا بعد بوطأة الحذاء الالمانى ·· كانوا منصرفين الى الاهتمام بشئونهم لبس الا ··

وعند بيزانسون ، وكان المطر لا يزال مســـتمرا ، ركب دراجتـه واستأنف طريقه ·· فتبع وادى نهر دوبس واخترق أراضى ريفية خضراء ومشجرة ·· الى أن وصل الى أفودرى وهنا ترك الطريق الرئيسى متجها الى الجنوب ومارا بجهتى (كول دى تونيه) و (لاجراند كومب) الى أن وصل الى جهة (خلف الجبل) ··

كانت القرية الصغيرة مقفرة أكثر من أى وقت مضى ·· ونظر ميشيل الى ساعته وهو يقرع باب (كونو) ·· كانت الساعة الســادسة أى أنه واصل سفريته طوال اثنتى عشر ساعة دون توقف فكان فى شدة الجوع والعطش ··

وقد سبق أن أخطر الحوذي بأنه سيعود مرة أخرىدون أنيحدد ميعادا لذلك فكان وصوله مفاجأة تامة ، ومع ذلك فقد قوبل بالترحيب كصديق قديم ، ودعى فى الحال لمشاركة العائلة فى تناول العشـــاء ، وكانوا قد بدأوا فيه لتوهم ··

ولعائلة كونو تسعة أبناء تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين ·· وعندما دخل ميشيل كانوا جميعا جالسين الى مائدة طويلة وكانت أمامهم آنية الشوربة يتصاعد دخانها والارغفة الضخمة من الخبز الاســود ·· فكان المنظر بعد رحلته الشاقة الطويلة ، مبهجا ولم يتوان فى الجلوس الى المكان الذى أعد له ·· وأحس بأنه لم يذق أبدا طعاما أشهى من هــــذا الطعام على بساطته ·

كانت هذه الحجرة الطويلة التى تستخدم كمطبخ وغرفة معيشة تكاد تكون خالية من الاثاث ·· وبخلاف صورة للسيدة العذراء لم تكن هناك الا صورة لرب الاسرة فى ملابس جندى فى الحرب العالمية الاولى ··

ولكن ما كان ينقص العائلة من وسائل الراحة كانوا يستعيضون عنه بشعور المودة الذى يربط أفراد الاسرة جميعا ومثل عائلة فرينيون كذلك كانت عائلة كونو لا تعرف شيئا عن ميشيل الا أنه كان يتحدى التعليمات الالمانية ، وكان هدا كافيا فى نظرهم لاعتباره حليفا ينبغى أن يقدموا له كل معونة ··

وبطبعه المعتاد من عدم الصبر على أى تأخير فانه بالرغم من أنه قطع مائة ميل تقريبا منذ الصباح ، كان متعجلا على الانطلاق لكى يتمكن من عبور الحدود تلك الليلة ·· ولكن كونو لم يشجعه على ذلك لمـــا ينطوى عليــه من خطورة · ففى الظـــلام يحتمل حــدوث كل شىء ، وأعدوا له فراشا لكى يبيت الليل عندهم ، وقد قبل ذلك مسرورا لما كان يشعر به من تعب وارهاق ··

وقام فى الفجر ووجد طعام الافطار معدا له ، وبعد أن ازدرده بسرعة شكر مضيفيه بحرارة ، ووعدهم بالعودة سريعا ، ثم سافر على قدميه فى الحال على طريق الجبال ·· وبعد مسيرة ساعة وصل الى أعلى قمة فى الغابة وكان الى يمينه بقليل تلك المزرعة المهجورة ، وكان يمتد من تحته الوادى الذى كان عليه أن يخترقه قبل أن يصل الى الحدود ·· وكان يبدو مقفرا للغاية ، كما شاهده فى المرتين السابقتين ·· ولكن هذه المرة ، كما حذره من ذلك كونو ، قد تكون خداعة ، اذ كان للالمان عى طول الطريق لغـــاية الحدود نقط مراقبة يستطيعون أن يشاهدوا منها كل شىء دون أن يراهم أحد ·· فمــا على المرء الا أن يصلى ويأمل فى أن تســتجيب الســـماء صلاته ··

وشرع ميشيل فى هبوط المنحدر ·· فكان يسـير حذرا وفى بطء متظاهرا بأنه يبحث عن نبات الفطر (المشروم) ·· وهكذا وصل وعبر المجرى ، وأخذ يتسلق المنحدر الآخر · وبعد عشرة دقائق كان قد تسلق الجدار ويقف على الارض السويسرية وكانت الساعة السـابعة والنصف صباحا ··

فى هذه المرة لم يتوقف لكى يتطلع الى الخلف بل أسرع فى السير عبر الغابة الى أن وصل الى الطريق ثم وصل بسرعة الى مبنى الجمرك فى بريفين

وهنا تقابل مع أول عقبة ، فقد تذكره حارس الجمرك جيدا ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن جو الصداقة ·· فأمره بأن يعود أدراجه فورا من نفس الطريق التى جاء منها ··

وارتاب ميشيل فيما حدث ، واستنتج أن الحارس قد تلقى توبيخا على سماحه له بالمرور فى المرة السابقة ، واحتال ميشيل على كسب الوقت ·· فقال انه يكون أمرا محزنا لو أعاده ، لان سويسرا أيضـا ستخسر مزايا المعلومات الحربية الهامة التى أحضرها لهم بالاخص ·· ثم روى له مقابلته فى الشهر الماضى مع ضابط المخابرات فى لى لوكل ·

وقد وجد الحارس فى ذلك تبريرا كافيا للاتصال برئيسه تليفونيا ·· وبعد ذلك أبلغ الحارس ميشيل أنه تلقى تعليمـات بالتحفظ عليه الى أن يحضر أحد الضباط لاستجوابه · وبعد ساعتين وصل الضابط ، فكرر مبشيل قصته ، وذكر اسم اليفتنانت الذى سبق أن قابله وطلب سؤال السابط للتأكد من ذلك ·· وفعـلا تم الاتصال التليفونى مع (لى لوكل) ولكن اتضح أن الضابط قد أعفى من الخدمة ·

وعندئذ تذكر ميشيل أن الضـابط كان قد أخبره أنه فى حيـاته المدنية كان يعمل مهندسا معماريا وأنه كان يعمل فى كولومبيه فطلب من عامل التليفون أن يحاول الاتصال به ، فأظهر كفاية جديرة بالاعجاب اد بعد دقائق قليلة كان ضابط المخابرات السابق على الطرف الآخر من الخط ·· وعندئذ لم يؤيد قصة ميشيل فقط بل ألح على ضرورة استقباله كعميل عظيم القيمة ··

وكانت نتيجة ذلك أن ميشيل بدلا من أن يعود أدراجه عومل معاملة طيبة كعميل عظيم القيمة ·· وحدد موعد مع مكتب المخابرات في لا شو دى فوند واتخذت الاجراءات لانتقاله وأعدت المبالغ السويسرية اللازمة لنفقاته ··

وكان هذا بالنسبة له تعطيلا مرهقا ، ولكنه كان ثمنا لابد من أدائه مقابل حرية دخوله الى سويسرا ··

وكانت الساعة حوالى التاسعة من صباح اليوم التالى عندما وصل قطار ميشيل الى بيرن ·· أضاع يوما ولكنه مقابل ذلك قضى ليلته فى أفضل فندق فى لاشو دى فوند ضيفا على الجيش السويسرى ·· وعلاوة على ذلك فانه مقابل المعلومات التى أعطاها لهم ، رخص له أن يتجول بكل حرية مدة أربعة وعشرين ساعة ·

ولما كان اليوم صحوا بديعا والوقت لا يزال مبكرا فقد رأى أن يسير على قدميه من المحطة الى دار السفارة التى كانت تقع فى ضواحى المدينة ، فى حى فخم ، ومبنى رئيسى فاخر تحيط به الاشجار والحدائق ·· وعندما كان ميشيل يطوف داخل الحديقة تبادرت الى ذهنه مفارقة عجيبة بين جوها الرائع وبين العملية غير المشروعة والمتسمة بالرعونة والتهور التى يقوم بها ·· فكيف يمكن لناس يعيشون فى مثل هذا الجوار الفاخر المحترم أن تكون لهم صلة برجل مثله ؟ أليس من الافضل له أن يتحول الى الباب ويخرج ؟

وألقى نظرة على بذلته · كان قد نظفها بعناية فى الصباح وكان حذاؤه نظيفا ·· على الاقل لم يكن مظهره كأحد رجال العصابات ·· وعندما وصل الى السفارة اقتادوه الى نفس غرفة الانتظار ، وبعد دقائق حضر الماجور (ب) مساعد الملحق العسكرى ولكن مظهره هذه المرة لم يكن منفرا كالمرة السابقة ·· بل مد يده الى ميشيل قائلا انى مسرور برؤياك ثم اقتاده الى غرفة أخرى حيث جلسا الى مائدة يواجهان بعضهما

وبدأ (ب) بقوله أود أولا أن أسألك بضعة أسئلة ·· ما هو اسم والدتك الاصلى وأين ومتى ولدت ؟ ثم تلت ذلك عدة أسئلة أخرى من هذا الطابع الشخصى ·

ثم سأله من أي جامعة تخرج والده ؟ وكم عدد شقيقاته وبمن تزوجوا ؟ وبينما كان ميشيل يجيب (ب) لاحظ فرخا من الورق المكتوب بالماكينة على المائدة أمامه ·· وعندما اقتنع في النهاية ابتسم لاول مرة ودفع بفرخ الورق الى ميشيل ··

وقرأ فيه ميشيل بالفرنسية ما يأتي : « اذا كان الجنتلمان الذى تتحرون عنه يدعى ميشيل لويس هولارد ، مولود فى أبيناى على السين يوم ١٠ من يوليه عام ١٨٩٨ ابن مدام هولارد المولودة فى مونود والمسيو أوغست هولارد ، دكتور فى العلوم وأستاذ الكيمياء الخ ·· فهذا وطنى مخلص وقد أقدم وهو فى سن السابعة عشر على القتال ضد الالمان » ··

وقال (ب) أنت ترى الآن أنه كان علينا أن نتخذ احتياطنا وعندما جئت أول مرة لمقابلتى لم أكن أعرف عنك شيئا وكان من الممكن جدا أن تكون فخا لاصطيادنا . والآن بعد أن عرفت أنك تنطق بالحق فيسرنى أن أقبل ما تعرضه اذا كنت لا تزال عند رأيك ·· فأجاب ميشيل : ان لم أكن لما كانت بى حاجة الى الحضور هنا ··

ـ حسنا ·· فلندخل فى العمل · قبل كل شىء متى تظن أنك تستطيع القيام بالرحلة الى بيرن ؟

وفكر ميشيل فى أنه ليس من السهل اختلاق المعاذير بعد الآن فحكاية الفحم أصبحت تتضاءل أهميتها ، وبعد لحظة من التفكير قال : « كل ثلاثة أسابيع » ··

ـ وقال ب : « هذا رائع ·· انه طبق المرام ·· »

سؤال آخر ·· هل تظن أنك تستطيع الحصول على المعلومات التى نحتاجها ؟

ـ حسنا ·· ولكننى لا أعلم ما نوعها ··

ـ أولا وأهم كل شىء الوضع والوصف الدقيق لوحدات العدو فى المنطقة المحتلة ··

وبدت على وجه ميشيل الدهشة فلم يكن يتوقع أن يطلب منه شيء بمثل هذه البساطة ·· فقال : « أهذا كل شيء ؟ » ـ وماذا عن المطارات ومستودعات البترول والذخيرة ؟ وكذلك الدفاعات التى يقوم الالمان بانشائها فى كل مكان ؟ ألا تهمكم هذه أيضا ؟ »

فأجاب ب بالتأكيد ·· ان كل هذه تهمنا ·· ولكن مأموريتك الهامة هى تعيين مواقع وتمييز التشكيلات العسكرية الالمانية وبالاخص فرق المدرعات ··

فقال ميشيل : أليست لديكم هذه المعلومات الآن ؟

فابتسم ب وقال : بطبيعة الحال لدينا قدر كبير منها ولكن مقابلتها بمعلومات مصدر آخر ، يكون كثير النفع دائما ··

ولم يقل ميشيل شيئا ·· انتابه شعور بالتخاذل ·· فهو كضابط فى الجيش كان يفهم أسس المخابرات الحربية ·· وكان يعرف أن المسألة لا تقوم على الجرأة الفردية التى تستطيع أن تنزل ضربات قوية بالخصم ·· بل هى عمل يتطلب الصبر والتدقيق ، ونتيجة مجهود فريق ، يرتب وينسق معا عددا لا حصر له من الحقائق والمعلومات الصغيرة ··

على أنه كان جنديا وقد عرض أن يؤدى خدماته ·· وقد قبل عرضه ، وكان قد جاء ليتلقى الاوامر ·

فقال : فهمت وسأعمل كل جهدى ·· وهكذا انتهت المقابلة ·· وبينما كان ب يودعه أبدى ميشيل ملاحظة عن جمال الجو بالمحيط بدار السفارة ووافق ب وأخذ يطنب فى جمال مناظر برن بصفة عامة وعند ذلك اكتشف ميشيل أن الرجل الانجليزى المتحفظ والمتسم بالبرود انما هو رجل متحمس للفنون الجميلة وسريع الاحساس بالمرح والفكاهة ·· علاوة على أن لغته الفرنسية سليمة لا تشوبها أخطاء ·

وبعد حديث قصير ودعه ب وهو يلوح بيده قائلا : الى الملتقى وحظا سعيدا ·· وسار ميشيل وهو منشرح القلب ، فقد حقق أول أهدافه ·· واذا كانت المهمة التى كلف بها غير مهمة بدرجة كبيرة ، فهى على أى حال

نافعة ·· كل ما عليه أن يكون دائما مفتوح العينين ·· ولم يكن يفكر الا قليلا فيما يمكن أن يؤدى اليه ما يقوم به أو ماذا تكون نتيجة عمله فى النهاية ··

وعند منتصف النهار كان ميشيل قد عاد الى المحطة وأخذ القطـار الى لى لوكل ومن هناك سار على قدميه الى لابريفين وبعد أن سار ثلاث ساعات وصل الى القرية الصغيرة ·· وتوقف فقط لشراء بعض المأكولات المحفوظة من السردين الفرنسى ـ غير المتوفر فى باريس ـ اندفع الى الغابة وسرعان ما وصل الى الجدار الذى يميز الحدود السويسرية ··

كانت السماء تمطر طوال فترة بعد الظهر فلم يقابل أحدا ·· ولكنه عندما قفز الى الارض الفرنسية تقابل على بعد عشر ياردات بالشـــخص الوحيد فى العالم الذى كان يرجو أن يتجنب مقابلته ··

فقد كان هناك ديدبان ألمانى مختفيا بين الاغصــان ويفحص الوادى بواسطة نظارة ميدان ·· وكان فى تلك اللحظة موليا ظهره ناحية ميشيل ولكنه كان يدور حول نفسه فى بطء وهو يتأمل الافق ··

فانبطح ميشيل الى الارض وظل ساكنا دون حراك وكان يتنفس فقط والآن استطاع أن يرى النظارة مصوبة الى ناحيته ·· فهل يجازف بتسلق السور ويقف على الارض السويسرية على بعد ياردات منه ؟ وحتى لو فعل ذلك فان هذا لا يمنع الجندى الالمانى من اطلاق النار عليه ·· ثم ان ذلك قد يجر المشاكل ويثير الشبهة ضد كونو باعتباره صاحب أقرب مزرعة ·

وبينما كان يراقب الموقف دون أن يبت برأى ، رأى الجنـدى ينزل نظارته ، ويعلقها حول رقبته ويضع بندقيته على كتفه ويسير مبتعدا ·· فكمن ميشيل فى مكانه نصف ساعة أخرى ، واذ تحقق أنه لن يقـابل داورية أخرى نزل المنحدر وعبر المجرى وتسلق المرتفع من الجانب الآخر وبعد ساعة كان يقرع باب كونو ·

وعندما كان يشارك العائلة طعام العشاء ، كانوا جميعــا مبتهجين لعودته سالما ·· وبالرغم من أن الاطفال لم يكونوا يعرفون سر الزائر ، الا أنهم كانوا يحسون بما لهذا الزائر الغريب من طابع مثــير ، وكانوا يدعونه العم ميشيل ·· وقد أصبحت العادة المألوفة أن يبيت الليـــل عندهم ··

واستيقظ فى صباح اليوم التالى فى الساعة الخامسة قبل أن يستيقظ أى فرد ·· وترك لهم رسالة شكر على المائدة وخرج ليتفقد دراجته ويرحل

ركب دراجته طوال اليوم ، مع وقفتين قصيرتين تناول فيهما طعامه ، وعند الساعة السادسة كان عند هويس كوزى وفى هذه المرة لم يتوقف حتى لتناول كوبة النبيذ المعتادة وفتح المسيو فرينيون الممر السرى بنفسه ولوح بيده مودعا لميشيل الذى شرع فى المرحلة الاخيرة من رحلته ··

ووصل الى محطة ديجون فى التاسعة مساء ·· وكان القطار القائم الى باريس مستعدا على الرصيف ·· وبالكاد كان لدى ميشـــيل الوقت ليضع دراجته فى غرفة العفش ويأخذ القطار قبل أن يتحرك كان قد بلغ به التعب والارهاق حتى كان كل جزء من جسمه يؤلمه ولكنه كان فى نفس الوقت يفيض بشعور قوى من الرضى والابتهاج ·

وفى خلال الخمسة أيام التى غابها قطع ٢٣٠ ميلا بوسائله الخاصة ·· وعندما استيقظ فى باريس فى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى ، بعد أن نام جالسا فى القطار ، كان مستعدا اذا تطلب الامر أن يكرر نفس المهمة ··

ان هذه القوة البدنية الممتازة لم تكن مصادفة ·· بل كانت نتيجـة الاستعداد الرياضى والصلاحية البدنية التى عمل من أجلها ميشيل طوال حياته ·· وكان ميشيل أيضا متطرفا فى زهده عن الطعـام وقدرته على الامساك عنه ·· وكانت هذه الميزة ، كعامل فى قوة مجالدته أمام الاخطار الجسيمة تأتى فى الدرجة التالية بعد شجاعته المعنوية ··

٥

تنظيم شبكة

كانت المهمة التى رسمها ب تبدو سهلة بسيطة فى نظر ميشيل ، وهو يجلس فى السفارة فى بيرن ، ولكنه عندما عاد الى باريس تبين له ، بمجرد أن شرع يفكر فيها ، بأنها لن تكون سهلة على الاطلاق ..

فباريس مثلا كانت تغص بالجنود الالمان ، ولكن كثيرا منهم كان فيها لبقضى أجازته وقد جاءوا من مختلف أنحاء فرنسا ، أو غيرها من الدول المحتلة ، أو حتى من ألمانيا ذاتها . ففى شارع واحد كان يمكن أن يلتقى الانسان برجال من مائة وحدة مختلفة وحتى لو نجح الانسان فى تمييز شاراتهم ــ وهى مهمة ليست سهلة بالنسبة للغريب ــ فانه لا يكون قد تقدم خطوة كبيرة ..

فقد كان من المعلوم أن هناك عدة فرق معسكرة فى اقليم باريس .. ولكن ما هى تلك الفرق ومواقعها بالضبط فتلك مسألة أخرى .. فكيف يبدأ فى التحرى عنها ، ومن يستطيع أن يسأل ؟ مع العلم بأن مجرد اظهار الاهتمام بموضوع كهذا قد يؤدى الى القبض عليه .

يضاف الى ذلك أن باريس لم تكن الا مركزا واحدا . و «ب» قد أعطاه كشفا « بالنقط الاستراتيجية » ولكنه كان مجرد كشف بالبلاد الرئيسية فى المنطقة المحتلة .. وعلى أى الاحوال فان الالمان قلما يقيمون مراكز قياداتهم فى المدينة بل كانوا عادة يقيمونها فى قصر بعيد منعزل ، يشددون الحراسة عليه ، بحيث كان مجرد الاقتراب منه يثير الاشتباه فى الحال ..

وبعد أسبوع قضاه ميشيل وهو يذرع شوارع باريس ويسافر الى ضواحيها ، ويتردد على المقاهى التى كانت تؤمها القوات الالمانية غالبا ، لم يكن ميشيل قد أصبح أكثر ادراكا للمهمة من قبل ..

وفى الحال أدرك النتيجة الحتمية وهى أنه لن يستطيع بمفرده أن يفعل شيئا وشعر أنه فى حاجة الى مساعدين ، بل الى الكثير منهم ، وعلى وجه السرعة ·· ولكن أين يجدهم ؟ والى من يلجأ دون أن يجازف بالتعرض الى اكتشاف أمره ·· ؟ كان ذلك فى شهر يونيـة عام ١٩٤١ ، واذا كانت هناك فى ذلك الوقت (حركة المقاومة الفرنسية) فان ميشيل لم يكن قد اكتشفها بعد ··

وظلت المشكلة دون حل الى أن جاء يوم ، قدم فيه الى مكتبه رجـل ضئيل الجسم يرتدى ملابس العمال وطلب اليه اذا كان يستطيع الحصول على ماكينة غاز . وقابل ميشيل الرجل وقال ان اسمه لويس مارجو أسير حرب سابق وأعيد الآن الى وطنه بسبب جروحه ·· وأمكنه الحصول على لورى قديم ويريد أن يزوده بماكينة غاز ، وفى نيته أن يقوم بعمل لحسـابه وبمفرده ··

وتلقى ميشيل طلب الرجل ووعده بأن ينجزه سريعـا وأعطاه موعدا بعد أيام قلائل ، أى الى أن تصل الماكينة من المصـنع فى ديجـون ·· واستغرق تركيب الماكينة فى اللورى وملاءمتها له بضـعة أيام ، أتيحت فيها لميشيل المناسبات ليتحدث مع عميله الجديد ·· كان يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين ويرجع الى الطبقة العاملة · وقد أثر على ميشيل باطلاعه العام وعقله الواعى وخلقه المتين ·· وبدا هو أيضا وطنيا متحمسا ··

وفى اليوم الاخير لانتهاء عمليته دعاه ميشيل الى مكتبه الخاص وقال له « كنت أفكر فيما اذا كنت تستطيع تأدية مساعدة لى » ·· فنظر اليـه مارجو مبهوتا ·· ولكن ميشيل استطرد قائلا : « أظنك تدرك أننى قد استنتجت من أحاديثنا انك تكره سادتنا الجدد كما أكرههم أنا » ·

ـ طبعا اننى أكرههم ·· وكيف يمكن لاى فرنسى أن يحبهم ؟

ـ أوافقك على ما تقول ·· وهل تؤمن أيضا بالنصر النهائى للحلفاء ؟

وتطلع مارجو فى ارتياب قائلا : هذا يتوقف على أشـياء أخرى ·· مثلا لو استطاع الانجليز أن يصمدوا وجاء الامريكيون الى مساعدتهم ··

ـ وقال ميشيل ان الانجليز سيصمدون والامريكيون سيأتون ـ ولكن ربما ليس فى هذ العام ولكنهم سيأتون ان عاجلا أو آجلا كما فعلوا من قبل ‥ ولكن الواجب علينا أن لا نترك الامر لحلفائنا فان الفرنسيين يجب أن يعتمدوا على أنفسهم ‥ والا فقد ضعنا مهما يكون الجانب الذى يكسب الحرب ·

وهز مارجو كتفيه وهو يقول : « انك على حق ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل » ·

وتردد ميشيل لحظة ‥ لقد أصبح الآن يثق من رجله ، ولكن هـذه هى المرة الاولى له التى يذهب فيها الى مثل هذا الحد مع رجل فرنسى آخر ، وتحقق لديه أن الخطوة التالية هى التى ستحدد مصير خطته ‥ فاذا وقع فى خطأ فان مشروعه كله سينهار ‥

فقال بهدوء : « أنا أقول لك ما الذى نستطيع أن نعمله ‥ ولـكن قبل كل شىء هل أنت واثق أنك راغب حقا فى المساعدة ؟

والان جاء دور مارجو فى أن يفكر مترددا ‥ وقد بدأ يدرك ما يرمى اليه ميشيل ، وها قد طلب اليه أن يتخذ قرارا حاسما ، ولكنه ازاء نظرة ميشيل الهادئة ، لم يكن أمامه أن يختار ‥ فقال نعم انى مستعد ·

ـ وهل تدرك أن هذا قد ينطوى على خطر ؟

ـ لا يهمنى ذلك ‥

ـ حسنا ‥ وهذا هو ما أريد منك أن تفعـله ‥ عندك سـيارة وستتردد بها بين باريس واضواحيها ‥ هناك قوات من الالمان تعسـكر فى مختلف القطاعات ‥ فمن غير أن تخرج عن خط سيرك ، حـاول أن تعرف كل شىء عنها ، مواقعها بالضبط والقوات التى تتكون منها ‥

لم يظهر مارجو دهشة فقد كان يخمن ما سيطلب منه فقال : « ليس هذا الامر بالصعب بالنسبة لى فعندما كنت أسيرا عند الالمان ، وعرفت الكثير عن الجيش الالمانى ‥

ـ ولكنك لن تجد الامر سهلا ، ولو أنه ليس مستحيلا ٠٠ فكما تعلم لكل فرقة رمزها الذى يكون مرسوما على عرباتها وعلى علمها الذى ترفعه على مراكز رياساتها ٠٠ فاذا لاحظت أين تتجه العربات التى عليها نفس العلامات ، فانك تستطيع أن تكتشف نقطة تجمعهـا ٠٠ والتحريات فى الاماكن المجاورة يمكن اذن أن تؤدى الى كشف موقع الرياســة ٠٠ واذا استطعت معرفة اسم القائد أيضا كان هذا أفضل وأفضل ٠٠

ـ هل هذا كل شىء ؟

ـ هذا هو الأهم ٠٠ ولكن بطبيعة الحال فان أى شىء آخر تســتطيع الوقوف عليه يكون مفيدا ٠ فمثلا مستودعات البترول والذخيرة ، وأعمال الدفاع ، ممرات الطيران ، منشئات الدفاع المضادة للطائرات الى غير ذلك

وهز مارجو رأسه ٠٠ واستطرد ميشيل قائلا : « لا تكتب الا أقل قدر ممكن ، واذا كان لابد أن تكتب مذكرات فلا تحملهـا معك ٠٠ عود نفسك على التذكر ٠٠ وكن دقيقا ٠ ٠فان بيانا واحدا دقيقا يكون أفضل من دستة اشاعات ٠٠ هل تفهم ذلك ؟ » ٠

ـ أفهمه جيدا ويمكنك أن تعتمد على ٠٠

ـ حسنا ٠٠ تعال وقابلنى فى الجراج كلما تجمع لديك شىء لتبلغـه لى ٠٠ وتستطيع دائما أن تختلق الحجة لذلك ٠٠

وبعد أيام قلائل ظهر مارجو بسيارته اللورى ، فى الظاهر بحجـــة اصلاح بعض العيوب فى العربة ٠٠ وقد أحضر معه أول تقاريره ٠٠ كان أكثر مما كان ميشيل يأمل فيه ٠٠ لقد غض النظر عن تحذيرات ميشيل وخرج عن خط سيره من أجل الحصول على المعلومات المطلوبة ٠٠ وبعد أن أدلى بما لديه من تفصيلات خرج وهو يعد بالعودة فى خــلال أيام قلائل بمعلومات أوفى ٠٠

وقد ابتهج ميشيل بذلك ، فقد تم شىء ما فى النهاية ٠٠ وقد أمده نجاح التجربة الاولى بالثقة فى احراز نجاحات أخرى ٠٠ وفى خلال الاسابيع القليلة التالية استطاع أن يشغل عدة شركاء آخرين ٠٠ كلهم فى منطقة باريس ٠٠ وجهزهم للعمل بنفس الكيفية ٠٠ وكانوا من مختلف الطبقات

فأحدهم كان موظفا فى السكك الحديدية ، والآخر صاحب مقهى ، وثالث سواق تاكسى ، وكانوا يجمعون المعلومات التى يطلبها ميشيل فى خلال قيامهم بأعمالهم العادية ٠٠

وبعد ذلك استطاع أن يجند آخرين فى منطقـــة السين فى ديجون والمراكز الاخرى المختلفة ٠٠ وفى نهاية العام كان يتلقى تقارير من دستة مصادر مختلفة ، بالاضافة الى المعلومات التى كان يجمعها بنفسه ، وكان يوصلها جميعا بكيفية منتظمة الى «ب» فى بيرن ٠

وبعض أفضل معاونيه كانوا ، مثل مارجو ، ممن تعرف بهم بسبب عمله ٠٠ وربما كان مارجو أفضلهم جميعا ٠٠ كان مخلصا يعمل بوحى وضمير الى حد أنه قد يتورط فى متاعب لا نهاية لها من أجل تتبع بعض المعلومات أو الحصول على تأكيد للبعض الآخر ٠٠

وكان ميشيل فى طريقة اختياره لهؤلاء الناس يعتمـد على الحـدس والبديهة بالاكثر ، وهم عادة ما يكونون غرباء عنه كلية فكان عليه أن يكون فكرة لتوه فى لقاء المصادفة « وكان عليه قبل كل شىء أن يراقب الشخص عن كثب ، وقد علمته التجربة والخبرة كيف يبحث مظهر الرجل وتعبيره ثم يشترك معه فى الحديث ٠ وأحيانا ما تكون هذه الابحاث الاولية غـير عملية ومع ذلك يجازف معتمدا على دقة تمييزه ٠٠

وكان من بينهم مثلا لويس جوانين كان ناظر محطة فى بورت لا فالينس وهى أهم منطقة فى الخط الحديدى ٠٠ وكان جوانين يقوم بالتفتيش على بعض النقــاط عندما وقع نظر ميشيل عليه لاول مرة ٠٠ ولم يكن أمام ميشيل الا دقائق قليلة ليلحق القطار فلم يكن لديه وقت كاف للتحريات الاولية وبعد مراقبة الرجل لحظة اقترب منه ميشيل وطلب أن يتحـــدث اليه على انفراد ٠٠ فسارا معا على الرصيف وقال له ميشيل : « أنا ضابط فرنسى ومكلف بمأمورية هامة تساعد قضية الحلفاء كما تســـاعدنا على التخلص من (البوخ) أى الألمان ٠ وأنا فى حاجة الى أحد الناس هنـــا ليزودنا ببعض المعلومات ، وأعتقد أنك أنت الرجل المطلوب ولذلك فانى أناشد وطنيتك لكى تساعدنا ولكنى أحذرك من الان أن الامر لا يخلو من المخاطرة » ٠٠

ولم يجب الناظر لأول وهلة وسارا قليلا صامتين ثم وقف ونظر الى ميشيل . وقال له : « أنا لا أعلم من أنت يا سيدى ولكنى أثق فى أنك تقول الحق ، فاذا كان هذا صحيحا فثق أنك قرعت على الباب الصحيح .. فما عليك الا أن تخبرنى بما تريد منى أن أفعله » .

ـ احتفظ بمذكرة بكل تحركات القوات الالمانية ومهماتهم وانتظر قدومى اليك فى خلال أسبوع ..

ولم يكن هناك وقت لأكثر من ذلك .. فقد استعد قطار ميشيل للقيام .. ودون كلمة أخرى ترك جوانين وأسرع الى الرصيف الذى يقف عليه القطار ..

واتضح أن حكمه على جوانين الذى نشأ من تأثير مقابلة واحدة معه ، كان له ما يبرره من النتائج التى حققها بعد ذلك .. فعندما عاد ميشيل اليه بعد أسبوع قدم اليه الناظر تقريرا أنيقا موضوعا بكل دقة يتضمن جميع المعلومات التى طلبها منه .. وأظهر جوانين فيما بعد أنه من أجدر العملاء بالثقة ومن أشدهم تحمسا ..

ونجاح بارز آخر تمثل فى شخص لويز فييت . كان ميشيل يعرفه قبل الحرب اذ كان يملك جاراج فى شارع جيتيه بالقرب من محطة مونت بارناس .. ولم يتقابلا منذ صيف عام ١٩٤١ عندما تقابلا وقتئذ بمحض الصدفة .. كان ميشيل يزور مصلحة الطرق والكبارى لتجديد تصريحه الخاص بتركيب ماكينات الغاز .. وبينما كان فى غرفة الانتظار شاهد فييت حيث كان هناك لنفس الغرض . فتبادلا الحديث .

وعلم ميشيل أن فييت كان قد اشتغل سائقا فى شركة نقل كبيرة تعمل فى موانى القنال . وكانت احدى سفرياته فيما بين ابيفيل وبولونى وكانت تتيح له هذه الرحلة الدخول فى المنطقة الساحلية الممنوعة .

كانت هذه المنطقة تمتد على كل طول الساحل الفرنسى من كاليه الى الحدود الاسبانية .. وكانت الحراسة عليه أشد بكثير من مناطق الحدود الاخرى .. وكان ميشيل نفسه يجد أشد صعوبة فى دخولها .. لذلك كان من الواضح أن فييت ، الذى لديه تصريح دائم بدخول المنطقة ، سيكون عظيم الفائدة بالنسبة له ..

وقد ابتهج فييت بالمهمة وشرع في عمله توا ـ ولما كان يتردد على باريس ، نظرا لوجود مكاتب شركته بها ، فلم تكن هناك صعوبة فى اتصاله بميشيل وتسليمه التقارير كل أسبوع ٠٠ ومن بين اكتشافاته تحديد مواقع البطاريات الالمانية الساحلية بالضبط ومشروع قاعدة غواصات جديدة فى بولونى ٠ وتفصيلات عن وسائل التمويه (نظام الكاموفلاج) الذى كان يشمل قرية حوريه بأكملها بما فيها من كنائس وتخبئة حقل الطيران الهام فى أبيفيل ٠

كان هذا المطار يستخدم بصفة أساسية بواسطة مقاتلات الليل المرابطة لمقاتلة قاذفات القنابل البريطانية ٠ وفى غير أوقات العمل غالبا ما يجتمع الطيارون الالمان فى مكان يدعى « نوفيون بونتيو » على بعد حوالى خمسة أميال من طريق ابيفيل ـ مونتريه ٠٠ حيث كان يوجد هناك مقصف فاخر ٠٠ وهنا كان يتردد فييت بعض الاحيان حيث كان يحصل من رئيس الخدم (الباترون) ، وكان يعرف اللغة الالمانية ، على تقرير كامل عن محادثات المساء ٠٠ فبعد شرب زجاجة أو أكثر من النبيذ كان الشبان الطيارون يفقدون كل شعور من ناحية الامن ، ويدلون بتعليقاتهم وكانت عادة تتضمن انتقادات شديدة لقياداتهم ٠ وهذه كانت تعتبر فى منتهى الاهمية بالنسبة لسلاح الطيران البريطانى عندما يتلقاها عن طريق برن بعد ذلك بأيام قلائل ٠٠

وتوقع فييت أن الانجليز قد يضربون المطار ان عاجلا أو آجلا فطلب من ميشيل ان يتخذ اجراء لاخطاره برسالة كودية تذاع بواسطة الاذاعة البريطانية ٠٠ وبعد ذلك بأسابيع أقحمت عبارة « البيرة هنا من نوع جيد » وتكررت نفس العبارة فى نشرة الاخبار وكانت هى العلامة المتفق عليها ٠٠ ولم تمض الا ليالى قليلة حتى هوجم مطار ابيفيل بشدة ودمرت كثير من طائرات العدو وهى على الارض ٠٠

كان نجاح ميشيل فى جمع معاونيه يرجع جزئيا الى قدرته على تقدير الاشخاص ووزن خلقهم وطباعهم ، وجزئيا الى شخصيته هو ٠٠ فقد كان زعيما بطبيعته ٠٠ فى مناسبة واحدة فقط صادفه الفشل والرفض من أحد الغرباء الذين حاول أن يضمهم اليه والحادث جدير بالتسجيل كمثل على عقلية الطرف الآخر ٠٠

كان ميشيل قد تلقى معلومات عن تحركات قوات هامة ، تشمل أربعين قطارا محملة بالرجال والعتاد ستحصل قريبا عن طريق تولوز ٠ وحدث أن ناظر محطة تولوز كان معروفا لأحد عملائه وهو موظف آخر بالسكة الحديد يدعى (توركان) ٠٠ فلم يتردد فى أخذ القطار القائم الى تولوز وهناك توجه الى منزل الناظر ٠٠ كان رجلا فى الخامسة والاربعين من عمره يميل الى البدانة ٠٠ ولم يتقبل العرض بحماس ، وتوقع فيه المتاعب ٠٠ عندئذ ذكر أمامه ميشيل اسم صديقه توركان فقال الناظر ببرود « نعم انى أعرفه » فقال له ميشيل انه من أصدقائى وهذا يساعدنا فى الامر ٠٠

ـ لعلك تزيد الامر ايضاحا ٠

ـ سأفعل انك رجل فرنسى ومثلنا جميعا لابد أنك تستنكر احتلال بلادنا بواسطة قوات أجنبية ٠٠ اننا بفضل الانجليز والامريكيين الذين ما زالوا يواصلون مقاومة الغازى ، سنتحرر يوما ما ٠٠ وأنا هنا لاعرض عليك الفرصة فى المساعدة على تحرير فرنسا ٠٠ فقال الناظر بشىء من الاحتقار : « اننى لا أفهمك يا سيدى » فاستطرد ميشيل قائلا : ان الامر فى منتهى البساطة ، لست أطلب منك الا أن تزودنا بمعلومات هى فى حوزتك بحكم وطبيعة عملك ولكن هذه المعلومات لها أهميتها الاستراتيجية لحلفائنا ٠٠ أقصد بذلك تلك الحركات الهامة للقوات الالمانية المتوقع أن تحدث قريبا هنا ٠٠ ويهمنا أن نعرف كيفية تكوين تلك القوات ، ومن أين تجىء ، والى أين تذهب ٠٠ ولا أظنك ترفض مساعدتنا فان لذلك أهميته القصوى ٠٠

فقال الناظر باختصار ـ اذا كان هذا ما جئت من أجله فانى أستطيع أن أقول لك انك تضيع وقتك سدى ٠٠

فقال له ميشيل : ولكن ما الذى يمنعك أن عددا كبيرا من زملائك فى أماكن أخرى مختلفة يساعدوننا ٠٠ وهم يفعلون ذلك بكل سرور وارتياح

ـ لا أحب أن أشترك فى هذه السخافات ٠٠

ـ انها أبعد ما تكون عن ذلك ، بالعكس انها عمل هام، ولكنه لايخلو من مخاطرة فهل لك أن تساعدنا ؟

ـ أنا لا أتدخل فى السياسات ، وليس فى نيتى أن أفعل ٠٠

ـ ولكن الواقع أنك تفعل ٠٠ فانك بتنفيذ ما يصلك من تعليمات رسمية انما تساعد على تنفيذ سياسة هتلر ، بدلا من أن تساعد حلفائنا ٠ أليس هذا هو السخف الذى تفضله أنت ؟

وهنا استشاط الناظر غضبا وقال : اسمع يا سيدى أنا لست مكلفا بأن أبرر تصرفى أمامك ٠٠ فأنا الحكم فى تقرير ما هو من واجبى ٠٠ والآن انصرف وأنصحك بمغادرة المحطة فى الحال وان فان البوليس الالمانى سينقلك من هنا ٠٠

ولم يكن أمام ميشيل الا أن يتراجع ٠٠ على أنه لم يغادر المحطة ٠٠ وحاول أن يحصل على المعلومات التى يريدها وكان قد تعرف بأحد مراقبى الحركة ، وعن طريقه أمكن الحصول على بعض المعلومات ٠٠

وظل ميشيل يواصل تحرياته طوال تلك الليلة وزار منطقتى سيت وناربون وأخيرا وصل الى نيمس ٠٠ وهنا استطاع كاتب التصوير ، المدعو روزبيه وكان يعمل لحساب ميشيل فعلا ، أن يكمل له ما ينقصه من معلومات ٠٠ وتبين مما جمعه من معلومات أن فيلقا من الجيش الالمانى كان يتحرك الى ايطاليا عن طريق فنتمليا ٠٠ وبعد عشرة ساعات من وقوف ميشيل عى المعلومات ، كانت قد وصلت الى البريطانيين فىسويسرا

وبعد أيام قلائل نزلت قوات من الجستابو فى محطة نيمس ووضعت الحراس على كل منافذها بحثا عن المخبر الذى أبلغ هذه المعلومات ٠٠ وكان لدى روزبيه الوقت لكى يغادر مكتبه ويقفز الى السلم ويصل الى حوش البضائع حيث وجد قاطرة مستعدة ولم يكن السائق بها ٠٠ فقفز الى كابينة السائق وحرك القاطرة واندفع بها فى اتجاه جنوبى صوب ساحل المتوسط ٠ ٠وهناك ظل مختفيا الى أن انتهى التفتيش والمطاردة ٠ ولم يتخذ ضده اجراء تأديبى من جانب الشركة ، ولكنها نقلته الى جهة أخرى من أجل سلامته ٠٠

وكذلك نقل ناظر المحطة فى تولوز ، ولكن نقله كان من أجل ترقيته

والدرس الذى تعلمه ميشيل هو أن لا يبحث عمن يريد أن يجندهم من بين المعارف القدامى ·· وبخلاف صـديقين قديمين منذ أيام خدمتـه العسكرية ، استجابا لدعوته ، فانه لم يتصل الا بصديق قديم واحـد ، وهو رجل كان يعرفه معرفة وثيقة وقت السـلم ، ومنذ الحرب أصـبح رئيسا للدفاع السلبى فى بلدة هامة على الساحل الاطلنطى ·· وهو بهذه الصفة كان له مطلق الحرية فى التحرك فى المنطقـة الممنوعة وبذلك كان يعتبر من أصلح ما يمكن لمساعدة ميشيل ··

وكان رده فوريا وبالنفي ·· والسبب اهتمامه بعائلته وقبل ميشيل رفضه واحترم سببه ·· ولكنه صمم على أن لا يبحث اطلاقا فى رجـال ما قبل الحرب · ·ولكنه مقابل أى صديق قديم كان يخسره كان يجنـد مائة من الجدد ··

كان نظام المساعدين المتطوعين ، الذين كانوا يجمعون المعلومات أثناء قيامهم بتأدية واجباتهم العادية ، كان يسير بكيفية مقبولة الى هذا الوقت ولكن تبين لميشيل بسرعة أنه لم يكن كافيا ·· فالنتائج ولو أنها غالبـا كانت عظيمة القيمة الا أنها كانت غير ثابتة ·· فالشخص قد يبدأ عمله بحماس ثم لا يلبث أن تهبط عزيمته أو يتخلى عن العمل ، ربما لنقله الى عمل آخر حيث لا يستطيع أن يؤدى خدمته وأن يكون مجديا ، ولما كانت خدماتهم يؤدونها دون مقابل فان ميشيل لا يستطيع أن يرغمهم ··

ولذلك تبين له أن الحل الوحيد هو أن يعين عملاء دائمين (كل الوقت) ويدفع لهم أجورهم بنفسه ، ويعملون تحت أوامره وبعد أن اتخذ هــذا القرار فى أواخر ١٩٤١ ، قدم اليه (أوليفر جيران) لكى يقابله ·

وأوليفر وهو ابن صديق لوالد ميشيل يبلغ العشرين فى ذلك الوقت ولكنه كان يبدو أكبر من سنه بعدة سنوات ·· متوسـط الطول عريض المنكبين ، عميق الصوت ، تلوح عليه الثقة بالنفس وكان يبـدو ويتصرف كشخص قادر على الاستمتاع بحياته الى أقصى حد ومستعد للقيـام بأى مغامرة ··

وقال لميشيل ان مطمعه الوحيد هو أن يقاتل الالمان وأنه قام بمحاولة للذهاب الى بريطانيا ولكنها فشلت وقبض عليه فى مارسيليا وسجن ·· وسأل ميشيل عما اذا كان يقترح شيئا بشأنه ··

وقد قضى هذا الشاب طفولته فى سويسرا في قرية قريبة من الحدود يطلقون عليها الاسم الشاعرى أى « ساحل الساحرات » وهو لا يبعـــد كثيرا عن بونتارلييه ٠٠ فهو اذن كان يعرف جيدا المنطقة التى كان يمر بها ميشيل فى ذهابه الى بيرن ٠٠ فهل هناك من هو أصلح منه ليـكون رسولا ؟

ولم يكن هذا ما يرجوه أوليفر ، ولكن بعد أن شرح له ميشيل أهمية هذه العملية وأنها لا تقل خطورة عن الجندية ، وربما فاقتها فى الفائدة ، وافق على القيام بهذا العمل ٠٠ وزاد فى دوافع قبوله أنه بعد أن يتعرف الى الانجليز فقد يقبلونه كمحارب ٠٠

وهكذا أصبح أوليفر جيران أول وأخطر العملاء الدائمين فى (شبكة العمل) المستقبلة ٠٠ وقد عقدا اتفاقهما ٠٠ ولم يضيع ميشيل وقتا فى تلقين المجند الجديد أصول وآجباته ٠٠ وكان الاحتياج الاول أن يدبر له مرورا مأمونا عبر الحدود ٠٠ لم يكن ميشيل يريد أن يعرض للخطر طريقه هو ، فكان من الضرورى البحث عن طريق آخر ٠٠

وقد ساعده السويسريون فى هذا الامر فقد زوده ضابط المخـابرات السويسرى فى جهة لاشد دى فوند الذى كان قد قابله فى زيارته الثانية بكتاب تقديم الى والده ، المسيو جراندى ٠٠

والمسيو جراندى ولو أنه سويسرى الا أنه عاش فى فرنسا اذ كان مديرا لمصنع فى جهة فيريير ديجو وهى قرية صغيرة فى اقليم بونتارلييه وكان المصنع يقع على بعد ٥٠٠ ياردة فقط من الحدود ،وبذلك كان يعتبر نقطة بداية رائعة ، للعبور السرى ٠

واستطاع أوليفر ، بفضل المسيو جراندى ، أن ينجح فى أول دخول له للأراضى السويسرية ٠٠ كما أنه بفضل علاقاته السابقة لم يجد صعوبة من الحراس السويسريين ، فوصل الى بيرن فى أمان وسلم ما معه الى(ب) ثم عاد أدراجه بنفس الطريق دون أى حادث ٠

وبعد ذلك كان يقوم بهذه الرحلة بكيفية منتظمة بدلا من مشيل ٠٠ وبالاضافة الى ذلك أعطيت له المنطقة المحلية بديجون كمنطقة لتجميـع

المعلومات ٠٠ وسرعان ما أظهر براعة فائقة ، ونشاطا ووفرة فى مصادر معلوماته ، واذا كان فيه خطأ فهو خطأ حماسه المتطرف ، واستعداده لمواجهة الاخطار بدرجة تزيد عن الحد ٠

وكان هذا الترتيب سببا فى التخفيف عن مشيل فانه بتوفير وقت رحلاته الى بيرن التى كانت تستغرق عدة أيام كل ثلاثة أسابيع ، استطاع أن يكرس مزيدا من الوقت لادارة الشبكة ، وادارة أعماله الخاصة أيضا ، اذ أن هذه الاخيرة ليست فقط مصدر رزقه الوحيد بل كانت أيضا تتيح له « الستار » ، وكذلك تمويل جهوده الاخرى ٠٠

وكان الاختيار الثانى موفقا بالمثل ٠٠ (جوزيف بروكار) شخصية تختلف كلية عن أوليفر ٠٠ كان من عمره ولكنه كان نحيل الجسم خافت الصوت ، لم يكن يبدو عليه قوة البنية ٠٠ ولكن كان فى تعبير وجهه ماينم عن العزيمة الفائقة ٠٠ وكان ميشـيل قد قابله أول مرة فى سويسرا ، حيث كان يحاول عبثا أن ينضم لصفوف الحلفاء ، وكان على وشك أن يعود يائسا الى فرنسا ٠٠ وكانت هذه هى الروح التى كان ميشـيل يبحث عنها دائما ٠٠ وحدد له موعدا يقابله فيه مرة أخرى فى باريس ، وقابله فعلا وتم الاتفاق على الحاقه كعميله الثانى الدائم ٠٠

وبعد أيام قلائل زوده ببطاقة شخصية زائفة وشهادة عمل باسـم جوزيف بارت ، ثم قام العميل الجديد لتأدية أول مهمة له ٠ وكان الهدف تمييز الوحدات الالمانية فى منطقة (بريتانى) ٠٠

وقد حقق بارت (وهو الاسم الذى سيطلق عليه من الآن) نجـاحا عظيما بحيث اتسعت المنطقة المخصصة له فشملت جزءا كبيرا من شمال فرنسا ، بما فى ذلك المنطقة الساحلية الممنوعة ٠٠ وكان فى عمله لا يهاب شيئا ، ولا يكل ، ودقيقا الى أقصى حد ٠٠ مرة واحدة فقط تأخر دقائق عن موعد ضربه لميشيل ٠ وكان لذلك أهميته لأنه كان من المتفق عليه أن تقصير أى من الطرفين عن الوصول فى موعده ، دليل على أن شيئا ما قد حدث له وفى هذه الحالة يكون انتظار الآخر له لا يخلو من مخاطرة أخرى واذ تقرر هذا المبدأ بينهما كانت المواظبة على المواعيد هى القاعدة الاساسية

وفى أوائل سنة ١٩٤٢ كان ميشيل قد جند أربعة آخرين من العملاء الدائمين ٠٠ فأصبح مجموعهم ستة عملاء ، وزعهم فى أنحاء المنطقة المحتلة

وكانوا جميعا يعملون كل الوقت وكان يدفع لهم أجورهم ومصاريفهم من جيبه الخاص ·· وكان عملهم الرئيسى هو تتبع أثر القوات المحتلة ، وهو ما كان البريطانيون يصرون على اعطائه الاولوية فى الاهمية ··

على أنه لم يستغن عن عملائه المتطوعين ، ولكنه كان يكلفهم بالاعمال السهلة وغير الهامة مثل تقديم تقارير عن منشآت العدو كالمطارات ومصانع الاسلحة والمخازن الخ ··

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك فئة خاصة من المتطوعين ، كان يستخدمهم فقط لاجل التبليغ عن حركات القوات البريطانية ومهماتها · وهؤلاء جميعا كانوا من موظفى السكك الحديدية ، وكانوا يقومون بدور هام فى الكشف عن التغييرات التى تحصل فى مواقع العدو ··

فمثلا ناظر محطة (×) يبلغ عن رحيل فرقة ألمانية معينة الى جهة (هـ) فهذا كان يتطلب من فريق ميشيل أن يقوم بتحريات أخرى ، تكشف ـ علاوة على هذه المعلومات الاصلية ـ (أ) عن الفرقة التى حلت محل الفرقة السابقة فى × و (ب) ومن الذى حل محلها ·· و (ج) الى أين توجهت التى كانت قبلا فى (هـ) و (د) وما هى الفرقة التى حلت محلها ·· وكلما اتسعت دائرة البحث كلما زادت الصورة وضوحا ·

وهكذا كان يعمل التنظيم الذى أنشأه ميشيل فى النصف الثانى من سنة ١٩٤١ ، ومع تعديلات بسيطة ظل يعمل دون تغيير لغاية نوفمبر سنة ١٩٤٢ عندما اقتضى الاحتلال الالمانى الشامل لفرنسا بأكملها ، زيادة هذه الجهود ··

كان ميشيل يبنى مؤسسته قطعة بعد قطعة دون خطة سابقة مدبرة ، ودون معاونة من أحد آلا ادراكه العام للموقف ·

وربما كانت هذه نعمة مستورة ، فقد كان ميشيل من غير مشورات من الخارج ، أو قواعد يقتضى عليه ملاحظتها ، فيما عدا القواعد التىوضعها لنفسه ، كان يعالج كل مشكلة بطريقة حرة غير متحيزة ويحلها فى ضوء معلوماته وادراكه ·· وفى جميع قراراته ، كآن المؤثر الوحيد هو حكمه الخاص وتقديره ··

ومن العوامل الهامة أيضا فى نجاح (الشبكة) أنها كانت تكفى نفسها ذاتيا ·· فقد كانت تستمد قوتها من مصادرها الخاصة فلم تقدم اليهـا أى معونة خارجية · لم يكن هناك امدادات بالمظلات ، ولا خدمات لاسلكية وليس لديها نظام « صناديق البريد » ·· وقد نبذت اجراءات الارهـاب والتهديد التى غالبا ما كانت مهلكة للشبكات الأخرى ·· وبالاخص تلك التى كانت تدار بكيفية مباشرة من لندن ·· وفى الواقع أن ميشيل لم يكن يعلم عن أمرها شيئا ··

وقد يقال ان عدم استخدام الاجهزة اللاسلكية كان يؤدى الى ضـياع كثير من الوقت فى الاتصال مع لندن · ولكن الحقيقة أن قليـلا جدا من تقارير المخابرات هو الذى كان عاجلا ، الا اذا كانت تختص ببعض عمليات فورية ·· وما يتحقق من كسب للوقت باسـتخدام اللاسـلكى ، كانت تفوقه بمراحل المساوىء والاضرار الناجمة عن اسـتخدامه · فرسـائل الراديو التى يمكن للعدو التقاطها والاستماع اليها ، وكشف مصـدرها كانت من أقوى الوسائل الفعالة التى كان يستغلها الجستابو لاصطيـاد عملاء الحلفاء واحباط جهودهم ·· علاوة على أنه باصطياد أحد العملاء ومعه جهاز ارساله ، يستطيع الالمان أن يبعثوا برسائل الى لندن ، على أنهـا مرسلة من العميل نفسه ، وبهذه الوسيلة ينصبون الشـباك لـكثير من ضحاياهم ··

ومن ناحية أخرى فالرسائل القصيرة للغاية هى التى ترسل باللاسلكى فى حين أن تقارير ميشيل الكودية التى كان يرسلهـا عن طريق مكتب البريد السويسرى كان يمكنـه ارسالهـا بالكامل ·· وكذلك الوثـائق والرسومات والصور الفوتوغرافية الخ ·· لا يمكن ارسالهـا باللاسلكى ولكن كان يمكن لميشيل أن يرسلها بكل أمانة الى لندن عن طريق الدول المحايدة ·

وبالاجمال كان ميشيل يقوم بعمل تام لرجل واحد وكان فى هـذا أعظم ضمان له ·· كان ميشيل نفسه هو حلقة الاتصال الوحيدة وكان

هو العضو الوحيد الذى يعرفه سائر الاعضاء ٠٠ لذلك كان هو الوحيد الذى يتعرض لخطر الوشاية به لو قبض على أى فرد منهم واستجوب ٠٠ ولم يعين الا مؤخرا ثلاث وكلاء له ليحلوا محله فى حالة وقوع حادث له ٠

كانت جميع التقارير تسلم اليه شخصيا ، فاما أن يجىء العميل بنفسه الى باريس واما أن يزوره هو فى أقليمه ٠٠ وهذه الاتصالات المباشرة التى كانت تتم فى فترات منتظمة كانت عظيمة القيمة اذ كانت تمكنه من الاشراف على العمل من أول خطوة فيه دون أى خطر ينجم عن سوء الفهم ٠٠ كما أنها كانت هامة من ناحية أنها كانت ترفع معنويات فريقه ٠٠

كان العيب الوحيد فيها أنها كانت تتطلب سفرا كثيرا ٠ ولكن لحسن الحظ أن عمله الاصلى كان تبريرا تاما لكثرة السفريات ٠٠ كما أنه كان يتيح الستار لمعظم عملائه المستديمين الذى كانت لديهم شهادات بأنهم وكلاء بيع لشركة « الجازولين » فى ديجون ٠

٦

القبض على أوليفر

قام أوليفر جيران ، بعد انضمامه للعمل مع مشيل كرسول له ، بأول رحلة له الى سويسرا فى يناير ١٩٤٢ ، وفى خلال الستة أشهر التالية كان يقوم بالرحلة الى بيرن ومنها كل ثلاثة أسابيع ·

وظل هذا الترتيب يعمل بكيفية مرضية · وكان أوليفر يعرف البلاد وعمله يسير مع (ب) على مايرام ، ولم تصادفه صعوبات مع السويسريين ، الذين وافقوا مقابل مايحصلون عليه من معلومات ، أن يسمحوا لمشيل أو رسوله بحرية المرور كلما أرادا ·

ولكن فى يونية وقعت كارثة كان لاوليفر صديق شاب هولندى كان قد قابله فى الغرفة التجارية الهولندية فى باريس ·· وفى أوائل الربيع طلب اليه صديقه اذا كان يستطيع عمل ترتيب لجماعة من الهولنديين ، هربوا أخيرا من هولندا ، لتهريبهم من فرنسا الى سويسرا ·

وكان أوليفر يتطلع الى بعض مغامرات جديدة فقفز طربا لهذا الاقتراح واتفق على أن يغادر باريس فى نفس الليلة · ومعه هذه الجماعة ·· ومن حسن الحظ انهم لم يصادفوا أى مراقبة عند أوكسون أى عند دخول السكة الحديدية الى (المنطقة الحمراء) ·· ووصل القطار الى بونتارلييه دون أى حادث ·· ومن هناك سارت الجماعة على الاقدام واخترقت خط الحدود دون اكتشاف أمرها الى أن وصلت بأمان الى (لاكوت أوفيه) أى «ساحل الساحرات) ··

وعاد أوليفر الى باريس مبتهجا بنجاحه ، حيث قابله اصدقاؤه فى الغرفة التجارية الهولندية بترحيب حماسى ··

وعرف مشيل بأمر هذا الهروب ، كما عرف مدى الخطورة الى تعرض لها أوليفر فنصحه بأن لايكرر هذا الامر ·· ولكن لسوء الحظ كان الاخير

قد أعطى وعدا بتهريب جماعة أخرى تتكون من تسعة أفراد ·· وعلى اعتبار أن هذه ستكون المره الاخيرة التى يفعل فيها ذلك ، أعطى مشيل موافقته مترددا ··

وعند الساعة الحادية عشر من صباح يوم ٣٠ يونية توجه أوليفر الى المحطة لمقابلة القطار الذى يحضر به الفريق الهولندى ، وكان يرافقه صديق من أيام الدراسة يدعى جان بوهى ـ واخذا ينتظرن عند باب الخروج ، ولكنهما لما يشاهدا الفريق القادم : فرأى أوليفر أن يقف على الرصيف داخل المحطة لبحث عنهم ، وترك صديقه جان للمراقبه فى الخارج ·· ومضت حوالى عشر دقائق وجان ينتظر فى الخارج قلقا ، وعندئذ شاهد جنديا المانيا مسلحا يخرج ثم تلاه آخرون يحرسون جماعة من المدنيين ، مقيدى الايدى كل أثنين معا ·· وكان فى وسطهم جميعا أوليفر مربوط اليد مع أحد الحراس ·· وبينما كان فى طريقه أبدى اشارة الى جان تدل على خيبة أمله · وتجنب جان الرد على اشارته اذ لاحظ أحد الحراس ينظر اليه ، فحول وجهه واتخذ طريق الهرب ··

وسمع ميشيل بهذا النبأ بعد ثلاثة أيام لدى عودته من رحلة كان يقوم بها ·· وعرف به من عائلة أوليفر التى كان يعرفها ، والتى علمت بالحادث من جان بوهى ـ وقد صدم ميشيل بذلك ليس فقط لانه كان أول فشل خطير يصادفه بل أيضا لانه كان وثيق الصلة بأوليفر الذى كان أقدم وأصغر عملائه الدائمين ·· وشعر بانه المسئول شخصيا عن هذه الكارثة ··

وبالرغم من أدراكه بانه هو شخصيا أصبح فى خطر ، الا أن فكره كان منجها نحو أوليفر ·· وكان من المهم له أن يعرف اين سجنوه ، حتى يمكن تدبير ارسال الاطعمه والرسائل اليه واذا أمكن تدبير أمر تهريبه · فقرر أن يتحرى بنفسه ، وبعد أن ابلغ عائلته بذلك ركب القطار الى ديجون ··

كانت ادارة السجون ـ بعد أن كان الالمان قد استولوا عليها ـ عبارة عن مبنى ضخم كبير رمادى اللون يقوم عند نهاية الطريق العريض ·· وكانت واجهته الكتيبة تشكل مفارقة غريبة مع المنظر البهج لجانبى الشارع اللذين تحف بهما الاشجار الجميلة · ولاحظ ميشيل أن بعض نوافذ المبنى كانت مغطاة بألواح حديدية · وهذه كانت فى زنزانات العقاب ··

لم تكن لدى ميشيل خطة معينة ولكنه كان يرى أنه من غير المحتمل أن يكون أوليفر قد نقل من ديجون ·· وكان يهمه أن يتحقق من انه لايزال في السجن ·· وعندما اقترب من المبنى وجد أن المدخل الرئيسى وهو عبارة عن بوابه حديدية ضخمة ، كان مفتوحا وقرر في التو أن يهاجم الاسد في عرينه ·· وفي داخل المدخل وجد صف ضابط ألمانى يجلس الى مكتب في غرفة صغيرة ، وتجلس الى جانبه سيدة شابة وأمامها مكتب أصغر كانت جميلة شقراء ولو أن مظهرها يدل على الوقاحة والغطرسة وتتكلم الفرنسية بطلاقة ··

اقترب ميشيل من الغرفة وقرع بابها المفتوح ولما تطلع اليه الالمانى قال بالفرنسية «من فضلك ياسيدى انى اسأل عن شخص يدعى أوليفر جيران فهل يمكن أن تدلنى اذا كان هنا ؟» وبينما كانت الفتاة تترجم بالالمانية كان الصف ضابط يتأمل ميشيل ·· ثم نظر الى المترجمة وطلب اليها أن تسأله عن سبب اهتمامه بهذا الشخص ··

كان ميشيل قد تعلم الالمانية في طفولته فكان يعرف منها مايكفى لان يفهم مايقصده الصف ضابط الالمانى واشتم منه تحذيرا ، فلم ينتظر ترجمة أقواله ، فراح يتمتم ببعض الاعذار وهو يتلمس طريقه الىالبوابه بسرعة ·· حيث راح مرة أخرى في زحام الطريق ··

ولما عاد الى باريس أبلغ عائلة جيران وفي اليوم التالى سافرت والدة أوليفر برفقة صديق لزيارة السجن ·· وبفضل حارس رقيق نمساوى تمكنت من ان ترسل بعض الاطعمة ورسالة لابنها ·· وبعد أيام أمكن تهريب خطاب اليها ، وأمكن بعد ذلك مواصلة المراسلات بكيفية منتظمة ·

ومن هذه الوسيلة عرف ميشيل أن أوليفر بالرغم من استجواباته العديدة لم يبح بشيء ·· كل ما اعترف به هو تهريب النقود اليه ، وهذا لم يكن في نظر الالمان ذنبا خطيرا وكان هناك أمل بالافراج عنه ··

ولكن في أكتوبر نزلت بهم ضربة أخرى ·· فقد قبض على كل من والد ووالدة أوليفر وأخذا الى سجن فريسنس ·· وبعد ذلك نقل أوليفر نفسه الى هذا السجن · وبفضل القسيس الالمانى ، وكان راعيا من اتباع لوثر ، استطاعت مدام جيران أن تتصل بابنها ·· وعندما أفرج عنها هى وزوجها لعدم توافر الادلة ضدهما ، استمرا في تبادل الرسائل مع ابنهما بنفس الواسطة ··

وفى أوائل سنة ١٩٤٣ نقل أوليفر مرة أخرى ٠٠ فى هذه المرة الى انجيرز ٠ وهناك تعرض لسلسلة أخرى من الاستجوابات ٠٠ وفضل قسيس ألمانى آخر أظهر نحوه نفس العطف كقسيس فريسنس تمكنت مدام جيران من استمرار الاتصال بابنها ثم علمت أخيرا من نفس القسيس بوفاة ابنها وكيفية وفاته ٠٠

فى صباح يوم ١٦ ابريل ١٩٤٣ أخذوا أوليفر ومعه شابين آخرين من زنزاناتهم الى مكان تنفيذ الاعدام حيث أطلقت عليهم النار فرقة تنفيذ الاعدام الالمانية ٠٠ وهذا ماكتبه القسيس الالمانى لمدام جيران عن ساعاتهم الاخيرة ٠٠

قبيل التنفيذ بحوالى عشرين دقيقة أخذوه من السجن ومعه أثنين من المحكوم عليهم ٠٠ وكانت هناك عربة تنتظرهم ، أخذتهم الى مكان التنفيذ كان كل واحد منهم مقيد اليد مع أحد جنود البوليس الحربى الالمانى ٠٠ وقد جلست فى العربة معهم ٠٠ وطلب منى أن أقنع الحارس باخلاء سبيله قائلا أن الصباح جميل والدنيا تبدو رائعة واريد أن أتطلع اليها أكثر مما يمكن ٠٠ وانى أعدك بان لا أسبب لكم أى تعب ٠٠ وفى اثناء الطريق سألنى اذا كنت أعرف فرنسا جيدا فأجبته بالايجاب فقال اذن لاشك أنك تدرك انه من الفخر ان يموت الانسان من أجل هذه البلاد ٠٠ انها جميلة للغاية وأهلها ظرفاء جدا وانه من المؤلم انك كألمانى لا تستطيع أن تعاشرهم ٠٠

واطلعنى أحد رفيقيه على صورة ابنه الطفل الذى لن يراه مرة أخرى كانت الدموع فى مآقيه وحاول أوليفر أن يهدىء من اشجانه قائلا له لاتبكى وكن شجاعا ٠٠

وسألنى الثالث كم من الوقت لايزال أمامنا ؟ فقلت له حوالى ١٢ دقيقة ٠٠

وبعد ذلك لم نتكلم ٠٠ وعندوصولنا الى المكان عصبت أعينهم ثم قرأى عليهم الحكم بالالمانية والفرنسية ٠

وفى لحظة واحدة كان قد تم كل شىء ٠٠ وعندما صدر الامر باطلاق النار سمعت أوليفر يهتف بحياة فرنسا ٠٠ ومات الثلاثة فى الحال ٠

ومع نفس الخطاب أرفق القسيس خطابا آخر من أوليفر الى والديه ـ كان قد شرع في كتابته قبل اعدامه بأيام قلائل وانتهى منه صباح يوم الاعدام بين الساعة السابعة صباحا عندما أبلغوه بالتنفيذ وبين الساعة التاسعة عندما جاءوا لاخذه ٠

وهذا الخطاب المؤثر للغاية طويل لا يتسع هنا المكان لذكره بالكامل ، فنكتفى بفقرات منه تعطى فكرة عن لهجته الحزينة ٠٠

الاثنين ١٢ ابريل ١٩٤٣ ٠

لقد حكم على بالاعدام ٠٠ فماذا اذن ؟ هل الجأ الى التماس العفـــو والرحمة ؟ سبق أن شرحت لماذا لا أجد أملا في هذا ٠٠ ولذلك لا داعى للتعلق فى أمل ضئيل ٠٠ اننى فى قاع الهاوية ولكنى ما زلت أستطيع أن أرى النور ولكن من ثقب كرأس الدبوس ولا وسيلة لى للوصول اليه ٠ فليس أمامى الا الانتظار ٠٠ الانتظار الى أن يذهب هذا الشعاع كلية ومن الافضل الانتظار فى هدوء ٠

انى أشعر بالاضطراب ٠ ورأسى تزدحم بالافكارالتى لا تتصل ببعضها ولكنى أود أن تعرفونها ٠٠ فعلاوة على أنه مما يسعدنى أن أكتب اليكم ، فان الكتابة تجعلنى اتصور كما لنا جميعا معا نتحادث ٠٠

هناك أمران أريد أن تتذكروهما ، عرفانى العميق بالجميل بحياة عظيمة وسعادة دائمة وهذا يرجع الفضل فيه اليكما ٠٠ ثم قوة حبى لكما ٠٠ ولن اكتسب أكثر من هذا فهناك اشياء عظيمة للغاية وجميلة للغـاية ومقدسة للغاية بحيث أن الانسان اذا حاول التعبير عنها بكلماته انمـا يشوهها ويتلفها ٠٠

يوم الجمعة ١٦ ابريل ١٩٤٣

لم أكتب شيئا يوم الثلاثاء أو الاربعاء اذ لم يكن الجو موافقا ٠٠ اعطونى أمس حقيبة ملابس ٠٠ وهذا الصباح فى السابعة جاءوا وأبلغونى بتحديد الساعة التاسعة ٠٠ والدى المحبوبين أرجو أن تسـامحانى وأخشى أن تكون هذه ساعة عصـيبة لكمـا ويجب أن أعترف أن الامل كان لا يزال يراودنى ٠٠ وانا فى منتهى الهدوء ولكن الموت أصبح قريبا وما زال عندى

الكثير لاقوله لكم ، سأقف أمام الله وانا كلى ثقة وايمان فانى أؤمن به وانا اعتقد بحياة الروح وذلك لان قلبى يحدثنى بانى سأستمر فىالاتصال بكم وبكل ماهو نبيل وعظيم ٠٠

لقد فعلت ماكنت انه من واجبى أن أقوم به ٠ وتمت به وانا منشرح القلب ٠٠ انها الحرب ـ وقد سقطت ـ كما سقط آخرون ٠٠ وكما سيسقط كثيرون غيرهم ٠٠ لقد رأيت الكثيرين منهم فى المارن يقبرون فى صفوف طويلة ٠٠ والآن جاء دورى ٠٠ ان دقائقى الاخيرة على الارض تمر سراعا ٠٠

آه يا والدى المعبودين كم أشعر نحوكما فى هذه اللحظة ٠٠ لقد تألمتما كثيرا وقاسيتما كثيرا ٠٠ والآن تحل بكما هذه الكارثة ! ولكن تذكروا ان الدنيا فانية وكل شيء فيها من حياة وحركة الى زوال ، انى أحبكما وأحبكما جدا وأرجو أن تصفحا عن كل اساءة منى اليكما ٠٠ تذكرانى فقط كطفل مات سعيدا بفضل حبنا ٠٠

وأستطيع أن أؤكد لكما أننى لم أخن أحدا ولم أكن أبدا جبانا فانهم الآخرين من أجل ان ابرىء نفسى ٠٠ وعندما تنزل الستار عند انتهاء هذا الفصل استطيع أن انحنى وانا نظيف اليدين ٠٠

وبعد ان كتب رسائل وداع لاصدقائه وأقاربه ورجاء بان يدفن فى مقبرة فوفير كتب أوليفر بضعة كلمات فقال «جاءنى القسيس الآنوصلينا معا (ابانا الذى فى السموات) لم أقلها ابدا بمثل ماقلتها اليوم ٠٠

ان فرنسا ستحيا ٠٠ ان الرجال جبناء وخونة وفاسدون أما فرنسا فنقيه طاهرة وحيه ٠٠

انى سعيد باننى لا أموت من أجل جماعة أو من أجل رجل بل أموت من أجل عقيدتى بأنى أخدم فرنسا وطنى ٠ ومن أجلكما أيضا أنتما اللذين أحترمكما وأقدسكما ٠ وانى سعيد بحبكما ان باب الزنزانة يفتح فالوداع أعانقكما ٠

أوليفر

وعرف ميشيل بمصير أوليفر عن طريق والديه ، ثم علم بعد ذلك بالقصة الكاملة ٠٠ التى لم ينته فصلها الاخير الا بعد الحرب ٠٠ وهـذا ما حصل ٠٠

فى ربيع ١٩٤٢ بينما كان أوليفر يشتغل رسولا لميشيل تعـرف بشاب يدعى كارنيه كان يعيش فى مورتو بالقرب من الحدود السويسرية واعتقادا منه بان كارنيه قد يكون مفيدا له وثق فيه وقدمه الى والديه ٠٠

وبعد القبض على أوليفر فى ديجون بقليل ، قبض أيضا على كارنيه بينما كان يحاول أختراق الحدود ٠٠ ثم عرض عليه وقتها أن تعطى له حريته لو وافق على العمل مع الالمان ٠٠ فوى نفس الوقت هددوه بانه اذا رفض فان أمه ستعتقل أيضا ٠

وتحت هذا التهديد المزدوج قبل العرض ، وبدأ حيـاته الجـديدة ، بالادلاء باتهامات جديدة ضد أوليفر ٠٠ وكان من نتيجة ذلك أن نقل أوليفر أولا من ديجون الى فريسنيس ثم من فريسنيس الى انجيرز ٠٠ وان استجوابه بواسطة الجستابو بدأ مرة أخرى من جديد ٠٠

وعرف الالمان ، الذين صدقوا قصته من انه كان مجرد مهرب يعمل من أجل الحصول على المال فقط ، عرفوا قدرا كبيرا من المعلومات من بينها أن أوليفر كان على اتصال بالحلفاء ٠٠

وكان عضو الشبكة الوحيد المعروف له هو ميشيل ٠٠ أما عدم القبض عليه فيؤكد الحقيقة أن أوليفر لم يشى باحـد ٠٠ وكان مثل آخرين مثله وبعده كان أمينا حتى الموت ٠٠

ولم يكن هناك شيئا شاذا فى أوليفر جيران فقد كان شابا عاديا يفيض بحب الشباب للحياة والمغامرة ٠ ولكن واحـدا فقط من الآلاف من بنى وطنه هم الذين ماتوا بهذه الكيفية ومن أجل هذه القضية ٠٠ وربمـــا لا يكونون قد أدوا مساعدات ضخمة من أجل تحقيق النصر للحلفـاء ، ولكنهم فعلوا من أجل فرنسا شيئا أكثر أهميـــة ــ فأنهـم ببطولتهـم وتضحيتهم قد انقذوا شرفها وحفظوا لها مكانتها اللائقة بين الامم ٠٠ ولهذا كله فان الرجال الاحرار جديرون بالشكر والثناء ٠

وكأن كارنيه لم يقنع بارسال أوليفر الى الموت ، فاتهم والده أيضا وكان من نتيجة ذلك أن قبض عليه مرة أخرى بعد الافراج عنه ٠

والمسيو جيرار وهو بروتستنتى متدين ومؤرخ كان قد كتب خطابا مفتوحا الى المارشال بيتان محتجا ضد مصافحته باليد مع هتلر باسم الشعب الفرنسى عندما تقابلا فى مونتوار سنة ١٩٤٠ ٠٠ فكان ذلك بالاقتران مع جهود ابنه الموالية للحلفاء ، كافيا لادانته فصار ترحيله واعدامه فى بوشنوالد سنة ١٩٤٤ ٠

كثيرا ما يحدث ، عندما يتحول الرجل فيصبح خائنا ، أن يعمل بجهد أكثر من أجل الحصول على المال ٠٠ ولعله يشعر أنه بعد أن خسر شرفه ، فلم يبق عنده شيء آخر ليخسره ، ولذلك فانه يجدر به أن يصيب أكبر قدر من النجاح مقابل خيانته ٠

كانت هذه هى حالة كارنيه ، فانه بعد أن كسب ثقة الالمان وسع نطاق مجهوداته الى سويسرا ٠٠ فتظاهر بأنه أحد (المقاومين) بحثا وراء رجال فرنسيين آخرين ممن كانوا قد عبروا الحدود سرا وأغراهم بالعودة ثانيا الى فرنسا حيث سلمهم هناك للسلطات الالمانية ٠

وحامت الشكوك حول كارنيه لدى السلطات السويسريه فاعتقلته وعذبوه بدون رحمة فاعترف اعترافا كاملا شمل خيانته لاوليفر ٠ وحكم عليه بالاعدام فى سنة ١٩٤٥ وبينما كان يقف معصوب العينين أمام هيئه التنفيذ وصل رسول بالموتوسيكل يحمل أمرا بوقف التنفيذ ٠٠ وكان الجيش الالمانى قد استسلم فى هذا الصباح ، ومع وقف الاعمال الحربية لم تكن عقوبة الاعدام ، طبقا للقانون السويسرى ، مصرحا بها ٠٠ وعدل حكم الاعدام على كارنيه بالسجن المؤبد ، ومازال يقضى مدة الحكم لغاية الآن فى سجن سويسرا ٠٠

وبينما كان مصير أوليفر معلقا فى الميزان ، كان مشيل نفسه فى حالة من الاضطراب لعدة أسباب مختلفة ٠٠ فكما رأينا أنه فى ناحية عمله العادى ، كان دائما يرفض أى تعامل مع العدو وبالرغم من أنه كان يستطيع أن يبيع كثيرا من ماكينات الغاز للالمان ، كان دائما يرفض طلباتهم أو يبدى بعض الاعذار ٠

وأخيرا فى ربيع سنة ١٩٤٢ جاء الى مكتبه ضابطان ومعهما أمر قاطع ويقضى هذا الامر بأن جميع ماكينات الغاز التى يتسلمها الفرع من الآن فصاعدا من المصنع فى ديجون يصير تسليمها الى سلطة الاحتلال ٠

وسلم ميشيل الامر ولكنه لم يعمل على تنفيذه ٠٠ وبدلا من ذلك اتخذ الترتيبات لكى تسلم الماكينات مباشرة الى العميل بعد أن كانت تصل عادة الى محلاته فى باريس ٠٠ واستمر هذا الاجراء بضعة أسابيع ، وفى أحد الايام تلقى دعوة للمثول أمام القاضى الالمانى فى باريس ٠٠ ولكنه لم يحضر الادعاء المقام ضده ، وحكم عليه غيابيا بالسجن لمدة ستة شهور فى قلقه هوت فيل بديجون ٠ واعطى له مدة ١٤ يوما لتنفيذ الحكم ٠٠

ووقع ميشيل فى ورطه ، فاذا رفض أطاعة الامر فانه يضع نفسه كخارج على القانون ٠٠ وقد يوقعون به عقابا أشد كما وقد يتعذر عليه بعد ذلك أن يواصل اعماله ٠٠ ومن ناحية أخرى اذا نفذ عقوبة السجن فقد يتركه الالمان وحيدا فيما بعد ٠ وقد أشار عليه كثير من اصدقائه الذين استشارهم باتباع هذه الخطة ميشيل نفسه لم يكن مستقرا ومن أجل من يتخذ قرارا صمم على أن يزور السجن أولا ٠٠

كانت قلعة هوت فيل عبارة عن قلعة قديمة ثم تحولت الى سجن وهى محاطة بخندق مائى خال وجدار ٠ وكانت تبدو بناء شامخا ، قطعت فى جوانبه الفتحات للسماح لبعض أشعة الضوء بالدخول الى الزنزانات ٠٠ ولم يكن يبدو أن الحراسة شديدة عليه فلم يجد ميشيل مشقة فى الاقتراب منه ٠٠ والواقع ان الشىء الحى الوحيد الذى رآه بجواره عنزة كانت ترعى داخل الخندق ٠٠

وفكر انه قد لايكون من السهل ان يهرب لو أنه قرر أن يقضى مدة الحكم فى السجن ، وقاس ارتفاع الحائط بنظره ، وحسب فرص تسلقه دون مساعدة من أحد ٠٠ ولاحظ وجود كابل كهربائى يدور حول المبنى لاضاءة عدة أضواء كاشفة ولم يكن الكابل بعيدا عن مكان وقوفه ، فوق منحدر عشبى يشرف على الخندق ٠٠ وبدت له الفرصة أفضل بكثير من أن يضيعها ٠٠ وعلى أى حال فان مغامرته قد تكون شيئا يبرر رحلته لغاية هذا المكان ٠٠ فانبطح على بطنه الى الامام الى أن تمكن من الدخول الى الكابل ٠٠ ثم أخرج سكينه واستطاع أن يقطع السلك النحاسى ٠٠ وبعد ذلك شعر بانه أصبح أقل ميلا للذهاب الى البوابه والحصول على أذن بالدخول ٠٠ وعاد الى باريس دون يبت برأى بعد ، وفى تلك الليلة ذهب

الى عائلة جيران نيسمع آخر الانباء عن أوليفر ٠٠ وكانوا قد عادوا لتوهم من ديجون حيثحاولوا أن يقابلوه فيالسجن ، ولكنهم حجزوا هم أنفسهم واستجوبوا بواسطة الجستابو ٠٠ ومن بين ماسئل عنه المسيو جيران سبب وجود وثائق مع ابنه تدل على أنه كان متجولا تبع شركة «الجازوجين» وأجاب بانه لايشك أن الذى حصل له على هذه الاوراق هو صاحب العمل الذى يستخدمه وهو المسيو هولارد وهو رجل اعمال واسع الشهرة ٠٠ وعند ذكر اسم ميشيل هولارد بدا على وجه رجل البوليس انه يعرف عنه كل شيء ٠٠

كان هذا كافيا لكى يقرر ميشيل رأيا فقد أدرك انه لو سلم نفسه فانه سيسأل دون شك عن علاقته بأوليفر وهذه مع اقترانها بتهمه « عدم التعاون» ستزيد من الاشتباه فيه فلم يكن أمامه الا شيء واحد هو : الاختفاء ٠٠

ومرت بضعة أيام أخرى قبل انتهاء مهلة الاسبوعين ، ولكنه كان يدرك أنه موضوع تحت المراقبة ٠٠ وقد اكتشف عدة مرات أن تحريات أجريت عنه فى بعض المقاهى ، أو أماكن المواعيد الاخرى التى يكون قد غادرها لتوه ٠٠ و تجنب أن ينام بمنزله ولم يكن يتردد عليه أو على مكتبه الا فى الاوقات المأمونة ٠٠ ولرجال البوليس الالمان تقاليد نظامية فهم قلما يقبضون على رجل فى وقت تناول الطعام أو بعد مواعيد العمل الرسمية الا اذا كانت فى الصباح الباكر ٠٠

وبعد يومين أو ثلاثة من عودته من ديجون ، توجه ضابطان ألمانيان الى مسكنه ، كانت الساعة الثانية عشر صباحا وكانت زوجته بمفردها ولكنها لم تدهش لانها بالرغم من انها لم تكن تعرف شيئا عن الامر ولم يسبق أن تناقشا فيه ، الا انها كانت تعلم منذ وقت مضى أن ميشيل كان يقوم بنشاط سرى ٠٠

وتظاهرت بعدم الاكتراث وأنها وزوجها على غير وفاق ، وانها قلما تراه وليس لديها أى فكرة عن مكان وجوده ٠٠ على أنه من حين لآخر يرسل لها بطاقة بريد ، فاذا فعل ذلك مرة أخرى فانها ستخطرهم بذلك

وبدأ ذلك مرضيا للزائرين اللذين شكراها على «تعاونها» وانصرفا ٠ وبمجرد خروجهما أسرعت مدام هولارد الى أقرب مقهى واتصلت بمكتب

ميشيل تلفونيا لابلاغه أن يتصل بها في المكان المعتاد ٠٠ وكان هذاعبارة عن مقهى آخر اعتادا أن يستعملاه للاتصال التليفوني ٠٠ وعندئذ اتصل ميشيل من خارج مكتبه فأبلغته بتفاصيل ماحدث بالمنزل ٠٠

وتقرر أن يغادر باريس فورا بعد أن أبدى انه يريد الاستقالة من العمل ٠٠ وفي نفس الليلة أخذ القطار الى تولوز ٠٠ ومن هناك أرسل بطاقة بريد الى مدام هولارد وأبلغها انه ينوى الاقامة في تلك المنطقة وقد عرضت هذه البطاقة على الجستابو الذين كرروا لها مرة أخرى شكرهم على «مساعدتها» القيمة ٠٠

وفي نفس الوقت كتب ميشيل خطابا الى سكرتيرته وكان يقصد أن هذا الخطاب سيضبط ويعيد معرفة محتوياته ، وطلب اليها فيه أن تقفل المكتب بعد تسوية جميع الحسابات ٠٠ أما ما لم يرد في الخطاب — وهو ماسبق أن رتبه معها شفويا — فهو أن تتوجه مباشرة الى المكاتب الجديدة وتعيد مباشرة الاعمال تحت اسم مختلف ٠٠

وبعد غياب اسبوع عاد ميشيل الى باريس ، وفي أوائل أغسطس كان قد استقر في المبنى الجديد (٤٣ شارع بوبورج) واشتغل في تجارته تحت اسم جديد (المكتب الفني للجازوجين بفرنسا) ٠٠ وفي الواقع فهو لم يذهب الى هذا المكتب الا فيما ندر ، تاركا ادارة العمل كلية لسكرتيرته

وكان يبدو انه قد تخلص من المطاردة ، ولكنه كان لايزال قلقا من ناحية عائلته ٠٠ وفي شهر سبتمبر نقلها الى بنسيون ، وبعد ذلك بشهور قلائل عثر على منزل أكثر استقرار في الضواحي ، حيث بفضل تفاهمه مع عمدة الناحية أصبحوا مطمئنين الى عدم كشف أمرهم ، على أنه منذ ذلك الوقت كان هو نفسه قد صار في مهب الريح ٠

٧

مرور غير مشروع

بعد القبض على أوليفر جيران ، استأنف ميشيل القيـام بنفسه بدور الرسول ــ ولم يكن شديد الاسف على قيامه بهذا العمل ٠٠ كان قد فقد الاتصال الدورى مع (ب) كما يتيح له هذا العمل أن يستروح هواء الحرية ولو فترة كل حين ويسمع أنباء العالم من خارج السجن الذى تتحول اليه فرنسا بخطى سريعة ٠

وفى خلال فصلى الصيف والخريف أخذ يقوم بترتيبات مغادرته فرنسا وعودته اليها دون عقبات خطيرة ٠٠ كانت العقبتـان الدقيقتـان هما خط حدود (المنطقة الحمراء) وقربها المباشر من الحدود ، ولكل منهما أعد تكتيكا متقـدما ٠

كان عندما يصل من ديجون الى هويس كوزى ، ودائما فى وقت متفق عليه من قبل ، يكون المسيو فرينيون فى الانتظار ، فاذا كان الالمان قريبين من المكان فانه يبدى اشارة تحذير متفق عليها ٠٠ وفى رحلة العودة كان يتجه بدراجته مباشرة الى منزل حارس الهويس ــ وهذا باعتباره داخـل المنطقة كان يمكن الاقتراب منه علانية ٠

ومن نوافذ هذا المنزل كان يمكن رؤية جنود المراقبة الالمان ٠٠ فـاذا اقترب أحدهم كثيرا ، كانوا يقومون بحركة تصرف اهتمامه ناحية أخـرى اذ كانت مدام فرينيون فى هذه الحالـة تخطر خـارج المنزل وتشـتبك مع الجندى فى حديث ومناورة الى أن يعطى ظهره للمنزل وينصرف ٠٠ وعندئذ كان ميشيل يزوغ من المنزل ويمر عبر الحاجز ثم يختفى فى ظلام الغسق٠

وفيما يختص بالحدود كان يتصل دائما تليفونيا مع كونو فى اليـوم السابق لكى يخبره بالوقت الذى يصل فيه « لـكى يأخـذ حمولة الفحم »

وعندئذ كان كونو يخرج مباشرة فاذا كان الوادى نظيفا من الالمان فانه يفتح احدى نوافذ المزرعة ·· أما فى رحلة العودة فان علامة الامان هى باب المخزن المفتوح ·

وهكذا كان كل شىء يسير على ما يرام الى أن حل الشتاء ·· وفى أحد الايام وصل ميشيل الى (خلف الجبل) فوجد الثلوج تغطى الارض ·· فرأى أن ينتظر هبوط الليل حينما تكون اثار قدميه أقل وضوحاً ·· وقام بعد الظلام وسار فى طريقه المعتاد الى أن وصل الى طرف الغابة ·· وكان الوادى من تحته يعكس أضواء النجوم ، فكان يجعل كل هدف أسود أكثر بروزا ووضوحا ·· والاسوأ من ذلك أن الثلوج انقطعت عن النزول فبقيت مواقع الاقدام واضحة لو مرت داورية المانية · وفى هذه الحالة فانه يتعرض للخطر من كمين أثناء رحلة عودته ·

وبينما كان يتأمل فيما يفعله ، لاحظ أن هناك اسلاكا شائكة تمتد الى اليمين عبر الوادى ·· كانت تبدأ من نقطة بالقرب من مكان وقوفه جنوبا الى المجرى ثم صاعدة على المنحدر فى الجانب الآخر وتنتهى عند النقطة التى تبدأ منها الغابة ثانيا ·· وقد أوحى له هذا بفكرة ·

وضع قدمه على خط الاسلاك السفلى ومسك جيدا بالخط الاعلى وأخذ يسير وهو على هذا الوضع على امتداد السياج وكل من حاول هذه الحركة يدرك أنها متعبة للغاية حتى فى أفضل الاوقات وبالحرى كانت فى ظروف ميشيل أكثر مشقة وارهاقا ·· وعندما كانت خروشة الاسلاك التى يسير عليها تعكر هدوء الليل وسكونه كان يشعر بالرهبة والانزعاج خوفا من أن ينكشف شبحه الاسود فوق الارضية المضيئة البيضاء ·

وكم من مرة وهو يهز أو يشبك فى السلك الشائك ، أو يجاهد الاحتفاظ بتوازنه ، فكر فى أن يترك هذه المحاولة الشاقة ولكنه كان يقتنع نفسه بضرورة الاحتمال الى أن استطاع أن يصل بأمان الى طرف الغابة ·

وقد صمم على أن لا يكرر هذه التجربة ·· وفى المرة التالية حاول أن يلبس الحذاء معكوسا مؤخرته فى المقدمة ، كما فعل هذه التجربة بالحذاء الخاص بالسير على الثلج ·· ولكن علاوة على ما فى هذه المحاولة من مشقة

وعدم راحة فانها كانت لا تخلو من خطورة ، صحيح أنها يمكن أن تضلل العدو بشأن الاتجاه الذى اتخذه ولكنها لا تستطيع أن تخفى اثار خطواته فى اتجاه الحدود ٠

وفكر فى ضرورة اتخاذ طريق آخر جنوبى خط الثلوج وبعـد بحث دقيق لمختلف جهات المنطقة اختار اتجاهين ٠٠ كان أولهما جيدا للغابة ويقع فى الشمال فى مكان يدعى فيلارز ليبلامونت ٠٠ وكانت هذه قرية صغيرة تقع على الطريق الرئيسى بين بونت دى روند فى فرنسا وبين بورنتـورى فى سويسرا ٠٠ وهنا اكتشف ميشيل شريكين هامين يعملان معه هما أميل ماتيور وزوجته جنفياف ٠

كان أميل يبلغ الخامسة والثلاثين قصير القامة ، وثرثارا وكان قد خدم مدة الحرب فى وحدة « الزواف » واصبح الان يعمل فى مصنع للعدد والالات يقع على بعد عشرة أميال كانت جنيفاف أصغر من زوجها بعشرة سنوات شقراء ، عيونها زرقاء تبدو دائما فى ملابس أنيقة وكانت تربى الدواجن وتزرع الخضروات فى حديقة المسكن ٠

وكان مسكنها عبارة عن بنجالو (كشك) مكون من غرفتين يشرف على الطريق الرئيسى ، ترتفع الارض من خلفه بلطف الى سهل منبسط ، تقع الغابة من خلفه ٠٠ وكانت نهاية الغابة هى خط الحدود ٠٠ وكانت تبعد قرابة أربعمائة ياردة ٠

ولدى وصول ميشيل الى هذا الكشك ، كانت جفياف تخرج لترعى عنزتها عند حافة الغابة ٠٠ وعندما تصل الى أعلى نقطة فيها تتطلع حولها فاحصة ، ثم تدور وتحول وجهها نحو الكشك ٠٠ وكانت هذه هى الاشارة لميشيل بالرحيل ٠

فى منتصف الطريق الى الغابة كانت توجد كومة من آغصان الاشجار٠ كان يختبىء عندها انتظارا لاشارة أخرى ٠٠ وكانت الاشارة الثانية عبارة عن منديل أحمر تسقطه جنيفاف على الارض اذا كانت ترى أن الساحل لا يزال نظيفا ٠٠ وعندئذ يتقدم الى أن يستتر فى ظلال الغابة حيث يصبح آمنا على الارض السويسرية ٠٠ وفى رحلة العودة التى تكون دائما فى وقت

متفق عليه من قبل ، يكون الاجراء عكسيا ٠٠ فيما عدا أنه كان يتجنب المرور بالكشك ٠٠ وكان ذلك بقصد عدم تعريض عائلة ماتيوت لاى خطر فى حالة ما اذا اكتشف الالمان أمره ٠

وبخلاف مساعدة عائلة ماثيوت ٠٠ كان لهذا الطريق ميزة أخرى هى أنه كان قريبا للغابة من قرية جلاى حيث كان لميشيل ابن فى مدرستها ٠٠ وهذا فى حد ذاته يمكن أن يعتبر دائما عذرا مقبولا يبرر وجوده فى هذه المنطقة ٠

أما الطريق الاخر ، وكان كثيرا ما يستخدمه ، فكان يتقابل مع خط الحدود عند نقطة جنوبى بحيرة جنيف وعلى بعد عشرة أميال من جنيف ذاتها ، بين ماشيلى بفرنسا و جوسى بسويسرا ٠٠ وهو طريق جانبى قليل الاستعمال يربط قريتين صغيرتين ، وكانت كل هذه المنطقة كثيفة الاشجار ٠

وكان ذلك يجعل الاقتراب من الحدود مأمونا نسبيا ولكن عبورها الفعلى لم يكن سهلا ، اذ كانت تعترض ذلك أسلاك شائكة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام وعرضها ستة . وخلف هذه العقبة كان يوجد مجرى مائى هو عبارة عن الحدود الفاصلة ٠

كان ميشيل فى كل سفرياته يرتدى ملابس الفلاحين سترة من الكانفا الازرق ، وبنطلون بنى من قماش قطنى مضلع وبيريه ، وكان يحمل معه فأسا وجاروفا وعلى ظهره زكيبة فيها بطاطس يضع تحته بعض الوثائق ٠٠ حتى اذا ما صادف داورية ، ظنته فلاحا أو رجل غابة يقوم بعمله المشروع٠

وللوصول الى طريق ما شيلى ـ جوسى كان يأخذ القطار من أنيسى وينزل فى محطة لاروش فورون حيث كان يقضى فترة انتظار لمدة ١٥دقيقة فكان يجد فسحة من الوقت للذهاب الى البوفيه وأخذ طرد ، اعتاد أن يتركه هناك بصفة مستديمة ٠٠ كان يحتوى ، علاوة على ملابس الفلاحين ، ملابس تنكرية لعامل فى السكة الحديد بكل اجزائها ومعداتها ٠

وبمجرد أن يقوم القطار كان يقفل على نفسه فى دورة المياه ، لكى يخرج بعد دقائق فى شكل أصيل لملاحظ الخط الحديدى فكان يضع فوق ملابس المدنية الجاكتة الزرقاء والبنطلون المضلع وهو اللبس الشائع بين

العمال فى فرنسا ·· وفوق هذا أيضا ملابس رجال السكة الحديد ·· وتحفظ زكيبة البطاطس والبريه فى هذه الحالة فى مخزن الطرود ·

وعندما يقف القطار عند ماشيلى كان يفتح الباب العكسى أى البعيد عن الرصيف ويقفز على الخط الحديدى ثم يسير الى الخلف على امتداد الخط ، ويتوقف من وقت لآخر كأنما يقوم بالتفتيش عليه ·· وبطبيعة الحال لا يستلفت منظره اهتمام أى أحد ·· وبعد أن يسير حوالى خمسماية ياردة يصل الى مستودع حيث يستبدل مظهره ويأخذ مهمات رجل الغابة ··· ويرتدى ملابس الفلاحين ويسير فى اتجاه الحقول وبعد أن يسير عشردقائق يصل الى مزرعة يملكها المسيو باكو وكان صديقه ·· وكان يعلم منه ما اذا كان الالمان موجودين فى الأماكن المجاورة .. فعندما يكون الطريق نظيفا يعبر حقلين آخرين ثم يدخل الغابة وبعدها يصل الى الحدود ·

وبمجرد الوصول الى الاراضى السويسرية يتجه مباشرة الى أقرب مكتب للجمارك حيث ، بالاتفاق مع المخابرات الحربية السويسرية ، اصبحوا يعتبرونه الان زائرا مقبولا ·· وهناك ينزع عنه ملابس الفلاحين ويضع فأسه وزكيبته فى دولاب خاص به ·· وبعد ذلك بقليل يكون فى طريقه الى المحطة كأى رجل أعمال آخر ·

فى خلال ثلاث سنوات عبر ميشيل الحدود ٤٩ مرة فى كل من الاتجاهين دون أن يمسك ·· لم يخلف ميعاده اطلاقا فى سويسرا ·· ولم يتأخر أكثر من يوم وهذه الدقة فى تنفيذ عمله كانت ترجع الى المجهود الدقيق والعناية بوضع خطته ثم الى المعونة التى كان يلقاها فى كل من جانبى الحدود وبصفة خاصة كان اخلاص مواطنيه ــ الفلاحون الاوفياء الذين منحوه الوقاية والالتجاء اليهم ومهدوا له الطريق من أهم اسباب ضمان سلامته··

ولكن بالرغم من أنه لم يمسك اطلاقا فى الواقع الا أنه تعرض لازمات هروب عديدة ·· ومن هذه ما حدث له بطريق ماشيلى ــ جوسى فى أواخر ١٩٤١ أى قبل أن يصبح معروفا لحارس الحدود السويسرى فى تلك المنطقة ·

بعد أن قام بالاجراء الروتينى العادى ، وقام بعملية تغيير شكله المزدوج وتلقى اشارة « نظافة الطريق » من المسيو (باكو) ، واخذ يعالج عقبة الاسلال الشائكة ، وفجأة شعر بان ركبته قد أمسكت ولم يستطع

تحريكها ٠٠ اذ هجم عليه كلب بوليسى المانى ، دون أن يراه أو يسمعه وحاول ميشيل تخليص نفسه دون جدوى فقد كانت قوة الحيوان هائلة ٠٠ لم يكن يعض بل كان يمسك فقط ولكنها مسكة أشبه بمسكة الكماشة ٠

لم يكن ميشيل مسلحا اذ كان قد القى بفأسه وزكيبته وراء الاسلاك ٠ وأخذ يتطلع يائسا بحثا عن سلاح ٠٠ فلاحظ على الارض وعلى مقربة منه فرع شجرة مكسور مدبب من أحد طرفيه ، فالتقطه ودفعه بين فكى الكلب بكل قوته الى أن انغرزت العصا بعمق فى حلق الكلب الذى ظل مع ذلك متشبثا ٠٠ ولكن ميشيل ظل يضغط بالعصا ويغرزها داخل فمه الى أن أوشكت قبضت يده تصل الى فمه ٠٠ وفجأة تهاونت عضة الكلب وأخذ الحيوان السىء الحظ يترنح الى أن سقط ميتا ٠٠ وبخلاف الاسلاك الشائكة زحف ميشيل لاجتياز العقبات وعندما هبط فى الجانب الآخر قفز جندى سويسرى من حراس الحدود من خلف شجرة وبندقيته على كتفه ولكنها لم تكن مصوبة الى ميشيل وصاح الجندى بألفاظ المانية ونظر ميشيل حوله فرأى جنديين المانيين يصوبان بنادقهما اليه من الجانب الآخر ٠٠ ولكنهما بناء على طلب السويسرى أنزلا بنادقهما وقفز ميشيل المجرى وانتقل الى الارض السويسرية ٠٠ وبعد مناقشة بين الطرفين انسحب الالمانيان متذمرين ، وتوجه ميشيل بالشكر الى منقذه السويسرى ٠

ولكن الجندى قاطعه قائلا « ولكنى لم أكن أحاول انقاذك ٠٠ فان الجنود الالمان بتصويب بنادقهما فى هذا الاتجاه انما ينتهكون التربة السويسرية ، وهذا محظور بمقتضى القانون الدولى ، ورأيت من واجبى أن أمنعهم » ٠

حقا ما أشجع هذه الامة الصغيرة من رجال الفنادق ! اعتاد الناس أن يضحكوا منهم ولكن هتلر فهمهم بشكل جدى ، وكم من حياة أنقذت نتيجة لرفضهم بصلابة أن يتنازلوا قيد شعرة عن حقوقهم كمحايدين مستعدين أن يدافعوا عن حياتهم ٠

وقال الجندى لميشيل انه الان معتقل ويجب أن يتبعه الى مركز البوليس وهناك بعد أن عولجت جروحه طلب اليه أن يعود من الطريق الذى جاء منها ٠ ولكن بعد أن كشف لهم عن شخصيته وصار الاتصال مع المخابرات الحربية السويسرية سمحوا له بمواصلة رحلته ٠

وبعد هذا الحادث أنشأ الالمان حاجزا ثانيا يمتد خلف الاول مباشرة ، ويتكون من أسلاك شائكة يبلغ ارتفاعها ثمانية أقدام ، وأجريت تطهيرات في الغابة حتى يمكن أن تبقى الاسلاك تحت المراقبة بصفة مستمرة ‥ وكان ميشيل عادة يتسلق هذه العقبة بعد أن يرمى بزكيبته ومعداته من فوقها ٠

وفى مناسبتين كان يرافقه سيدات ، وكان التسلق بالنسبة لهن متعذرا ‥ كانت الاولى والدته التى كان يوصلها الى سويسرا من أجل سلامتها ‥ فقطع ميشيل ثغرة فى السياج وبعد أن مرت مدام هولارد أعاد توصيل اسلاك السياج ٠

وبعد اسابيع قليلة كان يرافق سيدة وابنها ‥ وما أن انتهى من قطع آخر سلك حتى ظهرت داورية المانية ‥ فأشار الى رفاقه بأن ينبطحوا على الارض وأمسك هو فأسه وأخذ يتظاهر بأنه يقطع الاشجار ، وظل يضرب فى شجرته الى أن سقطت على الارض أثناء مرور الداورية الالمانية ‥ ونظر اليه الجنديان باحترام وتبادلا كلمات قليلة ثم ابتسما له وسارا فى طريقهما دون أن ينظرا الى اسلاك السياج المقطوعة والهابطة على الارض ‥ وبعد دقائق قليلة كانت الام وابنها واقفان على الارض المحايدة ٠

وعادة عندما كان يقابل مصادفة سيئة فانما كان ينسب ذلك الى مخالفته للقواعد التى وضعها ‥ ومن هذه القواعد عدم اجراء أى محاولة اطلاقا خلال الليل وقاعدة أخرى تقضى بعدم المخاطرة عند سقوط الثلج ‥ وقد وضع هذه القواعد بعد عدة تجارب قاسية ٠

واستخدم طريقا آخر فقد غادر سانت كلود التى تقع شمال غرب جنيف بقصد عبور الحدود عند كومب فاوج على بعد ٢٥ ميلا ‥ وبعد أن قطع ١٥ ميلا منها وصل عند الغروب الى مزرعة أحد أصدقائه حيث كان يقضى الليل غالبا ٠

كان ذلك فى عز الشتاء والسماء ملبدة بالغيوم ‥ بهطول الامطار والثلوج ومع ذلك فقد قرر أن يقوم برحلته ‥ كان لا يزال أمامه عشرة أميال يقطعها على قدميه معظمها خلال الغابات ‥ وقبل أن يسير طويلا كانت الثلوج قد بدأت فعلا فى السقوط فغطت الطريق ، حتى لم يعد فى امكانه أن يتبين ما اذا كان يسير على الدرب الصحيح أم لا ٠

وظل ثلاث ساعات يكافح فى السير احيانا يتعثر فى حفرة أو يصطدم بشجرة وكان يتبين معالم الطريق بغريزته مما يسترشد بأى معالم أخرى ٠ واخيرا كان عليه أن يقر بأنه ضل الطريق ، لانه لو كان يسير فى الطريق الصحيح لكان قد اقترب من الحدود ، ولكنه وجد نفسه محاطا بالاشجار التى لا ترشده الى شيء ٠٠ وكان من المحتمل ، بقدر ما يمكن أن يستنتج ، أنه انما كان يسير حول دائرة ٠

وعند ذلك انخفضت الرؤية الى لا شيء وكان يتلمس طريقه من شجرة الى أخرى ٠٠ وكان يتملكه شعور السجين بواسطة قوة غير ملموسة كانت تحيط به من كل جانب ٠٠ ولكى يسيطر على حالة الذعر التى أخذت تسيطر على نفسه ، توقف واسند ظهره الى شجرة واخذ يتأمل موقفه ٠٠ بروية

لم يجد أمامه الا سبيلين : احدهما أن يظل فى مكانه الى أن يبزغ ضوء النهار والثانى أن يواصل محاولاته فاذا اختار الاول ـ ولم يتجمد جسده حتى الموت ـ فقد يجد نفسه فى الفجر أمام احدى الداوريات ٠٠ وبكيفية أو بأخرى عليه أن يجد مخرجا ٠٠ فقرر أن يواصل السير وعلم شجرته بهضبة من الثلج بجوارها وبدأ طريقه فى اتجاه على زوايا قائمة بالنسبة للجهة التى جاء منها وعندما عد الف خطوة توقف ٠٠ لم يتغير شيء ٠٠ ما زال الصمت يسود كل أرجاء المنطقة من حوله ٠

وكان يتبين مواقع قدميه باشعال عود من الثقاب من وقت لآخر ٠٠ وبعد أن عاد الى النقطة التى بدأ منها تحول ٩٠ درجة وشرع مرة أخرى ٠٠ وبعد الف خطوة أخرى كان كل شيء على ما هو عليه ٠

وغير اتجاهه مرة أخرى وشرع فى تجربته الثالثة والاخيرة وأخذ بعد الالف ٠٠ وما أن انتهى من عدها حتى اصطدمت ركبته بعقبة وتحسس ميشيل بيديه ما اصطدم به ٠ فاحس جسما ناعما لا يمكن أن يكون شجرة فأشعل عود ثقاب فوجد أنه لوحة وشيء مرسوم على سطحها وتبين أنها علامة الاتحاد السويسرى !

وكعادته دائما كلما نجا من خطر ، ركع ميشيل على ركبتيه ورفع صلاة شكر حارة لله سبحانه وتعالى على نجاته ونجاة عائلته .

وبعد ذلك ببضعة شهور قام بعملية هروب أخرى فيحالة أشد خطورة كان قد أنهى أعماله فى سويسرا وفى المساء وجد نفسه فى نيون على بحيرة جنيف ٠٠ ولو أنه كان ينفذ ما وضع لنفسه من تعليمات لـكان عليـه أن يقضى الليل بها .. كان الوقت صيفا ، والجو جميلا ، وكان لا يزال أمامه بضع ساعات من ضوء النهار ٠٠ فقرر أن يسافر فورا وان يصل الى الحدود عند لا ريب حيث يستطيع من هناك أن يصل الى سانت كلود بعد أن يسير عشرين ميلا ٠

ومن نيون ركب القطار الى سفح الجبل ٠٠ وكان القطار عادة يواصل سيره الى ريفون ، فى فرنسا ، ولكن منذ نشوب الحرب لم يكن يذهب الى أبعد من جراسييه آخر قرية سويسرية قبل الحدود ٠٠ ومنها الى (لا ريب) بضعة أميال قليلة فقط ٠٠ ـ كانت الساعة السابعة ونصف عندما نزل مبشيل من القطار ٠٠ وكان قد رأى من النوافذ المفتوحة جماعات عائليـة تجلس الى الموائد فحسدهم على ما ينعمون به من أمن ورفاهية ٠٠ حتى أدنى المساكن كانت تنعم بجو من السعـادة ، فى الوان زاهيـة ، تزينهـا احواض الزهور فكانت أقرب الى الفيللا منها الى الاكواخ ٠

وسرعان ما تجاوز القرية واخذ يسير فى الطريق العام ٠٠ فمر بقرية أخرى فى الوقت الذى كانوا يقفلون فيه النوافذ استعدادا لراحة الليل ٠٠ ومرة أخرى غبط ميشيل هؤلاء الناس على حظهم السعيد وقال فى نفسه ما أحلى أن يقضى الانسان الليل داخل بيت يستطيع فيه أن ينعم بالنـوم الهنيء دون خوف من ذلك الكابوس الذى يعكر احلام كل « مقاوم » ٠

وترك القرية خلفه ، وتجنب الطريق العام وأخـذ يخترق الغـابة ٠٠ وكانت أشجار الصنوبر الشامخة من فوقه لا عداد لها تتمايل بلطف مع نسيم المساء ولكن سرعان ما غابت عن نظره فى الظلام وعندما وصل الى ارتفاع حوالى أربعة آلاف قدم توقف ونظر الى الخلف كانت السماء تتوهج بالنجوم ولكن الارض من تحتها كان يشملها الظلام الكثيف ٠٠ ولكن من بعيد كان يرى القرى تنبعث منها أضواء خفيفة على شـاطىء البحـيرة ٠٠ وخلف ذلك كانت هناك منطقة أخرى يعمها الظلام تنتهى باضواء متوهجة حيث كانت أضواء (هيرمانس) على الجانب الآخر من البحيرة تنعكس على صفحة الماء الساكن ٠

كان مشهدا أشبه بعالم الجان جعل ميشيل يهيم فى الخيال ‏.. وبالرغم من الحرب ، والاحتلال واهواله وحالة التوتر الدائمة التى يعيش فيها ، كانت حواسه لا تزال تتذوق مظاهر الجمال ‏.. وفى المرات القليلة التى كان يقف فيها للتأمل ، كان يبدو أن مشاعره قد أصبحت أكثر تأثرا بظروف وحوده الاستثنائية ‏.. وربما كانت حالة عدم توفر الامن له ، نتيجة الحياة فى خوف دائم من القبض عليه ، هو ما جعله يتذوق متعة الجمال بكيفية أكثر حسا ، كشىء قد لا يحظى به مرة أخرى ‏.

واستأنف صعوده متجها الى (لاكومب دى فوج) حيث يوجد (شاليه) كوخ مهجور على بعد حوالى ٨٠٠ يادرة من الحدود يمكن أن يزوده بحاجته للرحلة الاخيرة ‏.. وعندما اقترب منه تقدم فى حذر متوقفا من حين لآخر لكى يستمع ‏.. وعندها سمع نداء جندى المانى يقول (قف) ‏.. فوقف وهو يكاد يموت فزعا وقد كتم أنفاسه ‏.. وتكرر النداء وفى نفس الوقت سمع صوت حركة جندى يستعد ‏.

واحس ميشيل بالحيرة المطبقة ‏.. كان يعلم أنه لا يزال على الارض السويسرية ‏.. ولكن اذا كان هذا جنديا سويسريا فلماذا ينادى بالالمانية؟ وفى هذا الجزء من البلاد يتكلم السويسريون اللغة الفرنسية ‏.

على أى حال كيف استطاع الرجل أن يراه ؟ كان الظلام حالكا تحت الاشجار ، وهو نفسه لا يستطيع أن يرى شيئا ‏.. وخيل له أن داورية المانية ربما تكون قد عبرت الحدود بطريق الخطأ ‏.. ولكنه رأى أن اهماله هو الذى أوقعه فى هذه الورطة فقد كانت القاعدة أن لا يدخل الا بعد أن يكون قد عبر الحدود بأمان ولكنه « عقب » سيجارته لا يزال مشتعلا ‏.. فأخذ ميشيل دبوسا من ياقة سترته وغرس « العقب » فى جزع شجرة ثم انحنى وتحول الى الاتجاه المضاد للاتجاه الذى جاء منه النداء ‏.

وبعد ثوانى قليلة سمع النداء يتكرر مرة أخرى ‏.. ثم مضت فترة قصيرة ثم سمع صوت طلقين نارين ‏.. ولكنهما لم يصيبانه فاستنتج أن حيلته قد نجحت وان الالمان أطلقوا النار على المكان الذى به السيجارة المشتعلة ‏.

وقام بدورة واسعة ، وعبر الحدود من نقطة أخرى واستطاع أن يجد طريقه ، وبعد ساعات قليلة وصل الى محطة سانت كلود ٠٠ وفكر وهو فى القطار الذاهب به الى باريس فى فضل السجاير « البحارى » عليه ، لان السجاير الانجليزية فقط هى التى تستمر تحترق متوهجة ٠٠ ومن حسن حظه أن سجايره لم تكن من نوع آخر ٠

ولكن فى مرة أخرى كانت سيجارة العدو هى سبب نجاته ٠٠ وكان قد بدأ فى رحلته متأخرا وكان قد وصل الى الحدود عند هبوط الليل وعندما اقترب من الاراضى السويسرية وجد نفسه فجأة بالقرب من جنديين المانيين كانا يستريحان مستندين الى جذع شجرة ولحسن حظه أن أحدهما فى هذه اللحظة كان يشعل سيجارته وقد حال ضوء الثقاب دون رؤيتها لميشيل ، فاستطاع أن يواصل طريقه الى مكتب الجمرك السويسرى بأمان ٠

٨

ضوء الشـــعلة

فى الصباح الباكر من يوم ٨ نوفمبر ١٩٤٢ كان ميشيل يجلس فى احدى عربات الدرجة الثالثة فى القطار المسافر من ديجون الى بيزانسون٠٠ وكان قد قضى الليل كعادته فى فندق الليسيه وكان يرتدى سترته الزرقاء وبنطلونه البنى المضلع والبيريه ، وهى الملابس التى يرتديهـا عـادة فى رحلاته الى الحدود . ومعه زكيبة مملوءة الى نصفها بالبطاطس التى تخفى تحتها أوراقا يحملها الى السفارة البريطانية فى بيرن ٠

وكان يوجد معه فى العربة ثلاثة مسافرين آخرين ٠٠ أحدهما رجل سمين فى الاربعين من عمره والآخر رجل متوسط العمر وكلاهما من الطبقة البورجوازية البسيطة واخذوا يتجاذبون الحديث ٠٠ أما المســافر الرابع وكان يجلس قبالة ميشيل فلم يشترك فى الحديث وكان يبدو نائما ٠

كان الحديث يدور فى الغالب عن متاعب الحياة وعن التموين وغـــير ذلك ٠٠ لم يكترث مشيل بالحديث فى بادىء الامر ولكن عندما أخذ يتحول الحديث الى الشئون السياسيــة أخذ يهتم به ٠٠ وكان من الواضـــح أن المتحدثين من «الانهزاميين» وبالرغم من أن هذا قد ضايق ميشيل ، وأحجم بعض الوقت عن التدخل فى الحديث ، الا أنه عندما ذكرت المرأة أنه ليس من المهم من يكون المنتصر فى الحرب ، وأنه ليس هناك وجه للمفاضلة بين الالمان والبريطانيين ، لم يستطيع أن يستمر فى السكوت فقاطعهما قائلا « ان ما تقولينه خطأ بحت ٠٠ ان الفرق بينهما هو الفرق بين الاستعبـاد والحرية ٠٠ وكل فرنسى يفكر غير هذا التفكير يكون اما جاهلا أو خائنا »

كانت الساعة حوالى السادسة صباحا والقطار يكاد يدخل محطـــة بيزانسون ٠٠ وكان عند أول الرصيف (كشك) يستخدمه بوليس السكة

الحديد الالمانى ٠٠ كانت العربة التي بها مشيل في المقدمة فعنـدما مرت أمام الكشك ، قام المسافر الرابع فجأة وفتح الشباك وصاح بالالمانية مناديا « فردريك أحضر هنا ومعك أحد الجنود ! » ٠

وفي الحال أدرك مشيل الذى كان يعرف الالمانية الخطر المحـدق ٠٠ وعندما أبطأ القطار سيره ، قام ليغادر العربة ، وكان الاثنان الآخران قد غادرها ٠٠ وعند ذلك قفز المسافر الرابع أمامه وحاول أن يغلق البـاب ٠

كانت لدى مشيل الفرصة لكي يهرس قدمه فى مدخل الباب ، وتمكن فى المعركة التى تلت هذه الحركة أن يخرج أولا رأسه ثم كتفه ، وبينما كان يحاول أن يحشر باقى جسمه فى فتحة البـاب ، عمد الاجنبى الذى كان يحاول جهده لضغطه بواسطة الباب ، الى انزال ضربة شديدة على رأسه ، فاصابت ميشيل فوق عينيه وآذته بشدة ، ولكن المعتدى وهو يحاول تصويب الضربة اليه كان قد ترك قبضة الباب مما أتاح الفرصة لمشيل لفتح الباب بالقوة ٠٠ وفى نفس الوقت استطاع ان يصوب ضربة شديدة الى بطـن المعتدى القته صريعا ٠

وفى الوقت الذى كان يتلوى فيه الرجل القريب من ألم الضربة قفز مشيل الى ممر بالعربة وفتح أول باب وقفز منه على شريط السكة الحديد ٠ وبعد أن عبر الى الجانب الآخر وسار بجوازاة الخط مدة ربع ساعة الى أن وصل الى محطة محلية صغيرة كان يترك فيها دائما دراجته عندما يعود من سويسرا ٠

كان الدم لا يزال ينزف من الجرح الذى أصاب جبهته وتلوثت ملابسه ببقع الدم ٠٠ ولما رأى كاتب المحطة ينظر اليه ارتياب قال أنه اصطدم بأحد أعمدة المحطة وكان الوقت مظلما وأخذ يلوم شركة السكة الحديد على الاضاءة السيئة ولكن الكاتب هز كتفيه وقال له وهو يسلمه الدراجة أنها غلطتك أنت لانك كنت تسرع ٠٠ انها كانت مصـادفة صعبـة فلولا أنه كان فى العربة الاولى من القطار ، والى أن توقف القطار كانت هناك مسافة طويلة بينه وبين كشك البوليس الالمانى ، كذلك بفضل الضربة الشديدة التى أنزلها بخصمه ، لكان قد قبض عليه واخذت منه مستنداته وعرف أمرها ٠

والاسوأ من كل شىء أن الغلطة في كل ذلك كانت غلطتـه بعـد ذلك بثمانى ساعات كان يدق باب مكاتب السفارة وكالمعتاد استقبله (ب) فى

بهو السفارة ٠٠ ولكن بدلا من أن يأخذه الى مكتبه ، فرع الموظف البريطانى الباب المجاور لغرفته وبعد لحظة كان يقدمه الى رئيسه الذى لم يكن ميشيل قد رآه قبل الآن ٠

الكولونيل كارترايت الملحق العسكرى ، ولو أنه كان يرتدى مثل (ب) الملابس المدنية ، لم يكن يخطئه النظر فى أنه ضابط ٠٠ كان أحمر البشرة بفعل الشمس والهواء ذا عينين زرقاويين براقتين وشارب أحمر يرتدى بدلة أنيقة وحذاء بنيا لامعا من النوع الذى يرتديه غالبا ضباط الجيش العامل عندما يتواجدون فى نوادى السلاح ٠

وتقدم الكولونيل ويداه مبسوطتان مرحبا بميشيل ترحيبا قبليا ٠٠ ولكنه بمجرد أن شاهد الجرح الذى فوق عينيه تغيرت ملامحه وطلب ايضاحا ٠٠ ولما وقف على السبب أخذ يعطى زائره توجيهات شاملة وانه ليس من شأن العميل السرى أن يدخل فى أى مناقشات مع الاجانب عنه أو أن يشتبك فى مجالات وان فعلته فى الواقع كانت غلطة شنيعه ، ولو كان قد ترتب عليها ضرر له فلا يلومن الا نفسه ٠٠ وكان ميشيل يستمع وهو شاعر بغلطته ٠٠ وبعد أن انتهى الكولونيل من محاضرته عاد الى طبيعته المرحبة وقال لميشيل منذرا وعلى فمه ابتسامة مشرقة :

والآن عندى أخبار هامة أعلنها لك .. فقد نزلت القوات الانجليزية الامريكية فى شمال أفريقيا وقد استقرت فى مراكز قوية ٠٠ ثم توجه الى دولاب واخرج زجاجة وملأ ثلاثة أقداح من الويسكى ولم يكن ميشيل قد تناوله منذ نشوب الحرب ٠٠ وتبادلوا الانخاب لنجاح (عمليه المشعل) Operation Torch ٠

وقال الكولونيل بعد أن شرب كأسه « والان هيا الى العمل ٠٠ لقد طلبت من (ب) أن يدعوك الى هنا لاننا فى حاجة الى مساعدتك ٠٠ اننا لا نعرف بعد ما الذى سيفعله الالمان ولكننا نتوقع أن يكون رد الفعل عندهم شديدا للغاية ، ومن المحقق أنهم سيعززون قواتهم فى أفريقيا والأرجح أنهم سيتحركون الى (المنطقة الحرة) ٠٠ وربما ذهبوا الى اسبانيا أو ايطاليا ٠٠ وعلى أى حال نستطيع أن نكون فكرة من تحركات قواتهم وهذا ما نريد منك ملاحظته ٠٠ لقد أعطيتنا بعض معلومات مفيدة للغاية واعتقد أنك تستطيع أن تأتينا بالمزيد » ٠

وكانت هذه أول مرة يتلقى فيها ميشيل مديحا عن عمل قام به فى الماضى أو توجيها معينا عن عمل يقوم به فى المستقبل وبدأ يشعر أن مكانته تزداد لدى البريطانيين ٠

وبعد أن انهى الكولونيل كارترايت المقابلة أمسك بيد ميشيل وقال له « تذكر أننا نعتمد عليك ٠٠ ولكن لا حوادث فى عربات السكة الحديد من فضلك ! » ٠

وبالنسبة لميشيل ، ولمعظم الفرنسيين كانت هـذه نقطـة تحول فى الحرب ٠٠ لم يكونوا قد سمعوا عن معركة العلمين التى وقعت قبل ذلك باسبوعين ، أو اذا كانوا قد سمعوا عنها فكحادثة قليلة الاهمية ٠٠ والان قد عادت الحرب الى الاراضى الفرنسية التى قد تكون مرحلـة للانتقـال الى فرنسا ذاتها ٠٠ ودلت على أن الحلفاء مصممون على طرد الغازى من أرضهم ٠

وبعد ذلك بثلاث أيام تأكد هذا الرأى باحتلال الالمان للمنطقة الحرة ٠٠ وكان ذلك فى نظر الفرنسيين لا يعنى الا شيئا واحدا هو أن الحلفـاء قد اعتزموا النزول فى جنوبى فرنسا ٠

وكان أثر ذلك أن تشجع الوطنيون ، واهتزت ثقـة انصـار حـكومة فيشى ، وساعد المتشككين فى تكوين رأيهم ، ومعظم هذه الفئة الاخيرة كانوا يعيشون فى (ميدى) واذا كان يوجـد قبـل ١١ نوفمبر ١٩٤٢ ٢٠٪ من المتعاونين و ١٥٪ من المتشككين و ٦٥٪ من الموالين للحلفاء فبعد ذلك كانت النسبة أقرب الى ١٥٪ من المتعاونين و ٨٥٪ من الموالين للحلفاء ٠٠ وبعبارة أخرى ان فرنسا أصبحت منذ ذلك الحين موالية للحلفاء بنسبة ساحقة مع جزء بسيط من أنصار فيشى يكونون الاقلية ٠

وكان ميشيل يرى أن هذا التحول فى الرأى له أهمية قصوى فهـو يعنى أنه يستطيع الان أن يعتمد ، بدرجـة أكبر من أى وقت مضى ، على المعونة المضمرة أو الفعالة من جانب المواطن الامين كلمـا واينمـا احتـاج اليهـا ٠

وترتب على احتلال المنطقة الحرة انتشـار (توزيع) القوات الالمانيـة بدرجة كبيرة فبينما تحركت بعض الفرق الى الجنوب ، وصلت غيرها لتحل محلها .. ازدادت الحركة على الطرق وفى السكك الحديدية بدون انقطـاع حركة نقل القوات والمهمات ٠

وكما أوحى الكولونيل كارترايت لميشيل ، كان من الامور الحيوية بالنسبة للحلفاء أن يقفوا باسرع ما يمكن على هذه التغييرات وكانت قوات المحور قد نزلت فى تونس ، ولم يكن أحد يعلم كيف تكون ضربة هتلر المضادة التالية ٠

ولم يكن لميشيل عملاء يعملون فى المنطقة الحرة ، فكانت الحاجة ماسة الى تجنيد مراقبين أكفاء على الطرق وفى السكك الحديدية التى كان يستخدمها الالمان ٠٠ وبالنسبة للنقل البرى كان الطريق الرئيسى الى الجنوب هو الطريق الوطنى رقم ٧ الذى يمتد من ليون الى نيس عن طريق فالينس ، أفنيون ، واكس بروفنس ٠٠ وكان من الضرورى أن يكون به عميل واحد على الأقل ٠

وكان من أفضل الفنادق بهذا الطريق (هوتيشلرى بييريلات) الذى يقع فى منتصف الطريق بين فالنس وأفينيون .. وكان يعتبر نقطة استراحة رائعة لكبار الضباط الالمان لتناول الطعام وقضاء الليل وكان ميشيل يعرف هذا المكان من قبل الحرب ويعرف صاحبته مدام سيمون بواريل ، وهى امرأة تبلغ الخامسة والثلاثين جميلة العينين ولها تقاطيع ولهجة سيدات الاقاليم فقد ورثت الفندق عن والدها وكانت تديره هى وزوجها ٠٠ كانت دائما مرحة ونشطة ودائمة الابتسامة ، تشعر عملاءها بأنهم موضع الترحيب وانها تهتم بنفسها باحتياجات كل فرد منهم ٠

وبعد أيام قلائل من عودة ميشيل من سويسرا وصل الى هذا الفندق وكان فى الواقع يتابع تحركات احدى فرق (البانزر) الالمانية من ليون الى مرسيليا ولاحظ أن مركز قيادتها فى فندق (نويل) ٠٠ وطلب ميشيل من مدام بواريل أن تنضم الى (الشبكة) على أن تكون مهمتها الخاصة هى موافاته بالمعلومات الخاصة بتحركات القوات الالمانية التي تمر عن (الطريق الوطنى رقم ٧) وعن جميع الضباط المهمين الذين ينزلون بفندقها وقبلت هذا العرض فى الحال ٠

وكان هذا بداية مشاركة ، ولو انها انتهت بكارثة ، الا أنها كانت عظيمة القيمة والفائدة طوال السنتين التاليتين ٠٠ ولم يكن احلامها للقضية موضع شك وكانت تشعر بالسعادة لتمكينها من أن يقترن عملها العادى بعمل وطنى ٠٠ وكلما زادت شهرتها بين رجال الجيش الالمانى واتسعت شهرة فندقها لدى رجال أركان حربه كلما زاد نجاحها كعميلة لميشيل ٠

لم تكن تجد صعوبة اطلاقا فى تمييز الجنرالات اذ كانوا دائما يشعرون بالسرور وهم يكتبون لها ملاحظاتهم في أوتوجرافها فقد كان ذلك يشعرهم بأنه كان لهم تأثير على مدام بواريل الجذابة وعندما كانت ترجوهم أن يرسلوا لها بطاقة بريد من عنوانهم التالى كانوا عادة ما يعدونها بذلك ٠٠ ويفعلون! وفى بعض الاحيان يضيفون بعض معلومات مفيدة عن الجهة التى قد يذهبون اليها قريبا ، أو عن عودتهم الى ألمانيا ، وانهم قد يزورونها مرة أخرى فى طريق عودتهم ٠

ولما كان من الخطر على ميشيل أن يقف عند الفندق ، فكانت مقابلاتهما تحصل عادة فى القطار ، عندما يكون فى طريق عودته من رحلة الجنوب ٠٠ وكان القطار يصل الى بيرلات فى الساحة الثالثة واربعين دقيقة صباحا ٠٠ وكان ميشيل دائما يركب العربة الأخيرة وكان يفتح بابها كعلامة لسيمون لتدخل ٠٠ وبينما كانا يقفان معا في ممشى العربة يتحادثان كمعارف بالمصادفة ، كانت تسلمه مفكرة ٠٠ كان يأخذها الى دورة المياه فى العربة ليقرأها ثم يمزقها ويعود الى الممشى لاستئناف المحادثة ٠

وعند الساعة الرابعة واربع دقائق يصل القطار الى مونتليمار وتخرج سيمون وتنتظر حوالى أربعين دقيقة لتأخذ قطارا آخرا يعود بها الى بييرلات وعند الخامسة صباحا تكون فى بيتها ثانيا بينما لا يزال الجميع فى نومهم دون أن يعلم أى أحد بغيابها الا زوجها ٠

وكذلك اتخذ ميشيل اجراء لوضع مراقبة على الطريق ، ثم حول اهتمامه الى السكة الحديد ، وكان هناك خطان رئيسيان يمتدان من ليون الى الجنوب كانا يتبعان الضفة اليسرى واليمنى للرون على التوالى ٠٠ وكانا يتقابلان فى جنوب (فنيون ثم يستمران فى خط واحد عبر تاراسكون الى مرسيليا وطولون والريفيرا ٠٠ وبذلك كانت تاراسكون نقطة تقابل لجميع المواصلات المارة الى المتوسط سواء من الشمال أو الشرق أو الغرب ٠

وعرف ميشيل من التحريات الدقيقة التى قام بها بين موظفى المحطة أن وكيل ناظر المحطة ـ واسمه (ليمو) ـ كان رجلا متطرفا فى عدائه للالمان ، فحاول أن يغريه لكى يعمل كعميل له ٠ على أنه عندما عاد ميشيل بعد أيام قلائل ليحصل منه على أول تقرير له لم يجد ليمو فى الموعد المحدد للمقابلة وقال أحد الشيالين لميشيل أنه ربما يكون موجودا عند كابين الاشارة ، وللحال توجه ميشيل للبحث عنه ٠٠ وعندما وصل ميشيل كان

ليمو يتحدث مع عامل الاشارات . وعندما رأى ميشيل تضايق ثم رافقه الى الخارج ٠٠ كان من الواضح أنه قد غير رأيه وكان يحاول أن يتجنب مقابلته ثانية ٠

وبعد أن سارا مسافة قصيرة مع الخط الحديدى ، اقترح ميشيل أن يتركا طريق الخط الحديدى واتجها نحو الشاطىء الى مكان اختفيا فيه فى ظل أشجار كثيفة ٠٠ لم يكن ميشيل قد قال شيئا الى الان ٠٠ كان يفكر فى كيف يجر قدمه وكان يعرف أن هذه المقابلة حاسمة ودقيقة للغاية فان وكيل المحطة ليمو كان هو المسئول عن الخدمة فى هذا القطاع ، وربما كان الشخص الوحيد الذى يسمح له مركزه الوقوف على المعلومات التفصيلية التى يحتاجها ميشيل ٠

فاذا رفض تقديم معاونتـــه فان كل شىء يقتضى أن يبدأ من جديد ٠٠ وكعادة ميشيل دائما عندما يتأزم الموقف يكون ملما بكل ما يحيط به من الظروف ٠٠ كان الوقت متأخرا بعد الظهر ، وكان مظهر الريف يمتد الى الافق البعيد ٠٠ كان منظرا رائعا للحقول المحروثة ، تكتنفها سياجات من الحشائش الشوكية ، وبيت ريفى يبدو هنا وهناك ٠ وعلى بعد أميال قليلة ، صف من أشجار الحور يمتد على الضفة اليسرى للرون بينما يبدو من ناحية الشرق برج كنيسة حديد يرتفع فىالفضاء فوق مستوى الافق وبالرغم من أن الوقت كان شتاء فقد كانت هذه هى ميدى وكانت هناك رائحة زهور تعطر الجو ٠

ومن غير أن يشير ميشيل الى الاخلال بالميعاد ، ادعى أنه هو نفسه كان يعيد النظر فى الموضوع ، وقال أنه ربما لم يقدر حق التقدير الخطورة التى ينطوى عليها ٠٠ فان كثيرا من الفرنسيين قد فقدوا حياتهم أخيرا لقيامهم بمثل هذا العمل ٠٠ وأنه لا يريد أن يقدم ليمو على مثل هذا العمل تحت أى وهم يتعلق بالخطر الذى يمكن أن يتعرض له ٠٠ ومن ناحية أخرى أبدى أنه من الامور الحيوية الهامة أن يقوم الفرنسيون بدورهم من أجل تحرير فرنسا ٠٠ وأخذ ميشيل يتكلم على هذه الخطوط ، بينما كان ليمو يستمع صامتا دون أن ينم عن أفكاره ، وكان يبدو عليه أن انفعالات تتعارك فى نفسه وتمنعه عن الكلام ٠٠ وأخيرا رأى ميشيل أن الفرصة قد نضجت فتطلع الى وجه الوكيل وسأله عما اذا كان مستعدا أن يعاونه ٠

ولم يجب ليمو ، ولكنه أحنى رأسه كما هو كان يشعر بالخجل ، وهز رأسه علامة الايجـاب ، وفى هذه المرة أدرك ميشـيل أنه كان يعنى فعلا ما يقول ·

ومن غير أن يتبادلا كلمة أخرى ، تصافحا بالايدى وافترقا فتوجه ليمو الى المحطة ، واتخذ ميشيل طريقه نحو المدينة ·· وحافظ وكيل المحطة على وعده ، فعندما عاد ميشيل بعد أسبوع سلمه تقريرا شاملا عن كل حملة ألمانية مرت خلال تلك المدة ·

ومنذ تلك اللحظة كان ليمو أكثر أفراد الشبكة اقبالا على العمل بوعى وضميره ، وبدا كأنه يحاول أن يعوض عن وقت تردده ، ولكن ذلك كان نتيجة منشور أرسلته حكومة فيشي واستلموه فى صباح اليوم التالى لمقابلتهمـا الاولى ، تخطر فيه جميع موظف السكة الحديد بالتعاون الى أقصى حد فى نقل قوات الجيش الالمانى وهددت المقصرين فى ذلك بعقوبات شديدة ·

وبناء على اقتراح ليمو جند ميشيل بعد ذلك اثنين آخرين من رجال السكة الحديد المسئولين ، واستخدمهما فى منطقتى لى تيل وبورت لى فانيس على التوالى ·· وهما محطتا بضائع لها أهمية استراتيجية ، بينهما تراقب كل حركة النقل المتجهة جنوبا على كل من ضفتى الرون ·

وبفضل هؤلاء الأربعة عملاء الجدد كان ميشيل يحصل كل أسبوع على صورة كاملة لحركة النقل الالمانية المتجهة الى الجنوب ، وكانت تبلغ بانتظام الى بيرن ·

على أن هذه كانت البدآية فقط ، ومع احتلال الالمان لفرنسا بأكملها ، تضاعف حجم جهود ميشيل ، فاتسعت الشبكة التى أصبحت تمتد الآن من القناة الى البحر المتوسط ومن الالب الى المحيط الاطلنطى ·

وكانت خطوته الاولى ان يزيد عدد عملائه الدائمين من ستة الى عشرة ·· ثم جند بعد ذلك ١٨ من موظفى السكة الحديد من نظار محطـات ومفتشين وموظفى حركة وغيرهم ·· وكان يسـتخدمهم بالاخص فى تتبع حركات القوات الالمانية ولو أنهم كانوا يقدمون معلومات أخرى مفيدة ·

وفى نفس الوقت ضم اليه فئة جديدة من المخبرين يشملون خدام الفنادق والمنازل ·· وكان بينهم من يخدمون ضباط الاركان حرب فى الفنادق والبيوت الخاصة ·· وكانوا غالبا ما يؤدون خدمات عظيمة القيمة · وبالرغم من أن الالمان كانوا يتخذون اجراءات الامن المعتادة الا أنه لم يكن من الصعب على خادم الغرفة الخاص Valet De Chambre معرفة اسم الجنرال الذى يكوى له ملابسه كل يوم وأن يتبين مركز قيادته ··

وسرعان ما أصبح هذا النظام ساريا فى ستة عشرة بلدة فى اقليم ميدى . وعلاوة على أنه كان يقوم بعمله على خير وجه فانه كان أمينا نسبيا ·· لم تكن هناك حاجة بميشيل الى أن يدخل بنفسه الى حظيرة العدو بل كان يكفيه أن يقابل عميله فى الخارج فى وقت فراغه من العمل ·

وهكذا زادت عضوية (الشبكة) فى أواخر ١٩٤٢ الى أكثر من ستين شخصا موزعين فى جميع أنحاء فرنسا ·

وعلاوة على ذلك أنشأ ميشيل فى نقط استراتيجية عديدة ما كان يسميه (بالمنازل الامينة) وهذه كانت بيوت بعض الوطنيين الذين كانوا يعرفون أنه خارج على القانون ، ويستطيع أن يعتمد عليهم فى ايواء عملائه وتدبير الملجأ الامين لهم ، من راحة وغذاء ، واعطائه انذارا اذا تبينوا وجها للخطر أو يتسلمون الخطابات أو يبلغونها ·· بعضهم كانوا من الفلاحين الذين كان يتوقف عندهم فى طريق رحلته الى الحدود ·· وآخرون فى المدن التى كان يزورها من وقت لآخر ·· كانوا دائما مفيدين له ولم يتخلوا عن مساعدته أبدا ·

وأخيرا ، فلتكملة تنظيمه ، كان هناك ما يسمى « بطريق الجراج » أى مكان الانتظار بالقرب من كومبيين . وهو مكان غير مستعمل ولكنه كان مجهزا ويقع فى مستنقعات الواز ، وكان ميشيل قد أغرى صديقا موسرا بشرائه ·· والغرض الظاهرى منه هو انتاج الوقود من أجل ماكينات الغاز ، وفى الحقيقة كان الغرض منه أن يستعمل مخبأ أمينا عند الحاجة ، كالتخفى من مطاردة الجستابو أو لاى سبب آخر يتطلب الابتعاد عن السلطات ·

على أنه كان ينتج بعض الوقود ولكن بخسارة كبيرة على مالكه الوطنى ، وكان جميع عماله مزودين بوثائق تدل على أنهم عمال قانونيين لانتاج الوقود · وكانت تدفع لهم أجورهم ويحصلون على الغذاء والمسكن ويعيشون فى أمن تام ·

وكان هذا المخبأ « مكان الانتظار » عظيم القيمة واستمر فى تأدية دوره دون أن يتعرض اطلاقا لتفتيش رجال البوليس الى أن غادرت القوات الالمانية أرض فرنسا ·· كان يتيح الملجأ الامين ، وكذلك وسائل الحياة ليس فقط لاعضاء الشبكة بل لكثيرين غيرهم ممن كانوا فى حاجة الى الاختفاء الوقتى ·

وهناك تغيير هام حصل ، ينبغى الاشارة اليه هنا ، وذلك على أثر احداث نوفمبر ١٩٤٢ · بعد مقابلة ميشيل للكولونيل كارترايت بقليل ، قدمه (ب) الى رجل انجليزى آخر الذى طلب اليه أن يقدم نفسه الى عنوان فى لوزان ·· وكان هذا الاجراء الجديد تقدما عظيما ·· فان الملحق العسكرى ومساعده باعتبارهما ممثلين لوزارة الحرب كانت تهمهم بصفة أساسية المسائل العسكرية ·· ومن الآن فصاعدا أصبح ميشيل يعمل لحساب ادارة المخابرات السرية S. I. S التى كانت تخدم جميع الادارات ابتداء من رياسة الوزارة فما دونها ولذلك كانت تهتم بكل شىء من أى نوع كان ·

وبالرغم من أن العلاقات كانت ودية بين (ب) وميشيل الا أن التحفظ كان يسود عملهما ·· وكان هذا التحفظ أمرا عاديا اذ أنه كان لابد من مراعاة منتهى الحرص من أجل تجنب الوقوع فى شرك « عميل مزدوج » أى الرجل الذى يعمل لحساب الجانبين ، أو يدعى أنه يعمل لحساب جهة بينما يكون ولاؤه نحو جهة أخرى · وكان لابد من أن يثبت العميل اخلاصه قبل أن يصبح موضع الثقة ·· والبريطانيون لم يظهروا استعدادهم لتعاون ميشيل معهم الا بعد أن تأكدوا من اخلاصه لقضية الحلفاء وأنه يستطيع أن يقدم لهم مساعدات قيمة ·

ولذلك كانت أهمية هذا التغيير الذى حدث هو أنه بعد أن أثبت ميشيل كفاءته وجدارته فى العمل مع الهواه أصبح الآن يعتبر أنه جدير بأن يعمل مع المحترفين ·· وفى نفس الوقت صار ترقيته من مجرد عميل أو مبلغ الى صفة حليف يمكن الاعتماد عليه والثقة به ·

والشخص الجديد الذى أصبح يتصــل به يرمز اليه دائمـا بالحرفين O. P. وكان شخصية جذابة بطبيعته ٠٠ فى حياته المدنية رجل أعمال ناجح على علم كبير بشئون القارة وثقافة واسعة ٠٠ وقد أحب ميشيل فى الحال وقدر فيه جدارته ومزاياه ٠

وبعد ذلك لم يكن ميشيل يشك اطلاقا في حقيقة ما يطلب منه أو فى مدى ما حققه من نجاح ٠٠ كان يتلقى النصائح المفيدة وكذلك التعليمات الدقيقة ، وأخيرا ، كان يشعر تماما بأنه ، فى عمله الخطير البارع ، يجـد المعونة التامه من جانب البريطانيين ٠

ولم يكن التشجيع الذى يلقاه مجرد تشجيع معنوى ولغاية آخر زيارة له الى بيرن لم يكن قد طلب بنسا واحد من البريطانيين ، بل كان يتحمل جميع النفقات من جيبه الخاص ٠٠ ولكن هذه النفقات كانت قد زادت كثيرا مع اتساع (الشبكة) بينما لم يعد له الوقت الكافى الذى يكرسه لكسب معاشه ٠

ولذلك كان من المستحيل أن يواصل العمل دون مساعدة مالية ، وهذا ما عرض عليه بارتياح أخيرا وأصبح منذ ذلك الوقت يتلقى الاعتمـادات الكافية للقيام بالعمل ٠

٩

مسافر يتعرض للمتاعب

بعد أن أصبح لميشيل ستون عميلا موزعين فى كثير من المناطق المختلفة ، كان عليه أن يزورهم بانتظام ليتفقد أعمالهم ، أصبح ميشيل الآن دائم الحركة ·· ونظرا للزيادة الكبيرة سواء فى حجم أو أهمية المعلومات التى يجمعها فقد زاد من زياراته الى سويسرا فأصبحت مرة كل أسبوعين ·· وفى خلال الفترة التى يقضيها بين زيارة وأخرى يكون وقته مشغولا فى القيام بجولته وجمع تقارير عملائه قبل أن يقوم برحلته الى سويسرا مرة أخرى ··

وأولئك الذين يعملون فى القطاعين الشمالى والشرقى كانوا يأتون اليه فى باريس ·· ولكن هناك أربعون آخرون يقتضى أن يتصل بهم فى الوسط والجنوب ·· كان خط سيره المعتاد يشمل ديجون ، شالون – ساوون ، ليون ، فالينس ، لوتيل ، بيرلات ، أفينيون ، تاراسكون ، أرليس، ايكس بروفينس ، نيس ، تولون، مارسيليا ، نيمس ، مونتلير ، سيت ، بيزير ، ناربون ، كاركاسون ، كاستلنوداری ، تولوز وكان يسافر بالقطار ويستخدم عربة نوم عندما يتيسر له ذلك حتى يوفر لنفسه النشاط والقوة لمواجهة حالات الطوارىء أو السير الطويل عبر الحدود ·

ويمكن أن يتبادر السؤال كيف كان يستطيع السفر بمثل هذه الحرية ، لأنه بالرغم من أن الالمان أصبحوا يحتلون الآن فرنسا بأكملها الا أنهم كانوا يحتفظون بخط تحديد التخوم القديم بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية ، وكان لابد من الحصول على تصريح لاختراق هذه الحدود ··

وميشيل باعتباره ممثلا « للمكتب الفنى لهيئة الجازوجين بفرنسا » وتقتضى أعماله أن يجوب أنحاء البلاد ، لم يكن يتعذر عليه الحصول على تصريحه ٠٠ ولكن بمجرد أن يعبر الخط من الشمال الى الجنوب ، كان يسافر تحت اسم مستعار ، وببطاقة شخصية زائفة حتى لا يترك أى أثر لشخصيته الحقيقية ٠٠

وكانت السفريات بالقطار دائما عرضة للمخاطرة ، فعلاوة على نقط المراقبة النظامية ، كان الالمان يقومون بتفتيشات متوالية فى الطريق ، حيث يبرز المسافرون مستنداتهم ويكونون مستعدين لفتح مهماتهم ٠٠ وهذا هو السبب فى أن ميشيل ، فى الأيام الاولى ، كان يترك القطار عند ديجون ويستخدم دراجته عند الدخول الى المنطقة الحمراء ٠٠ وفى أوائل عام ١٩٤٢ خفف الالمان من شدة رقابتهم بحيث أصبحوا يباشرونها بكيفية متقطعة من حين لآخر ٠٠ وكان ميشيل عن طريق أصدقائه فى كل من الناحيتين يتلقى التحذيرات بشأن التاريخ الذى يباشرون فيه هذه المراقبة فكان يتجنب السفر فى ذلك اليوم ٠٠

وفى احدى المناسبات أسىء ابلاغه بالمعلومات الصحيحة ولم يكتشف أن القطار الذى يركبه سيتعرض للمراقبة والتفتيش الا قبل وصوله الى أوكسون بخمس دقائق ، حيث سيجرى فيها التفتيش ٠ وكان عائدا من سويسرا ومعه وثائق خطيرة تشمل مجموعة من الصور الفوتوغرافية لكبار ضباط المخابرات الالمانية ، وعلى أى الاحوال فليس لديه تصريح بالتواجد فى المنطقة الحمراء ، ونتائج ذلك لو اكتشف أمره ستكون وخيمة ٠٠ وكان الامل الوحيد هو أن يجد بسرعة مكانا يختبىء فيه ٠٠

وبعد أن سار بطول القطار عبر الممرات المزدحمة وصل الى عربة العفش التى تقع خلف القاطرة مباشرة ٠٠ وكانت من طراز قديم لم يشاهده يستعمل منذ الحرب العالمية الاولى وكان فى أحد أطرافها دورة صغيرة لاستراحة الحارس ، وفى النهاية الاخرى جزء محجوز بعرض العربة لا يعرف الغرض منه ٠٠ وكان الحارس جالسا فى دورته ٠٠ وعندما رأى ميشيل تطلع اليه باهتمام ٠٠

وقال ميشيل مبهورا : « انى فى ضيق فليس معى تصريح ، واذا اكتشف الالمان أمرى فسيقبضون على ، ألا يوجد أى مكان أختبىء فيه ؟ »

وهز الحارس كتفيه ـ لا يوجد هنا مكان كما ترى ونظر ميشيل حوله في يأس ، كانت العربة كلها خالية فيما عدا بضـعة قطع من العفش ٠٠ وقال : « ليس أمامى الا أن أقفز من القطار » ٠٠ واتجه نحو الباب ٠٠

فقال الحارس بشدة وهو يقفز من مقعده ـ ولكن هذا ممنوع ـ وقبل أن يتمكن من التدخل كان ميشيل قد فتح الباب ووقف على عتبته الخارجية مستعدا للقفز بمجرد أن يهدىء القطار سرعته ٠٠ وفى تلك اللحظة لاحظ بالقرب من المكان الذى يقف فيه بابا صغيرا فى اسفل جانب العربة ٠٠ وعرف أنه قد يكون المدخل الى غرفة الكلاب الامر الذى يفسر الجزء المحجوز في العربة ٠٠ كان الباب مقفلا من الخارج بواسطة مزلاج مثبت بقفل ٠٠ وكان الحارس واقفا عند الشباك متحيرا فيما يجب أن يفعله ٠

فسأله ميشيل ـ هل أستطيع أن أختبىء هنا ٠٠ وقد بدأ يشـاهد ضواحى المدينة ٠٠ وتردد الحـارس فألح عليه ميشـيل لا أحد يمكن أن يفتش فى داخل هذا ٠٠ عليك أن تتصرف بسرعة قبل أن يضيع الوقت » أجاب الحارس حسنا سأحضر المفتاح ٠

وفتح الباب ودخل ميشيل ثم سمع الباب يقفل خلفه بالقفل وبعـد دقائق دخل القطار الى المحطة ، بينما كان هو ينزوى منحنيـا على ركبته داخل مخبئه القذر ٠٠ وكان يستطيع أن يرى من بين ثقوب التهوية أرجل بوليس السكة الحديد الالمان ، ثم سمعهم وهم يدخلون عربة العفش وسمع قرعا على جانب حظيرة الحيوانات وتلاه صوت الحـارس يتكلم ثم صـوت انسحاب أقدام الجنود ٠٠

وبعد أن غادر الالمان القطار ، أخرج الحارس ميشيل من مخبأه ، ثم انفجر ضاحكا ٠٠ لم يكن هذا المخزن قد اسـتعمل منذ سـنين ، فغطت ميشيل الاقذار المتراكمة فيه فخرج ووجهه ويديه وملابسـه مسـودة بالهباب فكان يبدو كما لو كان خارجا من منجم فحم ٠٠ ولكنه أنقذ على أى حال ٠٠ ليس فقط بسبب حظه الفائق ، ولـكن باقتران الحـظ مع الشجاعة ورباطة الجأش وهذا هو ما يسميه الناس بالحياة « المحظوظة » ٠

وحادثة أخرى كان هروبه فيها مثيرا للغاية ٠٠ كان نائما فى القطار ، وعندما استيقظ وجد رجال البوليس الالمانى يفتشون القطار ووصلوا فعلا الى العربة المجاورة لعربته ونهض ميشـيل بسرعة ، ومن غير أن ينتظر

حتى أخذ مهماته معه اندفع الى الممر حتى وصل الى نهاية العربة ، وعندئذ سمع صياح الجنود يستوقفونه ولكنه أسرع فوصل الى مؤخرة القطار حيث كان أحد المسافرين وظهره الى الباب ، ولحسن حظه كان القطار يهدىء لمروره في منحنى ، فأزاح ميشيل الراكب قليلا وقفز من القطار على القضبان ·· ولو أنه لم يصب بشىء الا أنه ظل مبهورا كمن فقد رشده ·· ولكنه استرد أنفاسه وأدرك موقفه فوجد نفسه فى الريف المكشوف ولا يوجد بالقرب منه أى شىء يستتر فيه ·· واستطاع أن يرى اثنين من الجنود الالمان ينزلون من القطار ويتلفتان حولهما ·· وبينما كان يتأمل خطوته التالية ، هل يجرى على امتداد الخط الحديدى أم يتجه الى الحقول ، وصل قطار آخر فى أعقاب القطار الاول ·· وقد هدأ القطار سيره ليقطع المنحنى كالقطار الاول ، واتخذ ميشيل رأيا سريعا وقفز فى آخر عربة منه وكانت عربة حراس خالية ـ وظل قابعا بها الى أن وصل القطار بعد نصف ساعة الى محطة صغيرة · فنزل ميشيل وراح يبحث عن ناظر المحطة ولم يكن قد رآه من قبل وقال له :

ـ لى خدمة أرجوك أن تؤديها لى ـ قد نسيت حقيبتى فى القطار الذى يصل الى تاراسكوف فى الساعة الحادية عشر وبما أن القطار لا يذهب الى أبعد من تلك المحطة فان الموظفين هناك لابد أن يكونوا قد وجدوها ·· فهل تبلغهم تليفونيا بالاحتفاظ بها الى أن أذهب لاستلامها ؟ وليس فيها أشياء ثمينة فيما عدا معطف للمطر ·· ووعده الناظر بذلك وفعلا لم يمض وقت طويل حتى استرد ميشيل حقيبته ··

بعد ذلك ببضعة شهور كان ميشيل يسافر مرة أخرى على خط أوكسون ·· وفى هذه المرة كان معه تصريحه · ولكنه كان يحمل أيضا ـ كما كان فى المرات السابقة ـ وثائق تعرضه للخطر · كان من بينها خطاب من امرأة فرنسية سلمته اليه فى سويسرا ووعدها بأن يسلمه الى زوجها فى باريس ·· وقبيل وصول القطار الى نقطة التفتيش كان قد ربط جميع أوراقه معا وأخفاها تحت لوح الارضية الذى يوصل بين العربتين ·· ثم سار الى نهاية القطار ووقف فى الممشى بينما كان الالمان يواصلون تفتيشهم ·· وعندما انتهى كل شىء عاد الى المخبأ الذى وضع فيه أوراقه ، لكنه وجدها قد ضاعت ··

ولما لم يكن فى المستندات المفقودة ما يمكن أن يدل عليه ، فبالرغم من أنه تضايق بضياعها الا أنه لم ينزعج ·· ولدى وصوله الى باريس

اعتذر للزوج ، ولم يفكر بعد ذلك في الحادث الا بعد أيام قلائل عندما عاد الى سويسرا مرة أخرى ٠٠ وقد علم عندئذ من السيدة أن خطابها ، كان يتضمن اسم وعنوان الفلاح الذى كان يرسل طرود الاغذية لزوجها ٠٠ وكان هذا أمرا خطيرا ٠٠ فاذا عثر الالمان على الخطاب واتخذوا بشأنه اجراءات كاستجواب الفلاح ، فانهم يستطيعون أن يكتشفوا جهة وصول الطرود ، وبعد ذلك لا تكون أمامهم الا خطوة واحدة لمعرفة حامل الخطاب ٠

وقرر ميشيل أن يعرقل اجراءاتهم ٠٠ فلو استطاع أن يصل الى الفلاح قبلهم وحذره ، فان الرجل سيعرف كيف يرد على البوليس اذا استجوبه ٠٠

كانت المزرعة في منطقة آين على بعد حوالى عشرين ميلا على الجانب الفرنسى من الحدود ٠٠ وكان على ميشيل للوصول اليها أن يعود الى الحدود ، ويعبرها دون أن يراه أحد ويتبع طريقا جبليا في الثلوج ٠٠ وبالرغم من هبوط الليل ولم يكن هناك أمل في اتمام الرحلة قبل بزوغ الفجر ، الا أنه قرر أن يشرع في رحلته فورا ٠٠ وكانت أشبه بالكابوس فقد كان الظلام حالكا ، والثلج يتساقط دون انقطاع ، وكادت قدماه تجمدان من شدة البرودة ٠٠ وبعد عثرات متوالية ، وبعد أن ضل طريقه عدة مرات وصل الى نهر فالسرين الذى يكون خط الحدود ٠٠ ولا يبعد كثيرا عن قرية ميجو الفرنسية وعلى بعد ربع ميل كان يوجد بيت ريفى على قمة منحدر كان يستخدمه دائما بمثابة نقطة مرور يقوم منها أو يعود اليها عندما يعبر الحدود في هذه المنطقة ٠

وكان الفلاح ، المسيو بونسيه ، وزوجته على علاقة طيبة مع ميشيل ، ففى رحلة قيامه كانوا يراقبون النهر حيث كانت تمر داوريات الالمان ، ويعرفونه عندما يكون الساحل نظيفا وفى رحلة عودته كانوا يرفعون له علامة بيضاء خارج احدى الحظائر ، بحيث كانت ترى من الغابات من جانب السويسرى من الحدود ، فكانت بمثابة اعلان بأمان المرور ٠٠

على أنه في هذه المرة التى جاءت فيها رحلته الفجائية لم تكن هناك علامة ، وعلى أى حال لم يكن ليراها في هذا الظلام الحالك ٠٠ ورغما من أن هذا المكان لم يكن هو مقصده ، وبالرغم من خطر مقابلة أى دورية ، فقد قرر أن يصل الى البيت الريفى وأن يستريح هناك الى طلوع النهار قبل أن يستأنف رحلته ٠٠

كانت الساعة حوالى الرابعة صباحا عندما وصل الى منزل بونسيه مرهقا الى أقصى حد ، وبينما كان يفكر فى عدم ازعاج أصدقائه الكادحين رأى نورا ينبعث من الغرفة والمسيو بونسيه يطل برأسه من نافذتها ٠٠ وبعد دقائق كان ميشيل يجلس أمام مدفأة متقدة النيران يرتشف قدحا من القهوة الممزوجة بالروم ٠٠ وعندما استرد نشاطه أخذ يتحدث عن الغرض من رحلته ٠٠ ثم ذهب الى فراشه بعد أن وعده بونسيه بأن يوقظه بعد ساعتين ٠٠

وعندما استيقظ كانت الدنيا لا تزال مظلمة ومدام بونسيه تهزه بلطف بذراعها ، فقفز ميشيل ونظر فى ساعته ، ولما وجد أنه نام عشر ساعات أخذ يلوم مضيفيه على عدم ايقاظه فقاطعته قائلة : ان زوجى قام بالرسالة وقد استلزمه ذلك أن يقضى اليوم كله للذهاب الى هناك بواسطة زحافاته ـ وأنا كنت أنتظر عند مكتب البريد ، وقد اتصل توا تليفونيا وقال ان كل شىء قد تم على ما يرام ٠

وليس هناك مثال أروع من هذا على مروءة هؤلاء الناس الذين كان يعول عليهم ميشيل وهم عادة من أدنى الطبقات ٠٠

ان عمل (الشبكة) والاتصال بالبريطانيين ، الذى يمكن اعتباره الجانب الادارى من عمل ميشيل لم يكن بحال ما هو الهدف النهائى ٠٠ بل على العكس لم يكن يتردد من أن يقوم هو بنفسه بأى مهمة اذا اقتضت الحالة ٠ ٠

فبعد نزول الحلفاء فى شمال أفريقيا مثلا ، كان من المهم معرفة مايجرى فى طولون ٠٠ وكان الحلفاء عن طريق الادميرال دارلان فى الجزائر يبذلون جهودا يائسة لاغراء الاسطول الفرنسى ان لم ينضم اليهم فعلى الاقل لا يعرض نفسه لان يكون تحت متناول يد الالمان ٠٠ وكان هؤلاء مصممون على الاستيلاء عليه ٠٠ ولكن فى النهاية سويت هذه المشكلة بواسطة البحارة الفرنسيين أنفسهم ففى يوم ٢٧ نوفمبر عندما كانت القوات الالمانية تقترب منهم ، أغرقوا بواخرهم فى الميناء ٠٠

كان ميشيل فى سويسرا فى ذلك الوقت ، وعندما عرفت هذه الانباء طلب منه البريطانيون بأن يتوجه الى طولون فورا وأن يتحرى على مدى الأضرار الحقيقية ، وفرص انقاذ البواخر الغارقة .. وعرف أن هذا لم يكن

بالامر السهل . لان الالمان بعد غزو المنطقة الحرة قاموا فورا بوضع كوردون حول طولون وأصبح المرور سواء الى الداخل أو الخارج تحت مراقبة شديدة • وعلى أثر اغراق الاسطول ، زادت هذه الاجراءات شدة •• فان الالمان الذين ضايقهم عدم استيلائهم على هذا الصيد الثمين ، كان رد الفعل من جانبهم أن يجعلوا الحياة أقسى ما تكون على أهل طولون ••

وعندما وصل ميشيل مساء ٢٨ نوفمبر بعد أن شق طريقه فى مناطق ريفية وشوارع جانبية ، وجد الجو متوترا مرهقا فالالمان فى كل مكان والفرنسيون القلائل كان منظرهم محزنا كئيبا كمن نزلت بهم كارثة •• وقد كانت طولون ــ مثل بورتسموث أو بليموث ــ تقوم من أجل البحرية لذلك كان تدميرها كارثة مست كل فرد من سكانها ، وحتى الجزء الساحلى منها الذى كان مركزا لملاهيها ومباهجها صار تدميره •• ولما نزل ميشيل الى الميناء شاهد فى جميع أرجائها الاطراف العليا للقلوع والمداخن كشواهد على قبر الاسطول •• وكانت أعمدة كثيفة من الدخان لا تزال تنبعث من بعض البواخر الحربية التى لم تغرق كلها بعد •• وغشاء من الزيت والشحم يغطى سطح المياه فى الميناء ••

كان الوقت متأخرا لا يسمح بالقيام بأى تحريات ، فشرع يبحث عن مكان يبيت فيه •• وفى الحال وجد جميع الفنادق قد حجزت للقوات الالمانية •• وبعد عدة محاولات فاشلة قرر أن يتخذ خطة جريئة • تجاهل علامة الصليب المعقوف المرسومة على واجهة فندق (تيرمينوس) ، ودخله وفى غرفة الاستقبال سأل عن غرفة يقضى فيها الليل وقال ميشيل انه ميكانيكى وانه جاء الى طولون لاصلاح بعض الماكينات •

فسأله الالمانى هل تستطيع اصلاح جهاز راديو ؟ ولما أجاب ميشيل بالايجاب • قال له الالمانى اتبعنى اذن ••

وقاده الالمانى الى غرفة استقبال كان فى أحد أركانها الجهاز المطلوب اصلاحه •• وفحصه ميشيل ثم قال •• وماذا تعطينى مقابل اصلاحه •• وقال الالمانى سأدفع لك أجرا طيبا •• ورد ميشيل لست فى حاجة الى ذلك بل أحتاج الى غرفة فى الفندق لقضاء الليل •• ووعده الالمانى بذلك واستدعى المدير وطلب منه اعداد أفضل غرفة خالية لميشيل •• وبدأ ميشيل عمله فى اصلاح الجهاز وبعد أن انتهى من اصلاحه بساعة واحدة

أخذ يديره على محطة لندن لتجربته فاستمع الى نهاية نشرة الاخبار باللغة الفرنسية وتلاها اللحن المميز المعتاد بعد الانباء ، والتى كانت فى الواقع رموزا كودية ..

كان الصف ضابط الالمانى يقف الىجواره ، فكان ميشيل يستمع وهو يتظاهر بعدم الاكتراث .. عندما لفت اهتمامه تكرار العبارة المعروفة له « ان البيرة هنا جيدة » .. فلم يعد لديه شك فى أنه كان يستمع الىرسالة كودية بطريق المصادفة .. كانت الرسالة تنطوى على تحذير بضرب مطار (ابيفيل) بالقنابل وهى العملية التى كان عميله (لويز فييت) قد طلب منه تدبيرها ..

وعندما فكر ميشيل فى « مسح » المطـار الالمـانى ـ ربما فى نفس الليلة ـ وفيما سيسببه ذلك من سرور لفييت ، لم يسـتطع أن يكتم ابتهاجه بذلك . وتمنى لو استطاع أن يقول هذه الاخبار لصديقه الالمانى الاحمق وان يصفعه على قفاه .. وأدار الجهاز وقال للألمانى : « كانت هذه محطة لندن وها قد سمعتموها بوضوح رغم ما تثيرونه من ضجة هنا .

وعبر له الالمانى عن سروره من العمل الذى قام به فعرض عليه كأسا من الشراب على البار ولكن ميشيل اعتذر لانه كان مرهقا ، يريد أن ينام فقط .. وأوصله الالمانى الى غرفته ثم حيـاه وانصرف .. كانت الغرفة فاخرة يتبعها حمام خاص .. والمهم أنه قد استمتع بها وعلى حسـاب الالمانى ، الامر الذى زاده ارتياحا بصفة خاصة ..

وفى صباح اليوم التالى عندما كان يغادر الفندق وينحنى له مستخدموه كان يردد فى نفسه شعاره المحبوب : « عليـك بالجرأة والمزيد من الجرأة ودائما الجرأة » ..

ورأى ميشيل عندما اقترب من الميناء البحرى أن المدخل كان يحرسه ديدبان ألمانى . ولم يكن مستعدا لذلك وأخذ يفكر فى عذر يبديه بينمـا كان الجندى يتخذ وضع « انتباه » ويرفع يده بالتحية العسكرية .. وقد أدهش هذا التصرف ميشيل الى حد أنه ابتسم فى خيلاء وسار فى طريقه . (واتضح فيما بعد أن هذا الجندى كان يبيت فى (الفنـدق) وعرف فى ميشيل الضيف المكرم من الالمان) .

وفى ضوء النهار كان منظر الأسطول الغارق يدعو للرثاء ٠٠ بارجة حربية واثنين من طرادات القتال وسبعة طرادات وتسعة وعشرون مدمرة وست عشر غواصة كلها كانت مغرقة وكثير غيرها من السفن الاصغر حجما ٠٠ ولما كانت الاطراف العليا هى الظاهرة فقط كان من الصعب تمييز الوحدات الغارقة ٠٠ وكان كل شيء يبدو مقفرا فالحوض الذى كان يشغى دائما بالحركة والنشاط أصبح صامتاً ٠٠ وكل المعديات ومراكب المرشدين مهجورة والروافع وحتى محطة القوى كلها لا حركة فيها ٠٠ وعلى مسافة كان يقف شخصان على انفراد بالقرب من تمثال يتأملان فى حزن منظر الخراب الحزين ، وعندما اقترب منهما ميشيل وجد أحدهما رجلا مسنا والآخر شابا صغيرا وتجاذب معهما الحديث ، وأخذ الشاب يذكر له أسماء البواخر الغارقة ٠٠ وذكر أن الباخرة التى لم تغرق كلها والتى ما زالت النيران مشتعلة فيها كانت قد اشتبكت مع الالمان على الشاطىء لكى تمنعهم من تجاوز الخليج الى أن يتم اغراق باقى الاسطول ورد عليها الالمان بضرب القنابل وقتلوا كثيرا من بحارتها الفرنسيين ٠٠ وفى أثناء هذا الحديث لم يتكلم الرجل العجوز بل كان يكتفى بهز رأسه من وقت لآخر لتأييد كلام زميله ٠٠ على أن شيئا فى مظهره كان له تأثيره فى نفس ميشيل ٠٠ كان طويلا نحيف القامة يرتدى ملابس العمال وكانت ملامحه تدل على الاحترام والسلطة ٠٠

ودعاهما ميشيل لتناول القهوة ٠٠ ثم طلب من الرجل المسن وكاز رئيس عمال فى ترسانة الميناء أن يؤدى له خدمة ٠٠ وقال ان لديه بعض أعمال وقتية يريد أن يقوم بها فى طولون ولكنه يجد صعوبة فى الحصول على الترخيص اللازم بها ٠٠ فلو أن بطاقة بريد داخلية أرسلت اليه من طولون تطلب حضوره لتصليح ماكينة غاز ، قد يتمكن من الحصول على تصريح بالعودة وسأل صديقه الجديد اذا كان يمكن أن يتفضل بارساله مثل هذه البطاقة اليه على أن يرسلها بعد أسبوعين ؟

ووافق رئيس العمال ووعده بذلك ٠٠ وحياهما ميشيل وانصرف راضيا عما قام به من عمل هذا الصباح ، فقد حصل على المعلومات التى كان يريدها ، وعرف المراكب التى غرقت بأسمائها ، والاخرى التى يمكن انقاذها ، علاوة على أنه أنشأ علاقة مع أشخاص جدد يمكن تجنيدهما للعمل معه ، ومن أصلح ما يمكن كعملاء له فى طولون ٠ وعاد من نفس الطريق الذى قدم منه دون أن يعترضه أحد ، وبعد ساعة كان فى القطار ٠٠

وفى اليوم المتفق عليه بالضبط وصلت البطاقة البريدية الى باريس ، واستطاع ميشيل بواسطتها أن يحصل على التصريح وفى اليوم التالى كان عائدا الى طولون ، ووصل توا الى عنوان رئيس العمال ، وكان من حظه أن وجده بمفرده فى منزله وكان هذا الاخير قد خمن ما يريد ميشيل ولذلك تفاهما بسرعة وهكذا أصبح (الكسندر رومان) عضوا فى (شبكة العمل) • كان متزوجا وعنده ولدان يكرس كل جهوده من أجل عائلته (التى كان يجوع غالبا من أجلها) وكان رومان أفضل مثل على الصانع الفنى البارع •• وهو كرئيس عمال قديم فى فرع الاسلحة فى الترسانة الذى كان قد بدأ العمل فيه مرة أخرى تحت الرقابة الالمانية ، كان الشخص المثالى بالنسبة لاغراض ميشيل •• ومنذ هذا الوقت ، فانه بفضل يقظته لم يكن يحدث أى شىء هام فى طولون دون أن يصل الى ادارة المخابرات البريطانية ••

ومن أهم تقاريره التقرير الذى قدمه عن نوع طوربيد حديث ، اخترع بواسطة الفرنسيين ، وكان الالمان قد استولوا على رسوماته عندما استولوا على الترسانة البحرية وكان من محاسن الصدف أن رومان كان يشتغل مباشرة تحت رئاسة المخترع وكان فى استطاعته أن يضع وصفا تفصيليا كاملا عن هذا الطوربيد ـ الذى كان ينطلق بواسطة فوق أكسيد الايدروجين وقد استطاع ميشيل أن يرسل الرسوم الى الامبرالية فى لندن

وفى صيف عام ١٩٤٣ أثناء نشوب معركة صقلية رست قوارب داوريات المحور ، التى دمرت أثناء هذه الحملة ، فى طولون للتصليح •• واستطاع رومان ، بحكم عمله فى الترسانة معرفة التاريخ الذى كان مقررا أن ترحل فيه ودرجه ضمن معلومات التقرير النصف الشهرى الذى ينقله ميشيل الى سويسرا •• وكان هذا يبلغ الى لندن ، ونتيجة لذلك كانت بواخر العدو عادة بمجرد مغادرتها الميناء •• وكانت خسائرها تعرف فى الحال فى الترسانة ثم تدرج بواسطة رومان فى تقرير التالى •

وفى أحد الايام بينما كان يرقد على بطنه فوق مرتفع يرسم قاعدة امدادات بحرية جديدة أنشأها الالمان بالقرب من لاسين ، قفز جندى ألمانى كان يراقبه من فوق شجرة وسأله عما يفعل ••

وكان ايضاح رومان عما يرسمه جاهزا ، قال انه كان ينوى بناء منزل على الساحل وكان يضع رسما كروكيا ليساعده على اختيار الموقع . ولكن الجندى لم يقبل هذا العذر غير المقبول وساق رومان الى غرفة الحرس .. ولحسن حظه كان الصف ضابط أكثر قابلية لتصديق هذا العذر ، وبعد أن أبرز الاسير الدليل على أنه من أهالى طولون أفرجوا عنه بكفالة ..

وواصل خدماته القيمة مدة عام .. ثم حدث شىء عرضه للخطر .. كان لميشيل عميل يدعى لويس ميفريت كان يشتغل مساحا فى بلدية نيس .. وكان ميفريت قد تعرف بميشيل بواسطة عميل ثالث ، كان يستخدمه ميشيل عادة لجمع التقارير منهما بدلا منه . .وقد رأى هذا العميل أنه من الصالح أن يتقابل كل من ميفريت ورومان ، حتى فى حالة عدم قدرته على زيارة نيس ، يمكن لميفريت أن يأتى الى طولون ويقدم تقريره الى رومان باليد ..

وبمجرد أن سمع ميشيل بهذا الترتيب تبين له أنه اجراء غير مرغوب فيه ، لانه فى حالة القبض على أى واحد من الاثنين يكون الآخر عرضه للخطر .. ولذلك سافر توا الى طولون بقصد انهاء هذا الاجراء ..

وعندما وصل الى منزل رومان استقبلته مدام رومان ولاحظ على الفور أنه قد جاء متأخرا .. وقصت عليه السيدة فى صوت حزين حقيقة ما حدث .. منذ يومين وفى ساعة مبكرة فى الصباح حضر الى المنزل بعض الالمان بملابسهم المدنية وأخذوا زوجها فى سيارة .. وبعد ذلك لم تسمع عنه شيئا ..

ولم يطل ميشيل المقابلة .. وبعد أن تأكد منها بأن لديها ما يكفى من النقود لمواجهة احتياجاتها المباشرة وبعد أن وعدها بالتحرى عن مكانه ، استأذن الانصراف بقلب مكلوم .

وتدهورت حالته المعنوية لتوقع ما هو أسوأ فأخذ القطار الى نيس . وهناك من غير أن يذهب الى أبعد من المحطة أدرك أقصى مدى للكارثة .. فان جان والد لويس ميفريت رئيس مراقبة الحركة فى نيس ، وكان أيضا يعمل لحساب ميشيل ، قد ضبط معه كشف بتحركات عسكرية لا علاقة لها بأعماله الرسمية وقد قبض عليه هو وابنه ، ووضعا فى القطار المتجه الى مرسيليا .. وكان لا مفر من أن يتلو ذلك القبض على رومان .

كان اعتقال رومان ضربة مريرة لميشيل . فقد كان شديد الاخلاص شجاعا وبغض النظر عن مزاياه وصفاته التيجعلت ميشيل يقدره منذ أول مقابلة لهما ، فقد كان من أكثر أعضاء الشبكة فعالية ، وكانت أهمية المعلومات التى يقدمها تتضح من وقت لآخر ..

وكعادة ميشيل كلما خسر عميلا ولا سيما اذا كان هذا الأخير رب عائلة ، كانت تتبادر الى ذهن ميشيل مسألة مؤلمة .. هل كان من حقه أن يعرض شخصا آخر لمثل هذا الخطر القاتل ؟ هل يمكن أن يسامحه من كان يعولهم ضحيته ؟ ولكنه لم يكن يجد أبدا الجواب الذى يرضيه ، ولكن لما جاء دوره هو كان بمثابة تفكير ينطوى على التعزية وأنه كان يقاسم الى حد ما فى التضحية أولئك الذين كان يشعر باعتباره رئيسهم أنه المسئول عنهم . وفى أحلك الظروف فى أيام « نيونجام » كان هذا الفكر هو الذى ساعده وأعانه أكثر من أى شيء آخر .

فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٣ فى أثناء اجتماع بين ميشيل وبين رئيسه البريطانى الجديد ذلك الودود .O. P ثارت مسألة مكان وجود فون روندستد .

وصرح .O. P مؤكدا بأنه لا يزال قائد لقطاع البحر المتوسط لجيش الاحتلال الالمانى .. وكانت هذه مجموعة الجيش التى كان مركز رياستها فى أفينيون ، وتشرف على جميع القوات الالمانية فى جنوب فرنسا ..

لم يكن ميشيل واثقا من هذا تماما ، فقد سمع اشاعات عن تغييرات، ولما لم يكن له عميل فى أفينيون فقد تطوع للذهاب للتحقق من الامر بنفسه .. وقرر أن يبدأ تحرياته بعد مغادرة لوزان .. وبعد أيام قلائل بمجرد أن أتم رحلته فى (ميدى) وصل الى محطة أفينيون ..

كان قد مضى بعض الوقت منذ آخر زيارة له لهذه المدينة ، وقد ذهل لما رآه من مباهج المدينة القديمة .. ومناظرها الطبيعية الجميلة وأريج زهورها وأشجارها .. على أنه كان هناك شيء واحد يدعو الى المضايقة والانزعاج هو أنه لاحظ وهو يمر عبر الميدان المجاور للمحطة ، عند الابراج التى كانت تحرس فيما مضى المسورة ، لاحظ أن الالمان قد وضعوا على الابراج مدافع مضادة للطائرات ..

وبعد أن سار قليلا وصل الى فندق ترمينوس ، حيث اتخذ القـائد الالمانى مركزا لقيادته · ·فوجد على المدخل العـلم ذى اللونين الابيض والاسود المحاطين باللون الاحمر الذى يشير الى مجموعة الجيش ·· وكان هناك حاجز خشبى يمتد الى وسط الطريق يمنع أى اقتراب من المدخل · وكان يحرس الطريق ثلاثة من رجال البوليس الفرنسى ، بينما كانت تمر فى المسافة الداخلية داورية من الجنود الالمان برئاسة صف ضابط ··

وكان فى مواجهة الفندق مقهى ·· وبعد أن تناول قهوته اشتبك فى الحديث مع رئيس الخدم ثم خفض من صوته وهو يسأله : خبرنى ·· هل جارك الذى يقف فى عرض الطريق ·· ما زال هو نفسه لم يتغير ؟ ·· ولكن رئيس الخدم لم يرد عليه وتشاغل فى أوانى المقهى ·· ولم يغب عن ميشيل معنى هذه الحركة فترك المقهى وانصرف ·

وراح ميشيل يراقب الثلاثة جنود الفرنسيين وهم يتلكأون أمام الحاجز ولم يقرر ماذا تكون خطوته التالية ولكنه قال فى نفسه ان هؤلاء الجنود هم رجال فرنسيون قبل كل شىء وليس لديه وقت ليضيعه فبعد ساعة سيقوم قطاره ··

فاقترب من أقرب الثلاثة وكرر نفس السؤال الذى وجهه لرئيس الخدم فى المقهى ـ فأجاب رجل البوليس بالنفى ودون أن يبدى أى دهشة وأضاف أنه كان قد حصل تغيير فى الاسبوعين الماضيين ··

ـ وهل تعرف اسم القائد الجديد ··

ـ قال رجل البوليس « كلا » وتحول الى زميليه يسألهما اذا كان أحدهما يعرفه ·· وهز كلاهما رأسهما بالنفى ·· وعندئذ قال أحدهما : لماذا لا تسأل صاحب الفندق ؟ انه لا يزال يقيم فيه وهو رجل طيب للغاية

ـ ما اسمه ؟

ـ المسيو بيير بامارد ··

وشكر ميشيل محدثه ورفعوا له الحاجز ومر الى الداخل وعندما وصل الى المدخل استوقفه ديدبان ألماني وطلب منه ابراز جواز مروره ٠٠ ورد على ذلك بطلب مقابلة الصف ضابط ، ولما قابله قال انه لا يريد شيئا الا مقابلة المسيو بامار اذ يحمل له رسالة عاجلة ٠

واعتذر الصف ضابط بعدم امكان السماح لاى شخص بالدخول بدون تصريح بذلك ، واذا سمحت لك بالدخول سأسبب لنفسى مشاكل فقال ميشيل : سوف لا يرانى أحد ، والمسيو بامار صديق قديم ، وأنا أعرف الفندق جيدا ، وسأراه فى مكتبه الخاص ٠٠

قال هذا وأخرج عدة سجاير أمريكية وضعها فى يد الشاويش ، عندئذ هز الالمانى كتفيه وأسرع عبر الباب ولم يكن ميشيل قد دخل الفندق من قبل ، ولكنه اتخذ مظهر الشخص المعتد بنفسه والذى يعرف طريقه ، فسار بتؤدة الى الامام ٠٠ كان البهو مملوءا بالضباط الالمان والايطاليين فكان يبتسم لهم مع انحناءة بسيطة وهو يسير ، الى أن وصل الى نقطة كان لابد أن يستفسر عندها عن الطريق عندما رأى سيدة تقف فى طريقه ٠٠ فوقف ميشيل وسألها عن المسيو بامار ٠٠ فسألته الفتاة ومن أقول انه يسأل عنه ؟

فأجاب ميشيل — ان اسمى لا يعنيه فى شىء ٠٠ قولى له فقط رفيق قديم من الالاى ٠ ٠

وبعد قليل رأى ميشيل رجلا طويل القامة فى حوالى الخامسة والثلاثين قادما نحوه ٠٠ وقبل أن يتاح له الوقت للكلام بادر ميشيل بمسك يده وهزها بقوة ٠٠ وقال له سأوضح لك كل شىء ٠٠ ولكن ليس هنا ٠٠ واتجها معا الى مكان لا يراهما فيه من فى البهو وبعد أن اعتذر له عن تصرفه أوضح له الظروف التى تحتم عليه معرفة اسم القائد الجديد الذى خلف فون رندستد ٠

وأجاب مسيو بامار : اسمه الجنرال (فون فيلبر) ولكن كان هذا من وقت مضى ولكن فون فيلبر أيضا حل محله آخر ولا أعرف اسم خلفه ولكن زوجتى تعرفه ، فلو انتظرت لحظة عدت لك بالاسم فورا ٠٠

وبعد دقائق عاد وسلم ميشيل بطاقته وكان مكتوبا عليها اسم : (فون سونينسترن) ٠

فشكره ميشيل وسأله عن الجهة التى انتقل اليها فون روندستدت وفيلبر وعن الجهة التى قدم منها سونينسترن ‥ وعن الجهات التى توجد فيها قياداته الفرعية وعن أى معلومات أخرى يستطيع أن يدلى بها ٠

وكما لو كان هذا الطلب شيئا طبيعيا للغاية قال له بومار ان معظم هذه المعلومات متوفرة لديه وهناك معلومات أخرى يمكن أن تؤخذ من الخطابات التى كتبها الجنرالات الالمان الى زوجته بعد أن غادروا الفندق ليشكرونها على الراحة التى استمتعوا بها أثناء اقامتهم بالفندق ٠ وتجهيز هذه المعلومات يستغرق بعض الوقت ٠

فشكره ميشيل وانصرف على أن يعود بعد بضعة أيام ، وطلب اليه أن يحدد له الموعد ‥ وبعد أن اتفقا على أن يتقابلا فى بار فندق آخر كان يديره أحد أفراد « الميليشيا » أى قوة ميليشيا فيشي المكروهة وكانت تستخدم غالبا لقمع المقاومة ٠ حتى يكون موعد المقابلة بعيدا عن كل شبهة ‥

وبينما كان بامار يودع ميشيل وهو يبدى كل عواطف الصداقة الحارة كان الصف‌ضابط الالمانى ينظر اليهما بارتياح ، كما لو كان يبدى سروره من أن ميشيل قد نجح فى العثور على صديقه القديم ٠

وبعد أيام قلائل حصل ميشيل على تقرير بامار وأخذه توا الى سويسرا ، وتقبله O.P بسرور بالغ ٠

على أن لهذه القصة نهاية محزنة ‥ فقد استمر بامار يزود ميشيل بالمعلومات المفيدة ولكن بعد اعتقال الاخير امتنع عن تقديم مثل هذه المعونة لشبكة مقاومة أخرى ورفض العمل معهم ولذلك وصموه بالتعاون مع المحتل ، وبعد أن تحررت البلاد أطلق عليه مواطنوه النار باعتباره خائنا دون أن تتاح له الفرصة للدفاع عن نفسه ٠

١٠

الخبير يصـــل غدا

في صيف عام ١٩٤٣ طلب الملحق البريطاني من ميشيل أن يتحرى عن المطار الموجود في كورميي فكسين وهو مطار عظيم جدا لا يبعد كثـيرا عن باريس يستخدمه سلاح الطيران الالماني .. كان يبلغ طول ممره عشرين ميلا وكان يعتقد أنه مقسم الى ثلاثة أقسام . أحدها مخبأ وراء تمويه بارع ويستخدم في العمليات والثاني كان يبدو أنه أصبح غير مستعمل ، بينما كان الثالث محاطا بسياج ومزود بأنوار كاشفة ومدافع مضادة للطائرات وكانت التعليمات التى أعطيت لميشيل أن يستكشف حدود الاقســـام الثلاثة ، وعمل كل منها .

ورأى أن يعهد بالمهمة الى (بارت) الذى امتاز في المهام التى كلف بها وبالاخص في ساحل القنال ، ومركزه الآن في باريس ومن الســهل انتدابه في المهام الخاصة ..

والمطار بالرغم من أنه كان في موقع مكنون الا أنه كان واسعا للغاية بحيث لا يتيسر حراسته بكيفية تامة ، فلم يجد بارت صعوبة في الاقتراب من حدوده . وكان يحمل خريطة من مقاس كبير في احدى يديه ومنظار ميدان في اليد الاخرى ، وكان يسير بكيفية رتيبة ، ويتفحص مختلف معالم حوله ..

وبعد أن سجل حدود القطاع المحـايد وتظليله على خريطته ، وصل الى نقطة كانت تقوم عليها بعض المباني الغريبة ولما لم يجد أحدا قرر أن يستطلع أمرها .. وكانت النتائج هامة للغاية .. فمثلا كان هناك برج كنيسة ولكنه كان موضوعا فوق مخزن كبير للدبابات ، أما ما كان يبدو كأنه صف من الاكواخ فقد كان في الواقع ورشا للتصليح .

وبعد مسافة قصيرة شاهد ميشيل أكواما من القش أثارت دهشته ٠ ولما حفر التربة حولها وجد طبقة من الاسمنت فوق غرفة أرضية مقفلة ٠ ورجح ميشيل أنها قد تكون مخزن ذخيرة ، وما كاد يحدد موقعهـــا على خريطته حتى فاجأه جندى ألمانى كان مختبئا داخل مخزن للعلف ، وصوب اليه بندقيته ٠

لم يكن هناك مجال للتفكير فى الهرب . كان الألمانى على بعد خطوات منه ولابد أنه كان يراقبه منذ بعض الوقت واقتيد ويداه مرفوعتان الى رأسه الى غرفة الحرس ، ومن هناك أخذوه الى ضابط يرتدى ملابس الطيران ٠٠ وكان (بارت) قد أعد قصته ٠٠ فقال انه كان يركب دراجة فى منطقـة خلف المطار عندما لاحظ مبنى كنيسة وبجوارهـا بعض الاكواخ التى لم تكن موجودة من قبل ، وخضوعا لغريزة حب الاستطلاع الطبيعية وقف ليشاهدها ٠

ــ ولكن ماذا عن الخريطة والمنظار ؟

ــ المنظار أعطاه لى صديق فى قرية مجاورة كنت أزوره وكنت عائدا به الى باريس (وهذا حقيقى لانه كان قد اقترض المنظـــار من قسيس القرية المجاورة لهذا الغرض) ٠

أما الخريطة فانه قد التقطها من مقعد لدى وصـــوله الى المحطة ٠٠ وكانت عليها العلامات من الاصل ٠

وظل بارت طيلة ساعة من الاستجواب مصرا على قصته وأخيرا قالوا له ان ايضاحاته غير مقبولة وأنه لابد من ارســاله الى (ميزون لافيت) لاستجوابه بواسطة بوليس الامن (وهو غير الجستابو أى بوليس الدولة السرى ٠٠ على أن هذا كان يتعاون دائما مع بوليس الامن فى الحــالات التى تتعلق بالجاسوسية أو أعمال التخريب) ٠

وفى ميزون ــ لافيت عذبوه بدون رحمة طوال اليوم ٠٠ فكان مختلف ضباط الاستجواب يتتابعون عليه الواحد بعد الآخر بوحشية متزايدة ، كانوا يصفعونه ويلكمونه ٠٠ ويضربونه بمختلف الادوات ٠٠ وظل بارت متمسكا بقصته بشجاعة فائقة : انه عثر على الخريطة فى المحطة وان الكتابة التى عليها ليست بخطه ٠٠

فأعطوه ورقا وقلما وطلبوا منه أن يكتب بعض العبارات وأدرك الغرض من ذلك فأخذ يكتب بيد مقلده ، ولكنه لما كان ضعيفا من شدة الالم والارهاق لم تكن محاولته موقفه وقال الالماني : « سنرسل فى طلب الخبير ليفحص كتابتك وسيخبرنا ما اذا كنت تقول الحق » .

وحدث أن الخبير لم يكن موجودا ، ولا يمكن حضوره الا في اليوم التالى .. وقالوا لبارت انه اذا أتضح أن الكتابة التى على الخريطة بخط يده فانه سيضرب بالنار فورا على اعتبار أنه جاسوس .. وعندئذ نقلوه الى قرية صغيرة خارج باريس حيث سجنوه تلك الليلة ..

كانت زنزانته فى الطابق الثالث من البناء ، أى على ارتفاع حوالى خمسين قدما فوق الارض .. وكان فى أعلى الحائط نافذة مستطيلة الشكل عليها شبكة من السلك .. وكان السلك مثبتا على برواز خشبى وهذا كان مربوطا بأسلاك فى الحائط .. وكان فى الباب الفتحة المعتادة التى تمكن الحارس من رؤية السجين فى الداخل ..

وكان أى تفكير فى الهروب يبدو لا أمل فيه .. ومع ذلك فان عبارة جاءت على لسان أحد مستجوبيه ظلت تتردد فى ذهنه .. « ان الخبير يصل غدا » وكان واثقا أن طريقة كتابته التى حاول بها تغيير خطه لن تخدع الخبير .. فما لم يجد طريقه للهرب ، فلا مفر له من النتيجة الوحيدة المحتومة ..

وتطلع مرة أخرى الى النافذة ، وكان يبدو أنه يتعذر اختراقها .. كان الحارس قد نظر لتوه من فتحة الباب وسمع بارت صوت أقدامه المتراجعة ، ويستطيع أن يسمعها وهو عائد .. وكان يعتقد أنه السجين الوحيد فى هذا الطابق ولذلك فان تردد الحارس لن يكون كثيرا ..

قلب السرير السفرى على أحد جانبيه ووقف فوقه وحاول أن يصل الى النافذة ، وأخذ يحل الاربطة السلكية ، التى كانت تربط البرواز بالفتحة .. وكان العمل بيده فقط دون أى أدوات مساعدة بطيئا وشاقا حتى أدمت أنامله ولكنه ظل يعمل بكل جهده ، وكان من وقت لآخر يتوقف ليستمع خطوات الحارس خارج الغرفة .. وسمعه مرة فقفز بسرعة وتظاهر بأنه غارق فى النوم قبل أن يفتح الحارس فتحة الباب .. وعند منتصف الليل كان قد حل البرواز .

كانت مساحة الفتحة حوالى ١٦ بوصة فى ٢٠ بوصة وهى تكفى لمثل جسم بارت النحيل بالمرور ٠٠ ولكن ما الذى يحدث بعد ذلك ؟ سقوط من علو خمسين قدما ـ وفي الظـلام ـ لا يدرى فوق أى شيء ٠٠ بغض النظر عما يحدثه السقوط من ضجة ؟

فى هذه اللحظة كان يسمع صوت قطار على مسافة منه وقد أوحى ذلك بفكرة الى بارت ٠٠ فقد سمع قطارات عديدة تمر بالقـــرب من المكان فكانت تزيد من وحشة الليل ورهبته بضجيجها وقرقعتها ٠٠ فاذا استطاع أن يحدد وقت قفزته للحرية عندما يقترب القطار فان ضجيجه سيغطى على صوت سقوطه ٠٠

قد يكون هذا انتحارا ، ولكن الامر البديل هو مواجهة الخبير ٠٠ ولن يطلق الالمان النار عليه فى الحال ، فانهم بعد أن يقتنعوا بجرمه ، سيضطرونه الى الادلاء بما عنده ٠٠ وقد عرف الآن أساليبهم فى التعذيب مما يجعله يعتقد أن الموت أفضل بكثير من عملية تعذيب أخرى ٠٠

على أى الاحوال لم يكن هناك وقت لتقدير المخاطرة ٠٠ فان صوت القطار القادم كان يزداد ارتفاعا كل لحظة ـ وبعد ثوان قليلة يكون قد مر ومن غير فكرة واضحة عما ينوى أن يفعله جذب بارت ملاءته ودفع بنفسه الى النافذة وأدخل أولا قدمه من الفتحة الى أن استطاع الجلوس على حافتها ثم نشر الملاءة فوق رأسه لتكون بمثابة مظلة ، ثم رفس بكعبيه لكى يتجنب أى عقبات فى سقوطه ٠٠ وقفز ٠٠

وتمت المعجزة ولم يمت ، ولا حتى غاب عن وعيه سقط على أرض لينة فى حديقة مزروعة ٠٠ وعندما رقد على ظهره فى شدة الالم ، وهو يململ بصوت يمكن أن يسمع ، سمع القطار يبتعد وهو يحدث ضجيجا صاخبا

وسرعان ما سمع وقع أقدام تقترب منه ٠٠ دفع فى فمه طرف الملاءة التى كانت لا تزال بيده واستطاع بارت أن يلقى نفسه الى السياج ٠٠ وكان الديدبان يمر فى الناحية الاخرى منه ، وتوقف فى المكان المقـابل للمكان الذى كان يرقد فيه بارت ، واستراح قليلا ثم استأنف مروره ٠

وبذل بارت مجهودا فائقا لكى يقف على قدميه ٠٠ ثم استطاع أن يصل الى طرف السياج ٠٠ وهو يجر نفسه أحيانا ويزحف على بطنه أحيانا أخرى ٠٠ كانت فى طرف السياج فتحة تؤدى الى حديقة أخرى ، فى نهايتها منزل صغير ٠

ولا يعرف بارت كيف استطاع الوصول الى هذا المنزل ورأى نورا يظهر من تحت بابه ٠٠ وجد من نفسه القوة لكى يقرع الباب وهو فى منتهى الضعف قبل أن ينهار وبمجرد أن فتح الباب سقط من الاعياء على عتبة الدار ولما أفاق كان يجلس على مقعد فى غرفة الجلوس وشخصان متقدمان فى السن رجل وامرأة يقفان الى جواره ، كانت المرأة تمسك بفنجان من القهوة وهى تسند رأسه لتساعده على تناوله كان ظهره مصابا بدرجة شديدة لم يتبينها من قبل ٠٠ فقد كسرت سلسلته الفقرية فى ثلاثة مواضع ولكنه استطاع أن يجد بعض الراحة من الاربطة البدائية التى لفه بها أهل البيت ٠٠

وكان سؤاله الاول عن الوقت ، وحاول مضيفاه أن يهدئا من روعه فليس هناك أى شىء يدعو لانزعاجه وأنهما سيرعيانه ، ويجب أن يضطجع الى أن يرسلا فى طلب عربة اسعاف ٠

فقال بارت : مستحيل انى هربت لتوى من الالمان ، ولابد أنهم يبحثون عنى الآن ، فان لم أصل الى المحطة سيمسكوننى ويضربوننى بالنار ٠

واعترض مضيفه : ولكنك لا تستطيع الحركة ، وأظن أن ظهرك مكسور

ولكنى أستطيع بمساعدتكم ٠ وانى أشعر الآن أنى أحسن حالا ٠٠ وعلى أى حال فهذه هى فرصتى الوحيدة ٠٠

وبعض مجادلات أخرى اتفقوا على أن يحاولوا ، كانت الساعة الخامسة والنصف صباحا ٠ وكان هناك قطار عمال يقوم من القرية فى الساعة السابعة الا ربعا ٠٠

ووضع أحد ذراعيه مستندا الى عنق مضيفه الطيب ، وباليد الاخرى اتكأ على عصاه ، توجه بارت الى المحطة ٠٠ ولكى يتجنب المرور أمام سجنه الأخير كان من الضرورى أن يقوم بدورة كبيرة ، وبالرغم أن المحطة كانت على

مسافة قصيرة منهم فقد قضوا نحو ساعة للوصول اليها ·· ولكنهم لحقوا بالقطار واشترى رفيق بارت التذاكر ووصلا الى باريس وأخذا المترو الى محطة ليون ووصلوا فى الحال الى فندق صغير بالقرب من نهاية الخط حيث كان ميشيل يحجز به غرفة باستمرار لحسابه ··

كان أحيانا ينام بها كما كان يحفظ بها التقارير التى يرد بها الى باريس عملاؤه في شمالي وشرقي فرنسا ·· وكانت هذه مخبأة في أعلى دولاب الملابس وكان لا يتوجه لأخذها الا قبيل سفره الى سويسرا ··

وفى هذه الغرفة قابل بارت فى آخر النهار ، ممدودا على السرير ومنهوكا من الألم .. واستطاع بارت أن يحكى لميشيل بصعوبة تفاصيل ما وقع له ·· ولما انتهى سأله ميشيل عما اذا كان قد باح للالمان بأى شيء وأقسم له على ذلك ·· فقال ميشيل حسنا فى هذه الحالة يمكن أن نهتم بأمرك · وكان يعرف مستشفى تمريض كان الطبيب الجراح به راول مونود ابن عمه وصديقه ·· وكانت تدير هذا المستشفى هيئة من (الاتحاد الدياكونيزى البروتستنتى) ولم يكن بعيدا عنهم اذ يقع فى ١٨ شارع سيرجنت بوشات ·

وكشف على بارت فى نفس الليلة بالاشعة واتضح أن به كسور فى السلسلة الفقرية ، ووضع الرجل المصاب فى الجبيرة للعلاج ··

ولكن الأمر الذى بدا أكثر من معجزة بل سلسلة من المعجزات هو عدم اكتشاف الالمان لهروبه ، ثم تمكنه من الهروب الى باريس بدون سلسلة فقرية · ثم تمكنه من أن يبقى على قيد الحياة الى الآن ··

ولكن هروبه لا يعتبر أنه أصبح مأمونا ، وكل يوم يمر عليه وهو فى المستشفى كان يزداد خطر اكتشافه ·· فكانت المشكلة هى ايجاد المكان الامين له ، ثم نقله اليه ··

كانت احدى العقبات أن شفاءه يحتاج الى شهور وهو فى خلالها محتاج الى التمريض · ومن ناحية أخرى فان الرجل العاجز يلفت الانتباه دائما وهذا ما جعل أصدقاء ميشيل يحجمون عن ايوائه ·· وزيادة فى تعقيد الامر كان بارت مطلوبا للتجنيد فى قوة العمال ··

وبعد بحث مختلف الاعتبارات ـ ومن بينها ايجاد مخبأ له فى الريف رأى ميشيل أن الحل الوحيد هو نقل بارت الى سويسرا ، وأخذ يضع خطته على هذا الاساس ٠٠ ولحسن الحظ كان الوقت صيفا ، ولذلك كان يستطيع أن يستخدم الطريق الاصلى عبر الحدود ٠٠ حيث لا توجد أسلاك شائكة يقتضى اختراقها ٠٠

وبعد أن قضى بارت أسبوعا فى الفراش رؤى أنه أصبح فى الامكان نقله ٠٠ واتفق علي أن تحضر والدته لتأخذه من العيـادة وتذهب به الى محطة ليون حيث يقابلها ميشيل هناك ٠ وسار كل شىء على ما يرام ، الى أن جاءوا لعبور الحاجز وهنا مفتش التذاكر ابراز فيشات الاذن بالركوب وهذه عبارة عن تصاريح خاصة يستطيع بها المسافرون أن يحصلوا على اذن بأخذ قطار معين ٠ ولم يكن لدى ميشيل الوقت لاستخراجها فقـال للمفتش ان هذا الشاب مصاب بدرجة خطيرة وهو يغادر باريس لعـلاج سريع ٠٠ فقال المفتش اذن كان يجب عليك أن تحصل على شهادة طبية ٠
وعند ذلك خلع بارت قميصه وأظهر له (قميص الجبيرة) وكان تأثير ذلك مثيرا للغاية فقد كان مرسوما على سطح (سترة الجبس) البيضـاء بالقلم الازرق بحيث كان يشملها من أعلاها الى الوسط (صليب اللورين الكبير) وهى شارة الفرنسيين الاحرار وكتب تحت هذا الرسم :

آلاى المظلات الاول ٠٠

وكان الرسم والكتابة من عمل جار بارت فى المستشفى وقد رسمهـا من قبيل المزاح والمجون تقديرا لطريقة ميشيل العجيبة فى الهبـوط من نافذة فى الطابق الثالث ٠٠ ولم يكن ميشيل قد شاهد هذا المجهود الفنى من قبل ، فانزعج واضطرب ، ولكن المفتش بعد أن ألقى نظرة عليه تطلع حوله فى حرص ثم أشار الى الثلاثة بالمرور ٠

وأمضى بارت ليلة هادئة فى القطار ولم تكن هناك أى تفتيشات أخرى عند خط الحدود ، ومرت الرحلة دون أى حادث وفى (بيزانسون) حيث وصلوا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، ودعته أمه ، وواصل هو وميشيل الرحلة على الخط الحديدى الفردى الذى يمتـد بين بيزانسون ومورتو ٠٠

وفى (جراند كومب) التى تقع على بعد خمسة أميال من نهاية الخط تركا القطار لمواصلة الرحلة سيرا على الاقدام ٠٠ وكان بارت يستطيع السير ولكن ببطء وكان يشعر بثقل غلاف الجبس على عظم أفخاده ٠٠ وكان ميشيل عادة يمر بالمناطق الريفية الجانبية ولكن هذه كان يتعذر على بارت السير فيها ، ولذلك اتخذا الطريق الرئيسى ، حيث كان يتزايد خطر مقابلة داوريات الالمان ٠

وبعد أن سارا حوالى ساعتين وصلا الى (خلف الجبل) وكان كونو قد أبلغ بحضورهما ، فأعدت لهما زوجته أكلة طيبة ٠٠ كان بارت قد استطاع الى هذه اللحظة أن يقاوم مشقة الرحلة ، وبعد تناول الطعام والاستراحة شعر بأنه يستطيع أن يواصل الرحلة ٠٠

وهنا بدأت التجربة الحقيقية ٠٠ فالممر الجبلى الذى طالما مر به ميشيل قد أصبح أكثر ضيقا وأشد انحدارا ٠ ولم يعد فى الامكان أن يمر به رجلان معا ٠٠ واضطر ميشيل الذى كان يعاون رفيقه الى هذه اليحظة ، أن يتخلى عنه ويتركه لحظة ٠٠

واشتدت وطأة الالم من ضغط الغلاف الجبسى على أفخاد بارت وأصبح غير محتمل ٠٠ ولتخفيف الالم كان يرفع الغلاف بيديه ٠٠ وهذا يعنى التخلى عن عصاه فكان يجد صعوبة فى الاحتفاظ بتوازنه ٠٠ ولكن خطوة فخطوة وأحيانا شبرا فشبر استطاع بارت أن يتقدم الى الامام ٠٠ بينما ميشيل يتطلع اليه يائسا وفى عذاب من الشك فيما اذا كان رفيقه الجرىء سيستطيع مواصلة السير الى النهاية ٠

وفى النهاية أخذ التسلح يصبح سهلا عندما وصلا الى السهل واتخذا الطريق المؤدى الى مزرعة كونو وذهب الحوذى ليستطلع ، وتشاءم ميشيل اذ رأى الباب والنافذة مغلقتين ــ وهذا معناه أنه ليس من المأمون عبور الوادى ونظر فى ساعته ــ كان لا يزال باقيا خمس دقائق على الوقت المتفق عليه ٠٠ فظل يراقب المزرعة فى قلق بينما رقد بارت على الارض يائسا يحاول أن يسترد قوته ٠٠

وأخيرا فتح الباب ، واستطاع أن يرى كونو يتطلع الى الخارج ــ كانت هذه علامة على أن « الجو خالى » ٠٠

وانتعش بارت لذلك فانتفض على قدميه واستأنف طريقه بمعـــاونة ميشيل ..

ومن طرف الغابة كان يوجد منحدر سهل يبلغ طوله مائة ياردة يصل الى المجرى فى قاع الوادى . وقد قطعاه دون أى مشقة ولكن عندما شرعا فى تسلقه من الجانب الآخر بدأ بارت يبدى يأسه .. وقد كافح فتـــرة قصيرة الى أن نجح فى الوصول الى ستار الاشجار .. وهنـــا توقف اذ اضمحلت قواه ..

على أن مرحلة صعبة كانت لا تزال تنتظرهم ـ مسافة لا تقـل عن ربع ميل كلها أشواك وصخور .. فما كان من ميشـــيل الا أن ركع على قدميه وحمل رفيقه فوق ظهره .. وبذل كل جهده فى الســير به باقى الطريق .. وعند ذلك كانا قد وصلا الى الحائط الذى يحدد خط الحدود ، وكانت لا تزال به بقية قوة لكى يرفع بارت الى فوق ثم يجذبه تحتستار من بعض الاشجار ، قبل أن يسقط هو أيضا فريسة للارهاق التام ..

ورقدا معا وليس فيهما أى ذرة من القوة ، ولكنهما كانا يتذوقان حلاوة النصر الذى أحرزه بهذا المجهود المضنى على عدو شديد البأس ..

وعندما استردا أنفاسهما وقوتهما استأنفا المسير الى أن وصـــلا الى (لابريفين) ـ ومن هناك اتصل ميشيل تليفونيا بأحد أصدقائه فى الجيش السويسرى الذى جاء اليهما فورا .. وبعد ساعة كان هو وبارت يقيمان بمنتهى الراحة فى أحد فنادق نيوشاتل ..

وفى اليوم التالى أدخلوا بارت المستشفى ، وعاد ميشيل الى باريس . لقد قام بكثير من الرحلات السرية والخطيرة الى سويسرا ، ولكن لم تأخـذ منه أى واحدة منها مثل ما أخذته هـذه الرحلة من جهد ولم تمنحـه أى واحدة مثل ما منحته هذه من ارتياح نفسى عميق ..

١١

حاســة قوية

بعد قليل من عودة ميشيل من رحلة توصــيله بارت الى بر الامان ، تلقى رسالة مثيرة ، أن أحد عملائه ، وهو مهندس سكة حديد فى روين يدعى رودمار استمع الى محادثة فى مقهى بين اثنين من مقاولى البناء ٠٠ كانا يتباحثان فى أمر بعض المنشئات الحديثة غير العادية التى كان يجرى انشاؤها بناء على طلب الالمان فى عدة أماكن من منطقة السين السفلى ٠٠ وما يجعلها مبانى غير عادية هو المقدار الهائل من المواد اللازمة لبنائها ، والدقة المتناهية المطلوبة فى تحديد أماكن بعض هذه المبانى ٠

وكعادة ميشيل دائما فى الامور التى يبدو أنها على جانب كبير من الاهمية ، قرر أن يتحرى فى هذا الامر بنفسه ٠

فوصل الى روين فى أحد أيام شهر أغسطس وتوجــه مبــاشرة الى (مكتب العمل المحلى) وسأل عن قسم الترفيه ، وقال للموظف الذى قابله أنه ممثل (منظمة الترفيه البروتستنتائية) وأنه يهمه الاتصال ببعض العمال الذين انضموا حديثا للعمل مع سلطة الاحتلال ٠

وعندئذ اخرج من حقيبة صغيرة عدة كتب مقدسة وغيرها من النشرات والكتب الدينية ٠٠ وقرأ الموظف عناوين بعضها وبدا عليه الارتياح ٠٠ وقال فى نفسه أنه لشىء رائع أن يكون هناك من يعنى ويهتــم بالحيــاة الروحية بين العمال ٠٠ الذين بعد أن تركوا عائلاتهم واصبحوا يعيشون فى ظروف تزيد من رغباتهــم ، وزادت النقود فى جيوبهم ، واصــبحوا عرضة لاضرار أدبية خطيرة ٠٠ فهو لذلك يشــعر بالارتيــاح والسرور أن يساعد بأى كيفية يستطيعها ٠٠ فما الذى يريده ميشيل ؟

ـ اذا أمكن أن تعرفنى اسماء الاماكن التى تجرى فيها أعمال البناء فانى استطيع أن أزور العمال ٠ فمن الافضل دائما مقابلة العمال والتحدث اليها أثناء عملهم ٠

ـ حسنا ولكنى لا أعرفها كلها ، وهذه بعض الاماكن يمكنك أن تبدأ عملك فيها ٠

قال هذا وكتب له الاسماء على قطعة من الورق واعطاها لميشيل الذى شكره بحرارة ، وأعاد تنظيم حقيبته وانصرف ٠

بعد ساعة كان يركب القطار الى أوفاى مكان صغير يبعد عشرين ميلا شمالى روين ٠٠ وفى الطريق غير ملابسه ، وعندما خرج من المحطة كان يرتدى ملابس العمال فوق بدلة المدينة ٠٠ وبيريه أسود على رأسه ٠٠ وترك حقيبته وحمل على كتفه زكيبة قديمة ممزقة ولكنها تحتوى على خرائط ٠

وقد اختار أوفاى من بين الاماكن التى أعطيت له أسماؤها لانها على ما يبدو كانت أيسر منالا من غيرها ٠٠ ولكن تحرياته فى القرية لم تسفر عن أى نتيجة .. فان أحدا لم يسمع عن أى منشئات هامة تجرى اقامتها فى الاماكن المجاورة ٠

وكانت هناك أربعة طرق رئيسية تؤدى الى خارج أوفاى وقرر ميشيل على طريقته المعتادة أن يستكشف كلا منها لمسافة خمسة كيلو مترات ٠٠ وبعد عدة محاولات قام كمحاولة أخيرة بتجربة الطريق الغربى المتجه الى (بونتو فوبورج) وقد أوصله هذا الى منطقة ريفية متعرجة ذات حقول مسورة ومراعى خضراء كانت ترعى فيها الماشية بأمان ٠

سار ثلاثة أميال فوصل الى منطقة كانت أرضها سهلة منبسطة ، حيث وجد ما كان يتطلع اليه ٠٠ اذ وجد فى منطقة واسعة مكشوفة تجاور الطريق عدة مئات من العمال منهمكين فى العمل ٠٠ بينما كان يقوم بعضهم باقامة المبانى ، من مختلف الاشكال والاحجام ، كان آخرون يرصفون الطرق أو يضعون الاساسات ٠٠ وكان ضجيج ماكينات الطرق والخلاطات والحفر لا ينقطع ٠

كان هذا الموقع ، عند النظر اليه من الطريق ، لا يوحى بشىء وكان على ميشيل بكيفية أو بأخرى أن يحصل على اذن بالدخول للمكان لمعاينته عن قرب ٠٠ وكان المكان مفتوحا من جميع جهاته فيما عدا الجهة الشمالية

الشرقية ·· وكانت نقط الحراسة موضوعة من جميع النواحى وعلى مسافات قصيرة ·· وكان هناك ألمان آخرون بكساويهم الرسمية والارجح أنهم مهندسون يشرفون على العمل ·

ومن الواضح أنه لم يكن هناك أمل فى التسلل دون أن يلاحظه أحد ، ولابد من اختلاق حجة مقبولة لدخول الموقع ·

وتطلع حوله بحثا عن آلة من ادوات العمل تساعده على التنكر فلاحظ عربة يد صغيرة مركونة على جانب الطريق ·· فخبأ حقيبته تحت شجرة ثم دفع بالعربة أمامه الى مدخل الموقع وتقدم الى الداخل فى جرأة تحت أنظار الحراس غير المتشككين واتجه نحو جماعة من العمال فى وسط الارض وبعد أن صار فى وسطهم أسقط يدى العربة وانشغل معهم ، كما يفعلون، فى خلط الاسمنت والرمل بالجاروف ·

لم يكن وجوده موضع تساؤل من أحد ، وسرعان ما اشتبك فى الحديث مع أحد زملائه ·

فسأل بعد فترة « لماذا كل هذا العناء ؟ » ·

واجاب زميله « لا ندرى على وجه التحقيق ولكنهم يقولون أن هذه المبانى ستستخدم كجراجات لوسائل النقل ·

وخطر لميشيل أن هذا غير معقول ·· فان البناء الذى ينشئونه أصغر بكثير من أن يصلح لايواء العربات وكذلك المبانى الاخرى ، وهى أيضا لم يتم انجازها بعد ، ليست أكبر من هذا حجما ·· وكان من الواضح أن قصة الجراج من اختراع الالمان لاخفاء حقيقة نواياهم ·

وابدى ميشيل بعض الاعذار لزميله ، وسحب عربته بعد أن ملأها الى النصف بالطوب ، وسار بها فى جولة استطلاع · وعلى قدر ما استطاع أن يستنتج ، دون أن يبدى تطفلا ، أنه كان هناك عشرة منشئات منفصلة، لا يزيد الواحد فيها عن طابق واحد ·· ويجرى انشاء الطرق المرصوفة والممرات لتصل بينها ·

والشيء الذى ضلله بصفة خاصة ممر عريض من الارض المرصوفة يبلغ طوله ٥٠ ياردة على امتداد طرق الموقع الاقرب الى الغابة وفى الركن الاكثر بعدا عن الطريق ٠

والامر الاكثر تضليلا امتداد صف في وسط الارض من القوائم الخشبية ، امتد عليها ، على مسافة اقدام قليلة فوق الارض خيط أزرق ٠٠ واستمر ذلك لمسافة مائة ياردة ، ولجعلها أكثر وضوحا وضعت أقراص معدنية مثبتة على رأس كل من القوائم الخشبية وشريط من الرمل الابيض يمتد بين الحشائش ٠

وكلما تأمل ميشيل هذا الشريط الجامد ولا سيما الخط الممتد لمسافة بعيدة ، كلما ازداد اقتناعا بأن فيه مفتاح اللغز ٠٠ ولكن ماذا يكون هذا اللغز ؟

لم يكن يبدو أن الخط يخدم أى غرض ٠٠ فقد كان أخف وأضعف من أن يحتمل أى ثقل عليه أو يقاوم أى شد ٠٠ أين يا ترى شاهد شيئا مثله ؟ أن البنائين عادة ما يرسمون خطا عندما يبنون جدارا ٠٠ ولكن ليس بهذا الشكل ٠٠ وما شأن الاقراص المعدنية ؟ ٠٠ لقد ذكرته بشيء كان قد شاهد مهندسى المساحة يستخدمونه عندما يرسمون اتجاه طريق جديد ٠٠ لا شك أن هذا هو نفس الشيء ٠٠ خط اتجاه ٠٠ ولكن لماذا يمدونه هكذا بعيدا الى خارج الموقع ؟ ٠

وفجأة بدت له فكرة فرجع الى الخط ووضع نفسه بحيث يكون فى نفس خط اتجاه الشريط ٠٠ كان هناك بعض رجال يعملون بالقرب منه ولكنهم لم يعيرونه أى اهتمام ، وكان أقرب المانى على بعد منه ٠٠ كان يحمل فى جيبه دائما بوصلة جيب ٠٠ وكانت تساعده دائما فى ايجاد طريقة عند عبور الحدود وانحنى متظاهرا أنه يربط حذاءه ووضع البوصلة على الارض وقرأ العلامة المغناطيسية للشريط فكانت هى نفسها لمحور الشريط الجامد ٠

ولاحظ أحد العمال يتطلع اليه ٠٠ فاتجه ميشيل اليه وسأله : هل تخبرنى ما الغرض الذى يخدمه بناء هذا الموقع ؟ فهز الرجل كتفيه وقال ليست عندى أى فكرة عن ذلك والافضل أن تسأل رئيس العمال ٠

ـ من هو ؟

فأشار له العامل الى رجل كان يتحادث مع أحد المهندسين الالمان وقال له هذا أحدهم ٠

وانتظر ميشيل الى أن افترقا ، ثم تبع رئيس العمال الذى كان يقصد ستارا من الخيش فى نهاية الموقع ٠٠ واختفى وراء الستار لازالة ضرورة ، ودخل ميشيل فى الموقع المجاور له متظاهرا بنفس الغرض وانتهز الفرصة وأخرج من جيبه علبة سجائر أمريكية وقدم منها لجاره وقبل رئيس العمال لفافة التبغ بعد تردد ٠

وبعد أن خرجا معا صامتين ، كرر ميشيل نفس سؤاله ٠٠ وبدلا من أن يجيبه رئيس العمال تطلع اليه قائلا يبدو أنك جديد هنا فقال ميشيل كلا ولكنهم أرسلونى من روين وقالوا لى أنك فى حاجة الى عمال ٠

ـ حسنا ونصيحتي اليك أن لاتوجه أسئلة فان رؤساءنا هنا لايحبون ذلك ٠

ـ حقا ٠٠ انه لامر يدعو الى الدهشة ٠

ـ انهم لا يقولون لنا شيئا ٠٠ بل اننا لم نشاهد أى تصميم ٠٠ ويوجد ألمانى على رأس كل قسم ٠٠ وهو فقط يبلغنا ما يريد انجازه ٠٠ وهى طريقة عجيبة فى العمل ٠

ـ اذن لابد أن يكون الامر على جانب من الاهمية ؟

ـ لا أعرف شيئا عن ذلك ولكنى اقول لك أنهم فى عجلة شديدة لانجاز هذا العمل ٠٠ اننا نعمل فى ثلاث مجموعات طوال الاربع وعشرين ساعة ٠

ـ وليس هذا هو العمل الوحيد ؟

ـ لا أظن بل توجد أعمال فى كل المنطقة ـ يوجد احدها فى توتى وآخر فى يرفيل ثم فى لابوسك ميليه و بروكتوى وابيمون وسانت فاس دى فال ، ثم توقف رئيس العمال فجأة وتطلع الى ميشيل فى دهشة قائلا ولكن ماذا يهمك أنت من هذا طالما أنك أرسلت الى هنا ؟

ـ لى زميل يطلب عملا ، وعرفته بأنى سأخبره اذا كان هناك أى عمل يمكن أن يقوم به ٠

ـ يطلب عملا ؟ هذا مضحك ٠٠ ان معظمهم يحاول اجتناب ذلك ٠

كان رئيس العمال عندئذ يستعد للانصراف ٠٠ وانتظر ميشيل لحظة قبل أن يتبعه ٠٠ كانت عربة اليد لا تزال فى الخارج فدفعها أمامه واجتاز بها كوردون الحراسة ، ووصل الى الطريق ، واسترد زكيبته ، وبسرعة كان فى طريقه الى أوفاى ٠٠ حيث أخذ القطار الى روين ، وفى المساء عاد منها الى باريس ٠

كان ينام فى فندق صغير بالقرب من محطة ليون حيث استأجر غرفة بصفة مستديمة ٠٠ غرفة فى الطابق الاول وتطل على الحوش ، ولها شرفة خارج النافذة توصل الى سقف ، وكانت تتيح وسيلة للهرب فى حالة الطوارىء ٠

ومن بين الاشياء التى كان يحتفظ بها هناك خرائط ٠٠ ومنها خريطة للقنال البريطانى التى كانت تبين شمال فرنسا وجنوب انجلترا لغاية لندن ٠٠ نشرها أمامه على الارض ورسم خطا من الموقع التقريبى للمكان بالقرب من أوفاى على امتداد القراءة التى دلت عليها بوصلته ٠٠ وكما توقع مر الخط عبر لندن ٠٠ وبعبارة أخرى ، كيفما كانت المبانى التى يقوم الالمان بانشائها فان محورها كان يشير الى العاصمة البريطانية ٠٠ وبدا أن ميشيل كان على أبواب اكتشاف شىء هام ٠

وعندما أبلغ اكتشافه فى سويسرا بعد ذلك بأيام قلائل ، لم يدهش O. P. بكيفية خاصة ٠٠ فقد كانت الانباء والتقارير عن « انشاءات غريبة » و « مبانى مشبوهة » من الامور الشائعة المعروفة ٠٠ واتضح أنها جميعا مبانى لا أهمية لها ولا ضرر منها كأن تكون أماكن للغسيل أو مركزا للترفيه ٠٠ والمهمة التى قام بها كان المقصود منها غربلة هذه الانباء والتقارير لان ازعاج لندن ببرقيات تتضمن معلومات عديمة القيمة أمر غير مرغوب فى لندن ٠٠ ولو أن هذا التقرير وصل من أى مبلغ لكان من الممكن التردد فى تحويله لأن مسألة وجود خط جامد موضوعا بحيث يكون محوره متجها الى لندن ـ أو هكذا ظهر من تقرير تقريبى ـ أمر يمكن أن يكون مصادفة ، واستنتاج نتائج هامة على مثل هذه المصادفة ، من الامور التى قد تثير التجهم والغيظ ٠

ولكن وصول التقرير من ميشيل يجعل الامر مختلفا ، فان هذا الاخير أصبح يعتبر ضمن الفئة الممتازة من العملاء ، الذين تعامل المعلومات التى يقدمونها ، مهما كانت غير محتملة ، بالتقدير ، لانها أثبتت جدارتها فى كل الظروف الماضية ٠٠ وقد أحرز ميشيل هذا المركز بعد مدة طويلة من التجربة والخبرة ، كما أثبتت ذلك أيضا فى المدة الاخيرة باستطلاع بالغ الاهمية ٠

ففى خلال الصيف كان قد أبلغ عن أعمال تجرى فى مارسيليا تتعلق بانشاء حوض بحرى جديد ٠٠ وقوبلت هذه المعلومات بالرفض من جانب البريطانيين واعتبروها مجرد خيال ٠٠ ولما كان قد شاهد العمل بنفسه، بعد مجازفات خطيرة فقد اغتاظ لذلك ، ووعدهم بان يعود اليهم بالدليل وسافر فورا الى مرسيليا ٠

كان الحوض يبنى تحت ستار مظلة هائلة كانت تستعمل عادة كمخزن استيداع فى الطرف الشمالى من رصيف جوليت وكل اقتراب من المكان كان يجرى تحت حراسة دقيقة ٠٠ ودبر ميشيل أن يصل متنكرا فى زى العمال فى الوقت الذى كانت تخرج فيه مجموعة النهار وتدخل فيه مجموعة الليل ٠٠فاختلط مع المجموعة الاخيرة وتمكن من دخول الموقع ، والتقط أقرب عدة اليه وأخذ فى الحفر بهمة ، تحت أعين رئيس عمال (منظمة تودت) الساهرة ٠

وفى فترة راحة متنصف الليل بينما ازدحم الرجال حول ترولل الطعام ، أخذ فى هدوء ، وتحت غطاء جريدة منشورة على ركبتيه ، فى أخذ صور فوتوغرافية للمنظر وكان المكان مضاء بأضواء قوية ٠ واستخدم لذلك « بآلة تصوير » كان يخبئها تحت سترته ٠

وبعد فترة الراحة استأنف أعماله ، وفى الصباح سار مع باقى العمال وهم يذهبون الى القشلاقات ليناموا - وفى اليوم التالى عاد الى لوزان ومعه لفة الفيلم التى تؤيد بياناته ٠٠ وأرسلوا هذاالفيلم الى لندن ٠ وبعد أيام قلائل ضربت هذه المنطقة بالقنابل ضربا شديدا ٠٠ وبعد هذا الحادث لم يكن أى تقرير لمشيل موضع شك ٠

وتبعا لذلك فعندما وصف اكتشافه الاخير فان الضابط البريطانى ولو أنه لم يكن يعلم عن القنابل الطائرة أكثر مما يعرف ميشيل ، الا أنه نظر الى تقريره نظرة جدية وأبلغه الى لندن ٠

واذا كان ميشيل يجهل كل شيء عن أسلحة الانتقام الالمانية ، فان الحكومة البريطانية فى تلك المرحلة كانت تجهل بالمثل كل شيء عن كيفية واتجاه الهجوم القادم ٠

منذ أواخر سنة ١٩٤٢ ترددت اشاعات عن أسلحة سرية وفي ابريل كان فد وصل تقرير عن محطة تجارب فى بينموند على ساحل بحر البلطيق٠ ولكن ماذا هى تلك الاسلحة ، وكيفية استخدامها ، والجهات التى ستستخدم ضدها ، فهو ما لم يكن يعرفه أحد خارج المانيا ٠٠ وكان يظن أن هناك نوع من الصواريخ ، وظلت هذه الفكرة مسيطرة زمنا طويلا ٠

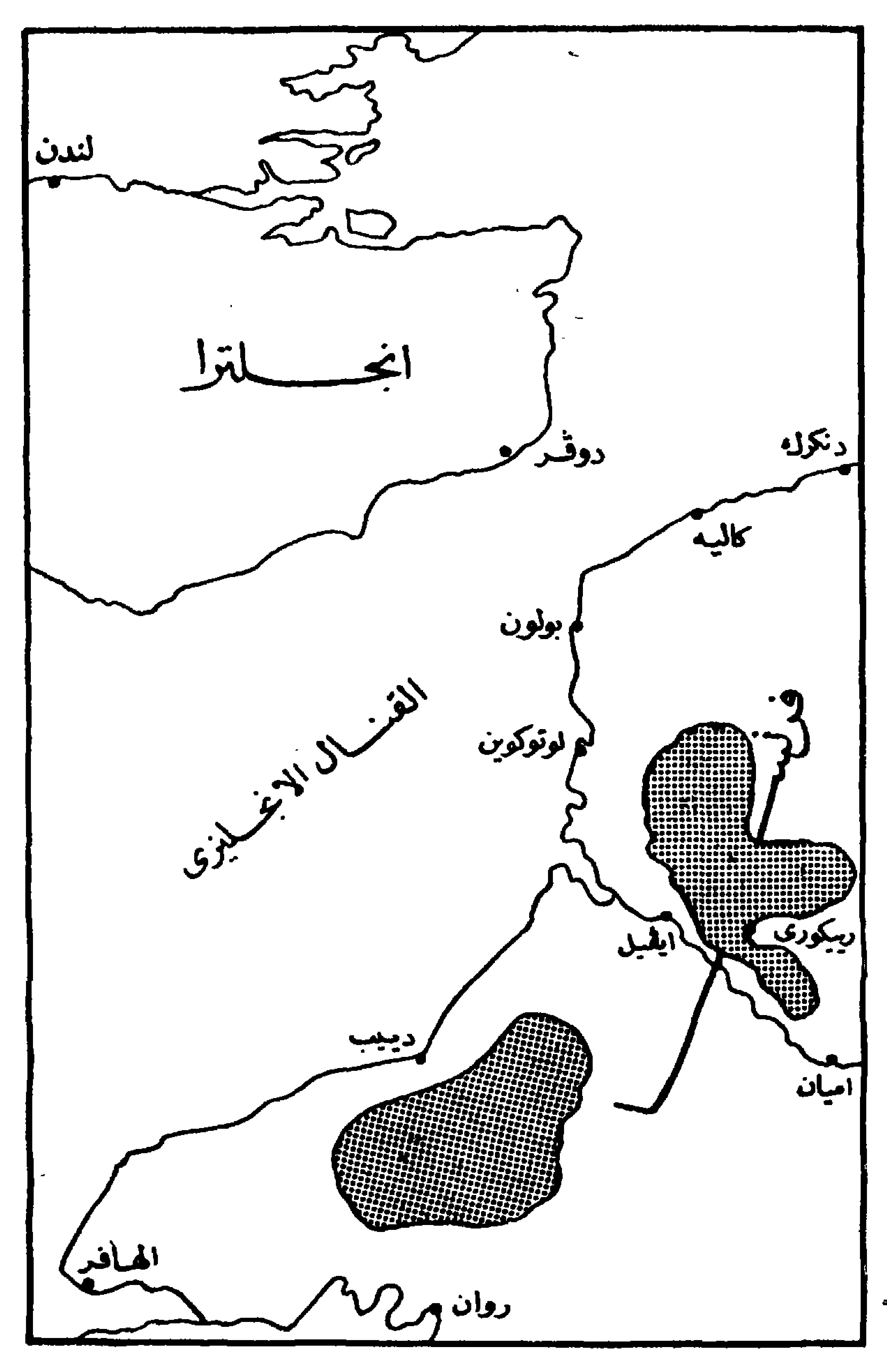
ونظرت الحكومة الى هذا التهديد نظرة جدية ، وبناء على توجيه من المستر تشرشل تكونت لجنة لدراسته تحت رئاسة المستر دونكان سانديز ٠

وفى شهر يونية ظهر أول نبأ عن « لغم جوى بأجنحة » وبعد شهرين تأيدت هذه الانباء بمعلومات أخرى ٠٠ وبمصادفة عجيبة أن وصل هذا الى علم الحكومة البريطانية عن طريق O. P. وفى الظروف الآتية ٠

بعد زيارة ميشيل المذكورة أعلاه بفترة وجيزة كان O. P. فى مكتبه بعد ظهر يوم أحد عندما دخل الى مكتبه زائر غير متوقع ٠٠ كان يرتدى ملابس العمال ، متربا ، لم يحلق ذقنه ٠٠ وقال أنه سار على قدميه من لكسمبرج يحمل رسالة عليه أن يسلمها الى رئيس المخابرات البريطانية ٠

وقال O. P. أن هذا غير ممكن وعرض عليه أن يترك الرسالة وهو سيقوم بتوصيلها ٠٠ ولكن اللوكسمبرجى هز رأسه وقال بانه يجب أن يسلمها بنفسه الى رئيس المخابرات وحاول O. P. أن يتغلب على شكوك الرجل وهذا يرفض فى عناد ٠ واخيرا اكتسب ثقته وقبل الرجل أن يترك الرسالة ٠٠ وكانت مخبأة فى حذائه ٠٠ وسلمها الرجل ورفض أن يأخذ أى مبلغ ثم انصرف ٠

كانت الرسالة مكتوبة باللغة الالمانية وبقلم رصاص على قطعة ورق قذرة ، وكانت قصيرة اقتصرت على « أن صاروخا باجنحة فى شكل السيجارة » قد أطلق من الارض لمسافة ٢٥٠ كيلومترا فى البلطيق ٠



مواقع إطلاق الصواريخ ف - ١
التي كشف عنها رجال ميشيل هولارد

وكان ذلك يبدو خياليا الى حد أن رئيس O. P. عندما عرضت عليه الرسالة تردد فى ارسالها الى لندن على أساس أن مثل هذه السخافات تعتبر مهزلة ، وتقلل من مركزها ·· على أن O. P. الذى كانت لديه فكرة أخرى واعتبرها هامة أصر على ابلاغها وحصل على اذن بارسال برقية وعلى شرط أن لا يكون لها أسبقية ·· وفى اليوم التالى وصلهم اخطار بوصول البرقية مع المطالبة بشرح الاسباب في عدم معاملة هذه المعلومات الحيوية معاملة المعلومات العاجلة ذات الاسبقية ·

وبعد ذلك بوقت قصر ، فى حوالى منتصف أغسطس سنة ١٩٤٣ كان قد تبدد كل شك حول وجود السلاح الجديد ، وذلك عندما كان شاب دانمركى يسير فى جزيرة بورنهولم Borrholm فعثر صدفة على ماكينه غريبة مدفونة فى الرمال ، واقدم فى شجاعة على عمل رسم لها ·· ووصل الرسم فى الوقت المناسب الى لندن كانت الماكينة عبارة عن نموذج للقنبلة V. I أو القنبلة الطائرة والارجح أنها تطلق من الجو ، كما قصد ذلك مخترعها فى الاصل ·

فى ذلك الوقت لم يربط البريطانيون بين هذا وبين موضوع بينموند، اذ أن هذا الاخير كان مفروضا أنه يتعلق بالصواريخ بصفة مطلقة ·

وهكذا عندما اكتشف ميشيل موقع (بونيتو نوبورج) كان كل ما يعرفه البريطانيون ، أن الالمان كانوا يقومون بتجارب على كل من الصواريخ والطائرات التى بدون طيار ·

وكانوا يفترضون أن المقصود بها استخدامها فى مهاجمة انجلترا ولكنهم لم يكونوا يعرفون من أين أو كيف سيطلقونها ·· وبخلاف مهاجمة بينموند وضربها بالقنابل بواسطة سلاح الطيران البريطانى وكذلك ضرب مراكز الانتاج ، لم تكن هناك ، اذن ، أى وسائل لاتخاذ اجراءات مضادة فعالة ·

وازداد اهتمام مجلس الحرب ورؤساء الاركان حرب بانباء السلاح الجديد ذى القوة المجهولة الذى يمكن أن يحبط خططهم لغزو القارة · وكان المستر موريسون ، المسئول عن الدفاع المدنى ، أكثر الوزراء انفعالا بطبيعة الحال ، وأعد مشاريع لاخلاء مليون من النساء والاطفال ·

ولذلك نستطيع أن نتصور مقـدار الاهميـة التى قوبل بهـا تقرير ميشيل فى لندن ٠٠ فقد كان أول دلائل قاطعة على أن التهديد كيفما كان سيكون قادما من قواعد فى شمال فرنسا وسيكون هدفه لندن ٠

وارسلت التعليمات بان يواصل تحرياته ، وان يركز جميع موارده على كشف المزيد ٠٠ وكانت هذه هى روح التوجيهات التى تلقاها من O. P. فى زيارته التالية لسويسرا ٠

واستطاع بمعاونة أحد عملائه بيير كارترون أن يعـاين عـدة مواقع أخرى ، وأمكنه أن يقف على تحديد اماكنها أما من مكتب العمل أو من رئيس العمال فى (بونتيو فوبورج) وكانت عمليـات الانشـاء والمد هى نفسها فى كل المواقع وكان يبدو فى كل الحالات أنها تتجه نحو القطـاع الجامد الذى رأى ميشيل أنه لابد أن يكون مفتاح اللغز ٠

وكان الاختلاف الوحيد بين موقع وآخر اتجاه محور القطاع كما لاحظ ذلك بواسطة البوصلة ٠٠ ولكن حتى مع اختلاف الاتجاه فقد كان الهدف هو نفسه ٠٠ وعندما رسم الخطوط على خريطته كانت جميعها تتجه نحو نقطة واحدة هى لندن ٠

وتفكيره بأنه وصل الى شىء هام كان له ما يبرره ولكنه كان لا يزال بعيدا عن ادراك مدى أهميته ٠

ولما عاد ميشيل الى باريس ، وجه كل همـه الى مهمتـه الجديدة ٠٠ كانت التوجيهات التى أعطيت له ترسم له هدفين : ان يحدد مواقع جميع الاماكن المشابهـة للمـوقع الذى اكتشفـه وأن يحصـل على رسـم كامل للتركيبات ٠٠ وفيما يختص بالاخير ، لم يعط أى دليل يمهد له الطريق فلم يسبق أن سمع اطلاقا من أى أحد عن أى علاقة محتملة بالاسـلحة الجديدة وهو نفسه كان لا يزال يجهل وجودها ٠

كان احتياجه الاول أن ينظم عملية بحث لمنطقة القنال فان المواقـع التى عاينها كانت جميعا تقع فى حدود عشرين ميلا من الساحل ، وكان من الممكن الافتراض أن المواقع الاخرى تقع هى الاخرى فى حدود مثـل هذه المسافة ٠٠ وعلم أيضا أنه كانت هناك حركة تجنيد خاصة للعمال فى منطقة السين السفلى ومنطقة بادى كاليه ٠٠ وبذلك تكون هناك منطقة معينة يقوم فيها بابحاثه ٠

وجمع فريقا من العملاء الذين يعول عليهم ، وزود كل منهم بدراجة ، وحدد له منطقة معينة تشمل جزءا من الساحل وتمتد للداخل الى عمق عشرين ميلا • على أن التجربة دلت على أن هذا الاجراء لم يكن كافيا ، وزاد مقدار عمق المنطقة تبعا لذلك •

وزود كل عميل كذلك بخريطة ، ووصف لما يجب عليه أن يبحث عنه •• وكل ما كان على العميل ، فى حالة اكتشافه لموقع ، أن يحدد موقعه بالضبط على الخريطة •

وفاقت النتائج ما كان يتوقعه ميشيل •• ففى مدة ثلاثة أسابيع استطاع عملاؤه أن يحددوا أكثر من ستين موقعا ، موزعة فى شريط من الارض يبلغ طوله حوالى مائتى ميل وعرضه ثلاثين ميلا ، ويسير بموازاة ساحل القنال الانجليزى •

وكان ميشيل يجوب المنطقة كلها مرة كل أسبوع ليقابل عملاءه ويجمع تقاريرهم ومعلوماتهم •• التى كان يأخذها معه الى سويسرا •• وقد امتد البحث بعد ذلك حتى وصل الى فالونير بالقرب من شربورج •• وفى نهاية اكتوبر كان قد تم اكتشاف مائة موقع •

وقد ابتهج O. P. بهذا العمل الحاسم الفعال ولكن ميشيل لم يكن راضيا كل الرضا • لانه كان لا يزال بعيدا عن ادراك الغرض من هذه المواقع ولم تكن لديه خطة للوقوف عليه •

كانت كل تحرياته تنتهى الى الفشل •• فقد عمل الامن الالمانى كل جهده لعدم تسرب أى معلومات عن هذا السر ولم يكن بين الاف العمال الفرنسيين الذين يعملون فيها واحد فقط لديه أدنى فكرة عن الهدف منها •

وبدت المشكلة متعذرة على الحل ، ولكن ميشيل كان يعلم أنه مالم يتوصل الى حلها ، فانه لن يجد للراحة طعما •

١٢

النصـــــــــــــر

كما هي سنة الحياة فى الغـالب ، جاءت فرصـة ميشيل الكبرى اليه مصادفة ٠٠ ولا يعنى هذا أن العاقبة كانت مصادفة بحته بل على العكس لقد قام بكل ما يستطيع من أجل تحقيقها ٠٠ ولكنه كان ـ مثل معظم القادة الظافرين ـ فى حاجة أيضا الى شىء من الحظ من أجل تحقيق نصر باهر ٠

لقد اكتشف هو وفريقه عددا كبيرا من المواقع ، وأثبت أن المقصود منها هو مهاجمة لندن ٠٠ ولكنه لم ينجح الى الآن فى كشـف سرها ٠٠ كانت مشكلة تشغله ليلا ونهارا ٠٠ ومع ازدياد هذه المشكلة الحاحا ، كلما وافته تقارير عملائه بالتقدم السريع فى حركة الانشاء فى تلك المواقع ، كان يتمثل له الخطر اذا فوجىء البريطانيون بها وهم دون استعداد ٠

وذات يوم حدث أمر أثار سلسلة طويلة من الوقائع المثمرة ٠٠ فان أحد مخبريه وهو من عمال السكة الحديد ويعرف باسم جوجو يعمل فى محطة الشمال ، قدمه الى شاب يدعى روبرت روريناخ ، الذى كان شغوفا بالانضمام الى حركة المقاومة ٠٠ كان يعيش من موارده الخاصة ولكنه على خبرة عملية ، وكان بطبعه طروبا متحررا فكان كالولد الصغير الذى يسير عندما يجذب قدم أستاذه ٠٠ وكانت تسليته المحببة أن يكتب الشـتائم على ملصقات الالمان ، وان يفض اطارات السيارات الالمـانية ولكنه الآن يريد أن يعاون بكيفية أكثر جدية ٠

وحدث أن قرأ ميشيل اعلانا من مقاول ألمانى يطلب فيه مسـتخدمين للعمل فى منطقة كورمى فيكسان ٠٠ وهو المكان الذى قبض فيه على بارت الشيء الخطر عندما كان يأخذ ملاحظات عن المطار ، وكان ميشيل لا يزال يبحث عن شخص يحل محله ٠٠ ولذلك اقترح على وبرت أن يرد على الاعلان فاذا نجح فى ذلك فانه يكون عميلا له هناك ٠٠ ووافق روبرت مسرورا ٠٠ وبعد أن جند ضمن الشبكة اتخذ له اسم روبرت دى فيك اسم قريته الاصلية

فى اللورين • رد على الاعلان ، واشتغل بوظيفة محاسب ، ولكن ليس فى كورمى فيكسان بل فى بيرنز التى تقع على بعد عشرين ميلا شمال باريس • وقابل ميشيل ذلك بالارتياح لان تلك المنطقة كان بهـا أيضـا مطار هام للاعداء •

كان العمل الذى الحق فيه لا يزال فى بدايته وكان فى حاجة الى فنيين آخرين •• وقد أوصى ذلك لروبرت بأن يقترح على أحد أصدقائه ، أندريه كومبس ، بأن يتقدم بطلبه للحصول على احدى الوظائف حتى يكون الاثنان معـا •

ولكن أندريه الذى كان قد تخرج منذ وقت قصير لم يكن راغبا فى أن يبدأ حياته العملية تحت رياسة ألمانية ، ولكن عندما أفهمه روبرت أن ذلك قد يكون وسيلة لمساعدة الحلفاء وافق أن يتقـدم واشـتغل فعلا بوظيفة رسام •

بعد ذلك بأيام قليلة تقابل روبرت مع ميشيل فى باريس لكى يبلغه عن تقدم العمل فى المطار •• فوجد رئيسه مشتت البال شارد العقل •• وقاطعه ميشيل ليسأله عما اذا كان قد سمع أى شىء عن مواقع خاصة يجرى انشاؤها بالقرب من ساحل القنال •• ورسم له رسما كروكيا يشرح له ما يقصـده ولكن هـذا كان بالشىء الجـديد على اسـماع روبرت ووعد بالمراقبة •

وعند عودته الى بيرنز وقف بجانب اللوحة التى تعلق عليها الاعلانات الهامة لمعلومية الموظفين •• ووجد اعلانا جديدا لانه كان قد سافر فى ساعة مبكرة من الصباح •• كان عبارة عن نداء موجه لفئات معينة من الفنيين يطلب اليهم التطوع لمهمة عاجلة فى مكان لم يحدد حيث يقيمون فى نفس مكان العمل •• وبالرغم من عدم وجود أى شىء يشير الى هذا العمل ، الا أنه استنتج بغريزته بأن له علاقة بالامر الذى أبدى ميشيل اهتمامه الفائق به • وكان من بين الفنيين المطلوبين رسام فلماذا لا يتطوع أندريه ؟ وكان الاثنان يقيمان فى مبنى واحد ، حيث وجد روبرت صديقه القديم •

وأغرى روبرت أندريه على التطوع وطلب اليه أن يحاول التحرى ولكن أندريه كان يوجس خفية من هذا الامر فهى أول مرة يطلب فيها منه أن يقوم بعمل غير مشروع ، ولم يكن قد قابل ميشيل اطلاقا •• وبالرغم من أنه

قدم الى بيرنز لان روبرت قد ناشد فيه وطنيته الا أنه لم يجد أى فرصة ملائمة ليستغلها ٠٠ كان يتصف بالهدوء والاجتهاد والخجل المتناهى وكان يهمه بالاكثر أن يكسب معاشه كمهندس من أن يقحم نفسه فى جهود سرية ضد الالمان ٠

على أن روبرت ، استمر فى الضغط عليه ، حتى وافق فى النهاية على وضع اسمه بالكشف ٠

وبعد أيام قلائل تلقى التعليمات ، وكان عليه أن يتوجه الى احدى المحطات النهائية من باريس فى اليوم التالى مع باقى المتطوعين ٠٠ وبدون أن يعرف الجهة التى سيرسل اليها ودع روبرت بعد أن تفاهم معه على أنه بمجرد أن تتوفر لديه معلومات ، سيحصل على أجازة لمدة يوم ويحضر الى باريس ٠

ولم يحدث شىء فى خلال الاسبوع الاول ، وعندئذ اتصل روبرت ، الذى كان قد أبلغ ميشيل بما فعله ، تليفونيا وقال أن أندريه فى الطريق الى باريس واقترح أن يجتمع الثلاثة لتناول الغذاء بمنزله ٠

كان أول مقابلة لميشيل مع أندريه ٠٠ على أن انطباعها لدى ميشيل لم يكن ملائما فقد رأى فيه فتى جبانا غير ناجح ليست له روح قوية (للمقاومة) واهتمامه منصرف الى مهنته أكثر منه الى وطنه ٠

ولكن هذا الانطباع سرعان ما اتضح بطلانه فالحقيقة هى أن أندريه لم يكن قد كيف نفسه على الحياة المزدوجة التى رسمها له روبرت ، والتى قبلها دون أى فكرة عما سيترتب عليها ٠

قال أنه وصل من ايفرنش وهى قرية تقع على بعد حوالى عشرة أميال شمال شرق ابيفيل ، وأنه قد عين للعمل فى انشاء موقع فى مكان يدعى بواكاريه يتوافق مع الاوصاف التى أعطاها له روبرت ٠٠ وكان فى الحقيقة أحد المواقع التى سبق أن اكتشفها فريق ميشيل ٠

ثم أبرز بعض الرسومات الاصلية وكانت فى الواقع أكثر افادة من الرسومات التى رسمها ميشيل نفسه ٠٠ وفى لهجة ومظهر الرجل الذى يحس بأنه ارتاح من عبء مهمة انجزها ويأمل أن لا يكلف بشىء آخر ، أبدى أنه يجب أن ينصرف ٠

وطلب اليــه ميشيل أن ينتظر لحظة لانه يريد أن يوجه اليــه بعض الاسئلة ٠

فجلس أندريه قانطا ٠

ــ أول شيء ما هو العمل الذى تقوم به فى بواكاريه ؟

ــ رسام فنى ٠

ــ وما معنى هذا العمل على وجه التحديد ؟

ــ أقوم بوضع الرسومات الخاصة بالانشاءات ٠

ــ وكيف تقوم به ؟

ــ يوجد مشروع عام رئيسى يوضح الوضع العام ٠٠ وعملى أن أضع التفصيلات الخاصة بكل موقع على حده ــ وبطبيعة الحال تختلف كل واحدة عن الاخرى ٠ تبعا لحجمها ، وطبيعة المنطقة المجاورة لها ، ووسائل الوصول اليها ألخ ألخ وأستطيع أن أقول أنه عمل كبير ، ولا أحصل على أى مساعدة من أحــد ، ومع ذلك فانى أقوم به على أكمل وجــه ٠ والالمــانى مسرور منى ٠

ــ ومن هو هذا الالمانى ؟

ــ هو الضابط المسئول عن العمل ٠

ــ هل هو واحد فقط ؟

ــ واحد مستديم ، أما الآخرون فيذهبون ويجيئون ٠

ــ وعلى ذلك فانك تتحمل مسئولية هامة ٠

فأجاب أندريه بافتخار حقا ٠٠ وتستطيع القول فى الواقع أننى الرجل الذى أقوم بكل العمل ٠

وفي غمرة التحمس بعمله الجديد · وكان أول عمل يقوم به بعد تخرجه كمهندس · تلاشي خوف أندريه وتردده ·· وبدت في وجهه من جديد نظرة القلق ·· ثم قال بعصبية أنعشم أن هذه الرسومات تساعدكم لانى فى الواقع أعتقد أنه يجب على أن أعود الآن ·

ولكن ميشيل أغراه بقوله : لعلك الرجل الفرنسي الوحيد الذى يستطيع أن يحصل على ما نحتاج اليه فعلا مجموعة كاملة وتفصيلية من الرسومات ·

وتطلع أندريه كالمذعور وتمتم قائلا أخشى أن يكون هذا الامر عسيرا ·

ـ ولماذا وأنت الشخص الوحيد الذى من حقك الاطلاع عليها ، انى أعتقد أنك الوحيد الذى يكون هذا الامر سهلا بالنسبة اليه ·

وقال أندريه وهو يشعر بمزيد من المضايقة : هذا صحيح ولكن منذ كلفني روبرت بهذه المهمة ، طلب منا الالمان التوقيع على تعهد بأن لا نبوح بشيء عما تفعله ·

وقال له ميشيل : ان هـذا لا يهم بأى شيء فنحن في وقت حرب ·· وأنت مجند أنت وعملك ·· وأنت لست بعميل حر ·· وأى تعهد فى مثل هذه الظروف لا يلزمك بشيء ·

وهز أندريه كتفه يائسا وقال لعلكم على حق ، لم أفكر فى هذا الامر من قبل ·

ـ لعل ما في الامر أنك ربما تكون خائفا ؟

وركز أندريه نظره الى الارض ·· وقال بعد لحظـة لم أفكر في هـذا أيضا ·· ولكن بما أنك ذكرته ، يبدو لى أنك تريد أن تطلب منى أن أقوم بشيء خطير للغاية ·

وقال ميشيل : حسنا اننا أصبحنا الآن متفاهمين ·· فخوفك هـو أمر طبيعي ·· فاننا جميعا خائفون ·· وربما كنت أنا أكثركم خوفا · ثم وقف وأخذ يمشي فى أنحاء الغرفة ، وفى هذه الاثناء خرج روبرت لكى يتحدث الى زوجته وبقى هو وأندريه وحدهما ·

وكان مبدأه أن لا يحاول ارغام أى شخص على غير رغبته · أما الاستثناء فعندما لا يجد وسيلة غير ذلك · وهذه الحالة هى احدى هذه الحالات ·· لقد وضعت الظروف أمامه العميل الذى يستطيع أن يحصل على أكثر المعلومات أهمية وحيوية وقلما تجود الفرص بشخص آخر فى وضع أندريه يستطيع أن يؤدى هـذا الغرض ... لأنه فى المواقع الاخرى لا يعـرف من الرجال الفرنسيين من هو أكثر من رئيس عمال ·· والوقت يمر سراعا ·· فاما أندريه واما لا أحد ·

فقال له ·· استمع لى يجب أن أصارحك القول ·· ان أمامك الفرصة ، والارجح أنها الفرصة الوحيدة ، لتقدم خدمة عظيمة للوطن ·· وواجبك كرجل فرنسى أن تقوم بها ·· انى لواثق أنك لو فكرت مليا سترى هـذا الرأى · ولكن يجب أن أحذرك أنه فى حالة رفضك فستكون مجرما بالضبط كالجندى الذى يهرب من الميدان ·· وستعامل تبعا لذلك ·· هل تفهم ؟

وهز أندريه رأسه موافقا ·

ـ فماذا اذن ؟

ـ على هذا الوجه لا أرى أنه ليس أمامى سبيل للاختيار ·

ـ وعلى ذلك ستقوم بالعمل ·

ومضت فترة قبل أن يتمتم أندريه بكلمة « نعم » قال ميشيل : حسنا · سأمهلك أسبوعين ·· وفى نهايتها أريد منك أن تقابلنى هنا ومعك صور من جميع الرسـومات وكلما كثرت تفاصيلهـا كلمـا كانت أفضل ··· اتفقنا ؟

فهز أندريه رأسه · ولكن كان لا يزال يبدو عليه الشك والتردد فقال سيكون خروجنا صعبا فان الالمان لا يصرحون لنا بالغياب بأى أجازة ·· وقد حضرت اليوم دون أن أخبرهم ، وعلى أن أبـدى بعض الاعـذار لدى عودتى ·

ـ عليك أن تتظاهر منذ الاسبوع الثانى بآلام فى المعدة ثم تزداد هذه الآلام شدة الى أن تصبح غير قادر على مواصلة العمل · وعندئذ تطلب اذنا بالقدوم الى باريس للمعالجة بواسطة طبيبك الخاص ·· وبمجرد أن تحضر على أنا تدبير الباقى ·

ـ حسنا سأفعل كل ما أستطيع ·

ـ انى متأكد أنك ستفعل فانى أثق بك والآن يحسن أن تعود ·

ومضى أسبوعان دون أية أنباء ·· كان ميشيل متغيبا عن باريس يقوم بجولته لجمع الأنباء ، ولم يسمع شيئا عن روبرت الذى كان حلقة الاتصال بينه وبين أندريه ·· وكان قد أخذ رسومات أندريه الخاصة بالموقع وذهب بها الى سويسرا لضابط المخابرات البريطاني الذى ألح عليه مرة أخرى بضرورة الحصول على مزيد من المعلومات الدقيقة ·

فى تلك الأثناء كانت قد تقدمت معرفة البريطانيين بالصاروخ الى حد أنه كان من المعروف أن الطائرة بدون طيار المشابهة للآلة التى عثر عليها الدانمرك فى بورنهولم تمر بمرحلة التجارب الخاصة بها فى بينموند) ·

ولكن علاقة السلاح الجديد بمحطة التجارب السرية كانت لغاية هذا الوقت لا تقترن الا بالصواريخ فقط ومن ثم فان أحدا لم يربط تلك العلاقة بالمواقع الجديدة فى فرنسا ·· ولذلك فمن وجهة نظر الدفاع ضد هذا التهديد لم تكن الحكومة البريطانية متقدمة كثيرا ·

فى نفس الوقت كان ميشيل يفكر فى قلق فى النجاح الذى حققه أندريه ·· وأخذ يتساءل عما اذا كان قد أخطأ بمجازفته فى أن يعهد بكل هذا الامر الى مثل هذا الشاب الصغير · والذى كان ، على ما يظهر ، يبدو وجلا مذعورا ·· أم أنه أساء الحكم عليه ؟ صحيح أن الانطباع الاول لم يكن فقط من أجل اعطائه تلك الثقة .. فقد كان هناك شىء فى أندريه يبعث على الثقة · ان لم يكن فقط اخلاصه فى اعترافه بخوفه وفزعه ·· فلو أن شخصا أقل أمانة لالتمس لنفسه عذرا آخر ·

وعمل ميشيل ترتيبه للعودة الى باريس فى صباح اليوم المحدد لاجتماعهم التالى ·· وبمجرد وصوله اتصل بروبرت ليتأكد من أن الاجتماع

سيتم وكان الرد بالايجاب اذ قال أن أندريه أرسل فى الليلة السابقة نقول بأن ينتظراه على الغذاء فى شقة روبرت ٠

وعندما وصل ميشيل الى شقة روبرت كان أندريه هناك وقبل أن يتبادلوا أى كلمة ، استشف ميشيل من ملامح وجهه أنه قد نجح ٠٠ ولو أنه كان لا يزال خجول الطبع الا أن مظهر القلق قد زال عنه ٠٠ وبدلا من أن يبدو فى طابع صبى مذعور بدا رجلا كبير الثقة فى نفسه ٠

وفى اثناء تناولهم الطعام قص أندريه حكايته ان أخذ صور الخرائط لم تكن مسألة صعبة ٠٠ فهى تلك الخرائط التى رسمها بنفسه على آساس المشروع الالمانى الاساس ولكنها معدلة طبقا للاحتياجات المحلية ٠٠ وكانت تحفظ فى الكشك الذى يستعمله مكتبا له والذى يكون فيه بمفرده عادة ، لم يكن عليه الا ان ينتظر لحظة هدوء ، يكون فيها مطمئنا من أن لا يزعجه أحد ثم يأخذ فى شف الرسومات ٠٠ وهذا ما فعله فى مدة ٤٨ ساعة من عودته من باريس ٠

ولكنها لسوء الحظ لم تكن كاملة لان أهم الخرائط لم تكن موجودة ، وهى الوحيدة التى كانت الانشاءات التى تقام على القطاع الجامد الخرسانى ٠ وكان أندريه يعلم أن هناك خريطة منفصلة لم يظهروها له ٠٠ وسوى بعض حفريات مربعة الشكل حول كل من جانبى هذا القطاع الجامد ، فانهم لم يقوموا بأى أعمال أخرى عليه ٠٠ ولكنه كان غالبا ما يلاحظ المهندس الالمانى يرجع الى خرائط شفافة ، كما كان يلاحظ أن المهندس الالمانى بعد أن يتم الفحص يعيد الرسم الى جيب معطفه الداخلى ٠

وبمرور الايام كان أندريه يزداد اقتناعا بوجود حلقة مفقودة ٠٠ وكان عليه بكيفية أو بأخرى أن يحصل على الرسم ، ولكن كيف يحصل عليه بالضبط ، هذا ما لم يكن يعرفه ٠٠ انه لم يكن يخرج اطلاقا من معطف المهندس حتى وهو فى مكتبه الذى كان يجاور مكتب أندريه ٠

ولاحظ أندريه أن الالمانى كان يغادر مكتبه فى الساعة التاسعة من صباح كل يوم بالضبط بدون معطفه ، ويسير الى طرف الموقع الى خلف ستار القماش الذى يغطى دورات المياه ٠٠ وبعد وقت يعود الى مكتبه ٠٠ كان لا يتأخر أكثر من خمس دقائق ٠٠ ولكنه كان يتأخر مدة أطول عندما يأخذ معه احدى الجرائد ٠

وبعد مرور يومين أو ثلاثة على اكتشاف أندريه لتحركات الالمانى خيل لاندريه أنه أصيب بشلل فى تفكيره ٠٠ لم يستطيع أن يقنع نفسه بقبول النتيجة التى لا مفر منها ٠ أنه لكى لا يفشل فى مهمته فليس أمامه الا أن يسرق الرسم الشفاف وهذا لا يمكن أن يتم الا فى خلال احدى فترات غيابه اليومية القصيرة التى يترك فيها الالمانى معطفه ٠

وكلما إقترب الموعد الذى حدده له ميشيل كان الخوف يجعله يخشى من مواجهته بفشله فى مهمته ، فكان هذا حافزا أقوى من خشية العواقب حتى اذا ضبطه الالمانى متلبسا بالسرقة ٠٠ وقبيل موعد سفره الى باريس بيومين قرر أن يقوم بالمحاولة ٠

وشاء الحظ أن يكون هذا اليوم التى لم يترك فيها الالمانى صحيفته ، الى حد أنه كان يواصل القراءة حتى وهو يسير الى دورات المياه .. وقد شجع هذا أندريه الذى قفز لاستغلال الفرصة السانحة ٠٠ وقبل أن ينتظر حتى الى أن يختفى الالمانى عن نظره ، كان قد دخل الى المكتب المجاور وشاهد المعطف معلقا ، فأدخل يده فى الجيب الداخلى وأخذ الرسم الشفاف ٠

ولما عاد الى مكتبه ، وشف الرسم بسرعة ووضع المقاسات اللازمة وكتب بعض الملاحظات بالاختزال ٠ كان قد استغرق منه هذا العمل ثلاث دقائق ٠ وكان لا يزال أمامه نصف دقيقة تكفيه لكى يجرى الى الغرفة المجاورة ويعيد الرسم الى مكانه ثم يعيده هو الى غرفته ٠٠ وعندما عاد الالمانى ، بعد حوالى دقيقة ، كان أندريه يعمل فى هدوء على مكتبه ٠

وفى اليوم التالى أبلغ عن مرضه وأنه يشعر بغثيان وآلام فى بطنه ٠٠ وارتاب الطبيب الالمانى فى حالته ، ولكن لما استمر أندريه يتقايأ فى عيادة الطبيب صرح له بأربعة أيام أجازة يعالج فيها بمنزله ٠

وقال ميشيل بعد أن انتهى أندريه من الادلاء بقصته : « لقد أحسنت صنعا وحققت الثقة التى وضعتها فيك ٠٠ ولكنك لم تنجز كل مهمتك بعد ، فستحتاج الى عدة أيام لتفسير هذه الرسومات وتضع عنها مشروعا معقولا ٠ وعندئذ أستطيع أن آخذه الى سويسرا ، وهناك سيتأخر مدة أخرى لحين إرساله الى لندن ٠٠ ومن الضرورى أن تبقى فى باريس الى أن يتم استلامه هناك ٠ وسنحصل لك على امتداد لاجازتك ٠

وبفضل رادول مونود طبيب عيادة شارع (سرجنت بوشا) التى كان يعالج فيها جوزيف بارت ، أمكن تدبير هذا الامر ، وأرسلت شهادة الى الطبيب الالمانى بأن المريض فى حاجة الى عشرة أيام راحة تامة ويطلب امتداد أجازته ٠

والمشكلة الثانية هى ايجاد المكان الامين الذى يستطيع أن يعمل فيه كل من أندريه وميشيل فى هذه الرسومات بدون أن يعطلهما أو يزعجهما أحد ٠٠ وقد حلت هذه المشكلة باستعمالهما منزل أحد أقارب أندريه ، فى منطقة سانت هيلير خارج باريس ، وكان خاليا لا يشغله أحد ٠

وظل الاثنان يعملان فى هذا المكان طيلة الاربعة أيام التالية ، ولاسباب الامن لم يأخذ أندريه معه من الادوات الا أقلها ، حتى اذا وجدت معه ، أو فى مسكنه ، أمكن تدبير ذلك بأنها للعمل المنزلى ٠٠ وكانت تتكون من تشكيلة من الرسومات الكروكية والشفافة والمذكرات والاخيرة كانت بالاختزال ٠٠ ومن كل هذه مع الاستعانة بذاكرته ومعلوماته الفنية ، وكذلك بمساعدة ميشيل الذى كان مهندسا هو أيضا ، أمكن تجميع متكامل ورسم شامل عن الموقع ، كما سيظهر عندما تنتهى جميع المنشئات ٠

وكان مجهودا جبارا وكثيرا ما احسا بالفشل وفى مرات عديدة كاد ــ وهو الذى تثبط عزيمته بسهولة ــ أن ييأس ولكن ميشيل كان يشجعه ٠ وكان يخرج بنفسه لشراء الطعام ويطبخه بنفسه ٠٠ ولكن بالتدريج ظهر المشروع مرسوما بكل دقة طبقا لمقياس الرسم فأسفر عن المشروع الاجمالى ٠ وكانت المعالم الرئيسية التى وضحت من اعادة رسم المشروع أن الموقع المستطيل الشكل مساحته بالتقريب ٣٥٠ ياردة × ٢٠٠ ياردة ، يبين عددا من المبانى الصغيرة والارصفة الخرسانية المتصلة بشبكة من الطرق الموصلة بينها ٠٠ وكما لاحظ ميشيل من قبل كانت الطرق تتجه نحو الركن الشمالى من الموقع ٠٠ أى الركن الاقرب الى انجلترا ٠٠ وكان هذا يمتد بواسطة القطاع الخرسانى الذى سبق أن لفت اهتمامه قبل ذلك والذى كان يعتقد دائما أن فيه مفتاح اللغز ٠

ولكن أخيرا أصبح من الممكن أن يتبين المقصود منه ٠٠ فنسخه الشفاف التى سرقها أندريه ، أظهرت أن وظيفته هى أن يساعد على أن يكون ممرا

منحرجا يبلغ طوله حوالى ١٥٠ قدما يرتفع بزاوية قدرها ٥٠ درجة ويحمل خطين معدنين أشبه بخط سكة حديد ضيق المسافة ٠٠ ويتجه محوره ، كما أكد أندريه ، نحو لندن ، على مسافة ١٣٠ ميلا بما لا يترك مجالا لنشك بأن المقصود منه هو اطلاق نوع من الصواريخ يكون هدفها العاصمة البريطانية٠ والبناء المستطيل فى سفح المنحدر كان على ما يظهر هـو النقطة الاولى ٠٠ والابنية الاخرى ، واحدها مصمم على القاعدة غير المغنطيسية ، كانت على التوالى تختص بالتجمع ، والتخزين والوقود وما الى هذا ٠

كانت هناك ظاهرة أخرى عجيبةولكن أهميتها أو دلالتها كانت لا تزال غامضة الى ذلك الوقت ٠٠ ان بعض المبانى كانت ممتدة على شكل قطاع منحنى ، بحيث كانت ترى من الجو فى هيئة « زحافة » مقلوبة على أحـــد جانبيها (أداة الزحلقة على الثلج) وهذا ما جعلها تسمى فيما بعد بواسطة سلاح الطيران البريطانى (مواقع السيكى) والواقع أن هدف هذه المبانى المقوسة الشكل كان تخزين القنابل الطائرة ، كما أنها كانت تستخدم كملجأ يمكن أن يلجأ اليه الافراد عندما تطلق القنبلة ٠

ويستطيع الخبير بمعاونة هذه الرسومات أن يعيد تمثيل الاجراء التام لتجميع واطلاق القنبلة الطائرة ـ ولو أن بعض تفصيلاتها ـ لا تزال مجهولة حتى تم الأستيلاء على المواقع وعلى بعض قنابل سليمة ٠

وبالاختصار كان الاجراء كما يلى :

عند اطلاق قنبلـــة كان يقتضى أولا أن تجمع وتفحص ، مع ملاحظة وجود رأس الحربة فى مكانها ، على رصيف المراجعة ثم تنقل بعد ذلك الى رصيف الانتظار الذى يوجد الى جانبه مكتب الرئيس الفنى .. والذى يتجه محوره فى اتجاه موازى لاتجاه الممر المنحدر ٠

وفى مبنى (الريشتو) الذى تدخله القنبلة على قضبـــان يوجد شيء أشبه بأرضية دواره ، التى تساعد على تدويرها قبل أن تصبح واحد مع المحور ٠٠ وعندئذ توضع بوصفها الدوارة (الجيروسكوبية) على الصفر ٠ فاذا حدث اثناء طيرانها التالى أى انحراف عن خط مسيرها ، فان البوصلة ترسل اشارات اليكترونية تصحح الخطأ ٠

وبعد اتمام المراقبات عليها ترسل القنبلة بعد ذلك الى سفح ممر منحدر فتزود بالوقود وتوضع فى وضعها الصحيح ٠٠ وتصبح عندئذ جاهزة للاطلاق ٠

ويتصل بالممر المنحدر سطحان بهما قضبان موجهه تنقل القنبلة بواسطتها ، باستناد ذيلها الى زلاقة ٠٠ وتحت القضبان مباشرة توجد اسطوانة ـ أنبوبة الاشتعال ـ مركب فيها كباس على شكل الدمبلز ولهذا الكباس سن بارزة تشتبك مع جهاز الأشعال فى القنبلة الطائرة فاذا ما اشتعل فانها تنطلق بسرعة هائلة فوق الانبوبة حاملة الصاروخ أمامها ٠

وبمجرد أن تترك القنبلة الممر المنحدر وتصبح محمولة فى الهواء فانها تستمر بقوتها الخاصة ـ اذ كانت تدفع بواسطة نوع من جهاز دفع نفاث ـ بينما يندفع الكباس والزلاقة المخروطية الشكل فى الهواء قبل السقوط الى الارض على بعد ٢٠٠ أو ٣٠٠ ، حيث تلتقط ثانية ، وتستعمل مرة أخرى ٠

والقوة الدافعة لاطلاق القنبلة كانت بواسطة « مدفع بخارى » مثبت فوق كتلة خرسانية ضخمة هى التى تتحمل صدمة الارتداد ٠٠ وبينما يتكون الضغط خلف الكباس يكون الصاروخ ممسوكا بواسطة مزلاج مثبت فى زاوية فى قاعدة المنحدر ، فاذا ما وصل الضغط الى قوة كافية لقطع المزلاج ، فان الكباس والقنبلة يتحرران وينطلقان معا الى الامام ٠

واثناء عملية الاشعال ينسحب الملاحون الى ملجأ للوقاية من القنبلة وكابنية الاشعال رقم (٧) التى تدار منها العملية الميكانيكية بواسطة الاشراف البعيد ٠٠ ويشاهدون العملية من خلال فتحة ضيقة عليها طبقة من الزجاج السميك وبالرغم من هذا الاحتياط فقد وقعت عدة حوادث خلال المراحل الاولى فقتل كثير من الالمان بسلاحهم ٠

وعندما برزت الصورة النهائية أحس كل من ميشيل وأندريه بشعور الاعجاب الذى يحس به عالم الآثار الذى استطاع من بضعة بقايا متناثرة

أن يقيم البناء الضخم الذى كان يتكون منها قبلا ٠٠ وكان من العسير فى الواقع الاعتقاد بأنهم قد حلوا اللغز فعلا ، ومع ذلك فان ميشيل كان واثقا من أنه حتى ولو لم يكن قد أدرك كل شيء بنفسه ، فقد أصبحت بين يديه جميع البيانات والمادة الاساسية التى كانت تبحث عنها المخابرات البريطانية بشغف شديد ٠

على أنه لم يكن هناك وقت للمباهاه وامتداح الذات ، فان مدة الايام الاربعة التى منحت كأجازة لاندريه قد انتهت ولم يصل اخطار بالموافقة على الامتداد ٠٠ واذا أخذ الالمان فى التحرى عنه فقد تثيرهم الشكوك ٠٠ وكان من الضرورى أن يتوجه ميشيل أولا الى سويسرا ٠

وبعد أن طلب ميشيل من أندريه بأن لا يظهر بقدر الامكان ، وان لا يعود بحال ما الى (ايفرنش) قبل أن يرسـل اليه ، عاد ميشيل الى باريس ٠٠ وفى نفس الليلة قام متجها الى الحدود السويسرية ، يحمل الرسومات فى حقيبته ٠

١٣

اســتغلال النصر

لم تكن مواعيد مقابلات ميشيل مع زميله البريطانى تحـــدد مقدما اطلاقا ·· كان يكتفى فقط باخطاره تليفونيا أنه فى الطريق اليه بمجرد أن يعبر الحدود ·· وكانت هذه المحادثات باصطلاحات رمزية يتفق عليها فى الاجتماع السابق ··

وفى هذه المناسبة الاخيرة أبلغه ميشيل بأنه اشـــترى التـــذاكر وأن العرض سيبدأ فى الساعة الثانية ثم أضاف وقد حصلت على مقاعد جيدة للغاية ··

واستعد .O.P لتلقى معلومات استثنائية ولكنه مع ذلك قد ذهل من فيض هذه الغنيمة الثمينة التى جاء بها ميشيل التى تتكون من دستة من الرسومات الفنية مع المشروع الاســـاسى ·· كانت مجموعة كاملة من الرسومات لأحد مواقع « السكى » مجموعة لا يحتاج المهندس المعمارى الى أكثر منها لتشييد هذا الموقع ·· وقص ميشيل على وجه السرعة كيفيـــة حصوله عيها ··

وشعر .O.P بالنصر ·· انه لأمر هائل ·· انه أعظم شىء حصلنـــــا عليه ·· سنرسل الغنيمة كلها فى الحقيبة فورا ونظر الى ساعته وقال : انهم يقفلونها فى الساعة الرابعة واندفع خارج الغرفة وبعد دقائق عـــاد ليقول ان كل شىء قد تم ·· وأخروا الحقيبة الدبلوماسية ســـاعتين عن موعدها ليضعوا فيها هذا الطرد الثمين ··

وكتبوا صورة برقية شرحوا فيها التفصيلات الفنيـــة للمشروع ثم وضعت البرقية بالشفرة لارسالها ، وسأل ميشيل متى تصل الحقيبة الى لندن ؟

ــ فى مدى أربعة أيام ·

ـ وهل سيخطرون بوصولها فى الحال ؟

ـ هذا هو الارجح ··

ـ اذن فسأعود بعد أربعة أيام ·· وما لم أعرف أنهـا وصلت بأمان فلن أسمح لأندريه بالعـودة الى بواكاريه فان ذلك قد يؤدى الى موته ، والواقع الى ما هو أسوأ من ذلك ·· وقد طلبت اليه أن يبقى فى باريس الى أن أتصل به ··

ـ حسنا ، سأنتظرك ··

وبعد أربعة أيام عاد ميشيل الى لوزان ، واستغل هذه المدة فى عمله جولة فى ميدى للقيام باتصالاته المعتادة وجمع التقارير من عملائه ··

وقابله O.P. مشرقا ومن غير كلمة قدم له البرقية التى قرأ فيهـا : « الغنيمة وصلت بأمان ـ تهانينا » ·

وقال O.P. اذا لم نكن قد قمنا بأى عمل للآن أو لن نقوم بأى عمل آخر فيما بعد فان هذه العملية فيها الكفاية ··

ولم يكن فى هذا القول مبالغة ·· فان كشف تهديد ال V. 1 بـكل تفصيلاته ، قبل اطلاق أول قنبلة طائرة بوقت طويل كانت عملية جبارة كانت الحكومة البريطانية بأسرها تكرس لها كل مواردها ، وكان يشتغل فيها آلاف من المواطنين من رئيس الوزراء الى أقل عميـل سرى يجـرى بدراجته فى الازقة الفرنسية المتربة · ·

وما من شك فى أن رسومات موقع بواكاريه كان لها تأثـير حاسـم على هذه العملية ·· فعندما وصلت الى لنـدن فى أواخر أكتـوبر كانت الحكومة البريطانية تعلم عن وجود القنبلة الطائرة ولو أنهم كانوا يشيرون اليها « بالطائرة التى بلا طيار » وكانوا يعلمون أيضا بأن تجارب تجرى بشأنها فى بينموند ·· ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا الصلة بين معلوماتهم هذه وبين المواقع الذى اكتشفت فى فرنسا ·

وبعد استلام الرسومات ببضعة أسابيع ، كشفت صورة فوتوغرافية أخذت بمعرفة سلاح الطيران البريطاني عن منشئات موجودة في بينموند مشابهة للمنشئات الموجودة فى بوا كاريه من كافة النواحى بما فى ذلك المنشئات المنحنية المشابهة للزحافة (سكى) ·· وهكذا نشأت لاول مرة العلاقة بين بينموند والمواقع الموجودة فى فرنسا وقوى الاعتقاد بأن المقصود بها أن تستخدم كأرصفة لإطلاق السلاح الجديد ··

وقد تأكد هذا الرأى بعد ذلك بأيام قلائل . وبالضبط يوم ٢٨ نوفمبر عندما أظهرت صورة فوتوغرافية أخرى أخذت فى بينموند طائرة بدون طيار رابضة فى أحد ممرات المطار ·· بذلك انضمت الحلقة الاخيرة فى سلسلة الشواهد ··

وهكذا كان الدور الذى قامت به شبكة « العمل » عظيم الاهمية ، منذ بدأت بو بورنهولم الى بينموند ، ومن بينموند الى بونيتو فوبورج ، ومن بونيتو فوبورج الى بواكاريه ومن بواكاريه الى بينموند مرة أخرى . وقد أثبتت أهميتها الجهود المشتركة للمخابرات الارضية والجوية ·· وقد ورد على لسان رئيس الوزراء تقدير لتلك الجهود فى ذلك الوقت ·· لقد كشفت تلك الجهود عن الموقع الاول ، وحددت أماكن معظم المواقع الاخرى وأحرزت أول مشروع كامل للموقع ··

وعبر تشرشل بعد ذلك عن تقديره الشخصى للعملاء جميعا · وكانوا يشملون بالطبع ليس الفرنسيين فقط بل البولنديين أيضا وغيرهم من جنسيات أخرى ·· الذين خاطروا بحياتهم لانقاذ بريطانيا من الخطر المحدق بها ·· وهذا ما كتبه فى هذا الصدد : « ان مخابراتنا قد لعبت دورا حيويا ·· بحيث وصل الى علمنا فى الوقت الملائم بالضبط حجم السلاح وكيفية أدائه ، ومدى نطاق الهجوم المقصود به ، الامر الذى مكن مقاتلاتنا من الاستعداد ·· كما وقفنا على مواقع الاطلاق وكهوف التخزين مما مكن قاذفاتنا أن تعطل الهجوم وتخفف من شدته ·· وقد استخدمت كل وسيلة معروفة من أجل الحصول على المعلومات ، وقد جمعت هذه المعلومات جنبا الى جنب ببراعة هائلة ·· والى جميع هذه المصادر ، وكثير منها كانت تعمل وسط أشد الاخطار ، وبعضها سيظل غير معلوم لنا الى الابد ، الى هؤلاء جميعا أعبر عن شكرى وتقديرى » ··

وبطبيعة الحال لم يكن ميشيل يعلم شيئا عن كل هذا ‥ وشـــأنه مثل أى فرد آخر ممن سمعوا الاشاعات ـ التى ظهرت فى الصحافة ـ عن الاسلحة الجديدة ‥ ولكنه كان يجهل كلية ما كشف فى بينموند وغيرها وكيف أنه كان يتوافق مع اكتشافاته ٠

والارجح أن زميله البريطانى لم يكن أكثر اطلاعا ـ فلم تكن سياسة القيادة العامة أن يشاطرها المرؤوسون أسرارها ‥ ولكن حتى لو سمح رؤساء O.P. باطلاعه على تلك الاسرار لكي يكون معهم فى الصورة ، فانه لا يستطيع أن يطلع ميشيل عليها طبقا لقواعد عمله ‥

وهناك سبب معقول لهذا الاجراء ‥ لانه لو وقف أى عميـــل فى الميدان على أسرار العمل الذى يكلف بالحصول على معلومات عنه ، فسيكون هناك اغراء قوى يجعله يصبغ تقاريره تبعا لذلك ‥ علاوة على أن حصوله على معلومات أخرى ، فيه مجازفة على أن يقف العدو على أنه تم الحصول على هذه المعلومات ‥

وتبعا لذلك فانه بخلاف تلغراف التهنئة ، لم تكن لدى ميشيل أى فكرة عن الاهمية الفائقة التى علقتها لندن على رسومات بواكاريه ‥ لقد كانت عملية أخرى هامة قام بها ‥ وقد حان الوقت للعودة للقيـــــام بمهمة أخرى ٠

كان الوقت متأخرا لا يسمح بالوصول الى الحدود قبل الظلام ، ولذلك قرر أن يقضى الليلة فى نيوشاتل ، وكأنه أراد أن يحتفل بمناسبة عملية هامة قام بها على أنه لم يشرب الا قليـــلا ٠ وكان علمـــه بأنه نجح وأنه يستطيع أن ينام دون خوف من الخطر بمثابة مكافأة كافية على جهوده ٠

وفى اليوم التالى عبر الحدود وعاد الى باريس حيث وجد روبرت وأندريه فى انتظاره فى مسكن روبرت ‥ وشربوا الشمبانيا بناء على الحـــاح روبرت ٠ وكان على أندريه الذى انتهت أجازته فى ذلك اليوم أن يعود الى بواكاريه ٠ وقال له ميشيل : ان التهانى التى أرسلها البريطانيون موجهة اليك أصلا ولكن هذا لا يجب أن يكون سببا فى التراخى فانى أتوقع منك أن تواصل تعريفنا بكل جديد من التطورات فى بواكاريه ‥ وابتسـم

أندريه ·· فقد أصبح هو وميشيل متفاهمان الآن وسأل ما الذى ينوى أن يفعله البريطانيون بما نعطيه لهم من معلومات ؟ فقال ميشيل بلهجة دبلوماسية « علينا أن ننتظر ونرى » ·

وكان هذا السؤال دائما ما يوجه اليه من عملائه ، فالذين يعرضون حياتهم للاخطار للحصول على بعض المعلومات يهمهم بطبيعة الحال أن يروا النتائج · ولو كانت النتيجة فى شكل هجوم شديد الوطأة بواسطة سلاح الطيران البريطانى تكون أفضل ··

ولكن الغالب أنه لم يقع شيء على الاطلاق ·· ولذلك فانه للاحتفاظ بروحهم المعنوية ـ وربما كانت هذه أشق مهمة ـ كان ميشيل يؤكد لهم الاهمية العظمى التى تعلقها بريطانيا الخليفة على جهودهم ·

وبهذه المناسبة سأل هو نفسه .O.P نفس السؤال ·· فكان الرد « أعتقد أنهم سيضربون المواقع بالقنابل ولكن الله وحده يعلم متى يكون ذلك ·· انهم لا يعرفوننا على أى حال » ·

وتسلم ميشيل بعد ذلك رسالة من روين ـ كانت مرسلة من ناظر المحطة بير بوجيه ، وكان أحد أصدقاء دودمار ، المخبر الذى أوصل ميشيل الى طريق المواقع ·· وكانت الرسالة تقول ان بعض الاقفاص غير العادية الشكل قد وصلت أخيرا الى روين فى عربة بضاعة وأنها أرسلت الى محطة أوفاس ··

وكان ميشيل يهتم دائما بأمر أوفاس التى كانت نقطة البداية فى أهم عملية مثمرة قام بها للآن ·· ولذلك قرر أن يقوم بتحرياته ، وأبلغ أحد عملائه ، بيير كارترون ، الذى أظهر نجاحا فائقا فى تحديد بعض المواقع لمقابلته فى المكان نفسه ·· ولم يكن المسيو بوردون ناظر المحطة الذى بدأوا تحرياتهم لديه ، معروفا لاحد منهما ، ولكنه كان راغبا فى الحديث معهما ·· فأخبرهما أن العربة بمحتوياتها العجيبة قد خزنت فى حظيرة تابعة لمصنع السكر المحلى ، الذى كان فى الغالب الباب الثانى فى المحطة ولكن على الجانب الآخر من السكة الحديد ·· وكانت هذه الحظيرة قد صار الاستيلاء عليها وكانتعليها حراسة شديدة بواسطة نقط الحراسة الالمانية ·

وقد أيد الاستطلاع الاولى هذه المعلومات ‥ كانت الحظيرة تقـوم فى ركن من مبانى المصنع وكانت متصلة بالخط الحديدى بواسطة خط فرعى وكان يفصلها عن الخط الحديدى طريق بالقدم موازى للخط الحديدى ‥ وكان أحد جنود الحراسة يمر فى دركه أمام المدخل ٠

وبعد مراقبة استمرت بعض الوقت من رصيف المحطة حيث ادعيـــا أنهما فى انتظار القطار لاحظا أن الحاس يطيل مسافته أحيانا ، وبدلا من أن يقف عندما يصل الى ركن الحظيرة كان يلف بزاوية تسعين درجة ثم يواصل سيره الى منتصف الطريق من جانبها ، ومن هناك كان يستطيع أن يرى أى شخص قادم على الطريق ‥

واتفقا على أن يسير بيير على هذا الطريق حتى يجتذب انتباه الديدبان فى اللحظة التى يكون فيها على أبعد مسافة من مدخل الحظيرة ولم يعـــد يراها ‥ وعندئذ يعبر ميشيل الخط الحديدى وينزلق الى داخل الحظيرة قبل أن يعود الحارس الى المواجهة ‥ وتم تنفيذ ذلك طبقـــا للخطة ‥ ودخل ميشيل الحظيرة من غير أن يكتشفه أحد وأخذ يفحص الاقفاص ‥ بعد أن فك زراير بنطلونه من قبيل الاحتياط حتى اذا ضـــبط يمكن أن يختلق لنفسه عذرا ‥

كانت محتوياتها فى ثلاثة أقسام ، وبقدر ما استطاع أن يستنتج ، نظرا لانه كان يعمل فى الظلام كانت تتكون من أجسام على شكل السيجار وقد قاس الاشياء التى استطاع أن يصل اليها ، وكون فكرة فى ذهنه عن شكلها ، وقد استغرق هذا العمل مدة ساعة ، أصبحت لديه بعدها فكرة تامة عما كانت تحتويه الاقفاص ‥

ولما علم كل ما استطاع ، انتظر الى اللحظة الملائمة ثم عاد أدراجه من الطريق التى دخل منها ‥

وبعد ذلك بأسبوع كان فى الطريق الى لندن رسم يعتبـر من أول الرسومات التى وضعت عن القنبلة الطائرة مبينا عليه المقاسات الدقيقة ٠

وفى نفس الوقت كان الفريق ينتظر بنافذ الصـــبر الجزاء المنتظر ‥ وكان أندريه يبلغ بانتظام كل تقدم يحدث فى بواكاريه ذلك التقدم الذى أصبح من الناحية العملية على أهبة التنفيذ ، كما أيد العملاء فى مختلف

الاماكن هذا الانطباع ٠٠ وقد أعدت القنابل الاولى وصار تجميعها تحت ستار ، كما صار تمويه بعض المواقع ٠٠ وكان يبدو أنها ستصبح مستعدة بين لحظة وأخرى ٠٠ وأخيرا جاءت اللحظة العظمى ٠٠ يوم ٢٥ ديسمبر عام ١٩٤٣ ـ بعد عودة ميشيل من أوفاس بخمسة أيام ـ أنزل السلاح الجوى البريطانى ضربته ٠٠ وكان تأثيرها مخربا ٠٠ فقد دمرت على الاقل دستة من هذه المواقع التى حددتها تقارير العمـلاء والصور الفوتوغرافية الجوية من أول غارة جوية ٠٠ وبعد ذلك بأيام قلائل هوجمت بواكاريه ٠٠ وفى صباح اليوم التالى عندما عاد أندريه الى عمله شاهد بعينى رأســـه بمنتهى الارتياح النتيجة التى كانت له يد فى الوصول اليها ٠٠

فقد شاهد أن الموقع أصبح فى حالة لا ينفع فيها آى اصـــلاح ، وانتشرت الانباء وأضرب بعض العمال الفرنسيين ودمرت المكاتب بدرجة بالغة ولو أنها كانت لا تزال قائمة وكلف أندريه باصلاحها ٠٠

وفى منطقة لالوج (السوم) كان بيير كارترون موجودا عندما ألقت قاذفات القنابل بأثقالها ٠٠ وقد أصابته هو نفسه احدى الشظايا وكسر ذراعه ٠٠ وكانت خسائر كل من الفرنسيين والالمـان فادحة ٠٠ والامر الاشد خطورة من وجهة النظر الالمانية أن العمـــال قد ذعروا واضطربوا ورفضوا العودة الى الموقع ٠٠ وكان هــذا التأثير عاما وكان من أحـــد الاسباب التى تخلى الالمان عن فكرة اصلاح الموقع ، وركزوا اهتمامهم فى انشاء مواقع أخرى جديدة وصغيرة يمكن اخفاؤها فى الغابات أو بأى كيفية

وفى أواخر ديسمبر كان قد ضربت اثنين وخمسين موقعا وفى النصف الاول من يناير هوجم تسعة وسبعون بما فيها بونيتو فوبورج وبوســك ميليه ٠

وفى يوم ٧ يناير كتب الكولونيل واشتيل قائد الالاى ١٥٥ الذى كان قد شكل خصيصا لادارة السلاح V. 1 فى مذكراته اليومية يقول : « اذا استمر قذف قنابل الحلفاء بمعدله الحالى لمدة أسبوعين فان علينا أن نتخلى عن الامل فى تشغيل المواقع الاصلية ٠

ولم يكن فى ذلك مغاليا فى تشاؤمه ٠٠ فباعتراف العدو نفسه قد دمرت فى المدة من ١٥ ديسمبر عام ١٩٤٣ و ٣١ مارس عام ١٩٤٤ تسعة

مواقع تدميرا شاملا ، وخمسة وثلاثون أصيبت بأضرار شديدة ، وتسعة وعشرون أصيبت جزئيا وعشرون باصابات خفيفة وهذا من مجمــــوع المواقع البالغ قدرها مائة وأربعة ..

وكانت النتيجة شل عمل هذه المواقع قبل أن يبدأ في تشغيلها وقبيل آخر مارس أو على الاصح في أواخر فبراير تأكد الالمان من أن مشروعهم الاصلي قد أصبح خرابا ، ووجهوا اهتمامهم نحو تدبير شيء آخر فأنشأوا حوالي أربعين موقعا أخرى على نفس الطابع ولكنها أصغر بكثير ويســـهل اخفاؤها . ومن هذه المواقع شنت الغارات على لندن دون تحقيق أي نجاح أما ما كان سيعتبر تهديداً خطيرا للحلفاء ، وربما كان نهائيــا وحاسما ، فقد أحبط بحيث لم يعد له أثر يذكر ..

وكان أثر قذف المواقع بالقنابل مزدوجا ، فقد أخر هجوم القنبـلة الطائرة ، وخفف من وقعه ..

وقد أصدر هتلر أوامره ببدء الهجوم في ١٥ ديسمبر بمعدل خمسة آلاف قنبلة شهريا .. فلو كان مشروعه قد نفذ ، فان عددا يبلغ خمسين ألف قنبلة طائرة تكون قد أطلقت في مدة التسعة شهور التي ســبقت الاستيلاء على المواقع بواسطة جيش مونتجمري في سبتمبر عام ١٩٤٤ ، وكان يمكن أن تطلق من هذه القنابل ، كمــا يؤخذ من واقع التجربة ، خمسة عشر ألف قنبلة ، بالمقارنة مع الالفين وأربعمائة قنبلة التي وصلت فعلا في المدة من يونية الى سبتمبر .. ولكان الهجوم أشد ستة أضعاف مما حصل فعلا ولدام ستة أشهر أخرى .. وربما كان هذا كافيا لتغيير مجرى الحرب ..

وقد يكون من الملائم أن ننقل هنا رأي رجل كان في مركز يتيح له أن يقدر مدى تأثير مشروع هتلر لو قدر له النجاح . وهو ما كتبه أيزنهاور عن سلاح ال V. 1 :

« يبدو من المرجح أنه لو كان الالمان قد نجحوا في انجاز واستعمال هذه الاسلحة الجديدة قبل ستة أشهر لكان غزونا لاوروبا صعبا وربمــا مستحيلا .. وأنا أعتقد أنهم لو نجحوا في استعمال هذه الاسلحة طوال الستة شهور ، وبالاخص لو أمكنهم جعل منطقة بورتسموث ـ سوثهامبتون من بين أهدافهم الرئيسية ، لكانت سيادتنا قد ضاعت » .

والواقع أن الالمـان قد تحملوا هزيمة كبرى ، فقد لعبـوا بورقتهم الاخيرة وخسروها ·· ولم يكونوا في شك عن حقيقة السبب في ذلك ، فان الانجليز عن طريق جواسيسهم قد عرفوا مشاريعهم وعملوا على مقاومتها قبل أن تصبح مستعدة للقيام بعملها ·· وقد عزا واتشنيل نفسه فشله الى ادارة المخابرات البريطانية وأكد أن عملاءها كانوا محشودين فى كل الارجاء ، وبالاخص فى منطقة الاطلاق ··

ولكن كلمة « محشودين » مبالغ فيهـا ·· فان ميشـيل طوال مدة تحرياته لم يكن له أبدا أكثر من ستة رجال يعملون فى هذه المنطقة بما فيهم هو نفسه ·· ولكن الالمان كانوا يتخيلون أنهم يرون الجواسيس خلف كل شجرة وفى هذا تقدير كبير للعمل الذى قامت به هذه الفئة القليلة من العملاء ··

وكان من أثر ذلك أن ضوعفت اجراءات الامن بواسطة الالمان وخشى واشتيل من أن يكون هدفا للاغتيال ، فغير اسمه ووضع لحية مسـتعارة وكان يرتدى أزياء مختلفة ·· وبالرغم من أن معظم المواقع أصبحت عديمة الفائدة فقد شددت الحراسة عليها ، ومعظم العمال الفرنسيين ان لم يكونوا قد هربوا أثناء قذف المواقع بالقنابل فانهم قد طردوا ··

وفى نفس الوقت شددت ادارات مقاومة الجـاسوسية ، التى وجهت اليها دون شك انتقادات شديدة ، جهودها لاقتفاء أثر الجواسيس ··

وبالرغم من أنه لم يعد هناك عمل لأندريه لكى يقوم به فى بواكاريه بعد أن قام بتصليح المكاتب ، فانه لم يخل سبيله من ارتياحه بالعمل بها كما لم يطلب هو من جانبه اعفاءه من العمل حتى لا يثير الشبهات حوله · وكلف بعد ذلك بالعمل فى المواقع الجديدة وبعضها من الطراز المعـدل الذى جرى تشغيله فعلا ··

وتبـين لاندريه أن كون مواقع بواكاريه كان من أول المواقع التى ضربت بالقنابل ، وبدقة أكثر من أى موقع آخر هى حقيقة كان من المحتمل أن تثير التساؤل والتحريات التى قد تشير اليه فى النهاية باعتباره الرجل الفرنسى الوحيد الذى يشغل فى هذا الموقع مركزا له مسئوليته · وهكذا بقى وسيف ديمقليس مسلطا على رقبته ·· وعندما عينـوا معه شـابا

فرنسيا آخر لكي يعمل معه ، استنتج في الحال أن المقصود به أن يكون جاسوسا عليه للايقاع به ٠٠ واتضح له أن الشبكة تضيق حوله ٠

في ذلك الوقت كان يقيم في مسكن يبعد حوالى نصف ميل من محل عمله ٠٠ الذى كان يسير اليه على قدميه كل صباح بين الحقول ، وفي أحد الايام عندما كان يسير في طريقه شاهد عربتين كبيرتين تخرجان من المكاتب ـ كانت عربات ليموزين سوداء من الطراز الذى يستعمله الجستابو ولم يساوره شك في أنهم كانوا هناك لهذا الغرض ٠٠ فعاد أدراجه مسرعا ، ولم يذهب الى مسكنه وانما لجأ الى عائلة أخرى على بعد حوالى ميلين ٠٠ وبعد قليل ذهب الجستابو الى مسكنه السابق وفتشوه دون نتيجة ٠٠ وبعد أن ظل مختبئا حوالى شهر عاد الى باريس ووجد ملجأ أمينا في ابيتاى أورج حيث ظل هناك الى أن تم « التحرير » ٠

وسرعان ما وقع روبرت أيضا في الاضطراب والتعب ولكن ليس من أجل المواقع ٠٠ فان رجلا فرنسيا يدعى فورلى من الكولابوريترز أى من « المتعاونين » كان معينا أيضا في بيرنز قد قتل بواسطة قنبلة يدوية ألقاها أحد رجال المقاومة بينما كان يشرب أمام مقهى مع اثنين من الالمان . ووجد في ملابسه مفكرة تحتوى على كشف بأشخاص معروفين بعدائهم لسلطة الاحتلال ٠٠ وتضمن الكشف اسم روبرت الذى لم يكن يخفى مشاعره أبدا ، وقد وصفه (المخبر) بأنه « ارهابى خطير » ٠

وقبض على روبرت ومعه أثنين آخرين وأخذوا الى (ميزون لافييت) لاستجوابهم ٠ وقد دافع عن نفسه باتهام فورلى بحادث سرقة خزنة في مكتبه وأنه استطاع أن يقنع البوليس بأن فورلى كان السارق ٠٠ ولم يعامل معاملة سيئة ونظرا لانه كان متطوعا في خدمة الالمان فقد أخلى سبيله مع الرقابة عليه كل مساء ٠

أما الاثنان الآخران فقد عذبا بوحشية الى حد أن أحدهما قد مات نتيجة التعذيب ٠٠

ولاتمام قصة ميشيل وعمله في مواقع السلاح الجديد V. 1 ، يقتضى الاشارة هنا الى حادثة أخرى ٠

على أثر بدء ضرب المواقع ، ذهب الى سويسرا ومعه تقرير يقول بأن العلماء الالمان الذين يعملون فى السلاح الجديد يقيمون فى (شاتو دى ريبوكور) وأنه سمع هـذا توا قبل حضـــوره ، ولم يتيسر له الوقت لا للتحقق منه ولا لتحديد مكان القصر ، الذى يعتقد أنه يوجد فى جهـة ما فى (بادى كاليه) ٠

وأخذ هو و O.P. يفحصان الخرائط محاولين أن يجدا اسم هذا المكان ولكن دون جدوى ٠٠ فعاد ميشيل الى باريس حيث كان لديه موعد عاجل فى اليوم التالى ٠٠

وواصل O.P. البحث ولكن بدون جدوى أيضـــا فالخرائط ودلائل الخرائط والتقاويم لم يكن فيها كلها أى اشارة الى اسم ريبوكور أو اسم مقارب له ٠٠ وربما يكون ميشيل قد أخطأ فى نقل الاسم ٠٠ ولو أن هذا غير محتمل حصوله من ميشيل ٠٠

وجاء يوم سبت وكان مفروضا أن يتصل O.P. بزوجته فى شـاليه يملكانه حيث نادرا ما يقضيان به نهاية الاسبوع لقد أراد أن يبتعد الى أقصى ما يمكن عن محطة عمله عندما يتبين أن فكره لن يرتاح ما لم يحل هذا اللغز ، فاعتذر لبيته بالتليفون ، وعاد الى مكتبه وأخرج خرائطه مرة أخرى ٠٠

وبعد بحث طال الى ما بعد منتصف الليل وجد ضالته ٠٠ فى دليل خرائط قديم وفى صفحة مخصصة لقسم ابيفيل وجد على خريطة مقـابل هذه الصفحة اسم « شاتو دى ريبوكور »

وكان مكتب التلغراف السويسرى يفتح طوال الليل ـ وضع O.P. رسالته بالشفرة وأرسلها عند حوالى الساعة الثالثة صباحا ٠

وفى الساعة التاسعة صباحا تلى الرد من لندن بوصولها ، وأن المنطقة ستستكشف فى الساعة السادسة وفى الثامنة ستضرب بالقنابل ٠ وفى نهاية الرد ـ عمل رائع ٠

بعد ذلك ببضعة شهور ، عندما تقدم الجيش البريطانى فى المنطقة ، وجد مبنى بجـوار القصر فى حـالة من ألتدمير حيث أورى الفـــلاحون الفرنسيون لضابط المخابرات الذى كان يزور المنطقة صفا من المقابر التى دفنت فيها جثث الالمان · الذين قتلوا أثناء الغارة ·· وكان من بينها قبر قائد المشاة الكولونيل سيبل ·

وكان هذا منأروع الامثلة على التعاون بين العميل وبين «ضابطالحالة»

وأى شخص يشتغل فى عمل من نوع العمل الذى انهمك فيه ميشيل يقـدر أهمية الرجل الذى يتصل به وقد اتاح .O.F بادراكه وتشجيعه أتاح لميشيل التأييد المادى والمعنوى الذى بدونه لم يكن يستطيع أن يحقق الاعمال التى قام بها ·

كان ميشيل فى حاجة الى من يشجعه ويوجهه وقد استطاع .O.P بذكائه ولباقته وحكمته أن يكون خير موجه لهذا الفتى المقدام ·

١٤

القبض على ميشـــيل

ان أى شخص يعيش نوع الحياة التى كان يحياها ميشيل يدرك أنها ستنتهى حتما أن عاجلا أو آجلا بكارثة ٠٠ لقد كانت حياته أكثر من مخاطرة كما توقع من بداية الامر ، وكانت يذكره بهذا دائما ليس فقط الاعتقالات اليومية التى تحصل أمامه بل أيضـا ظروف وجوده ذاتها ٠

كان دائم الحركة ، لاينام أبدا ليلتين فى مكان واحد يسـافر بأسماء مستعارة وبأوراق مزيفة وعلى التوالى اما باحثا عن صيد أو ان وراءه من يحاول اصطياده ، ويوجد بعض الشبه بين حياته وبين الثعلب الذى يوما يقتحم عشة الدجاج ويوما يهرب بحياته أمام كلاب الصيد ٠

ولكنه بعد سنتين ونصف، انقطعت فيها كل صلة له بحياته السابقة، أصبح يتقبل حياته الحالية كأنها حياته العادية ٠٠ ولم يعد يهمه كثيرا أنه أصبح لا يرى عائلته الا فى زيارات نادرة وعابرة ، أو أن يذهب الى مكتب ، أو يقابل أصدقاءه ، أو يقضى ليلة فى الاسـتماع الى الموسيقى أو قراءة كتاب ٠

وبنفس هذه الكيفية اعتاد أيضا أن يعيش مع الاخطار ٠٠ وقد تعرض للكثير منها ، وأفلت بصعوبة منها مرات عديدة ، وأصبح يبدو أن المخاطرة والهروب هما الظاهرة المعتادة فى حياته ٠٠ وكأن يقدر له النجاة فى كل مرة ، فلماذا لا يجرب ثانية ؟

ومع ذلك فانه كان فى قرارة نفسه يدرك أن هذا لا يمكن أن يستمر الى مالا نهاية ٠٠ كان قد فقـد أفضـل رجاله الواحد اثر الآخـر ٠٠ أوليفر جيران ــ رومان ــ عائلة ميفريتس ــ ليوبولد توركان ــ عـذبوا بكيفية تفوق التصور ، وستة غيرهم عانوا نفس المصير قبل أن يعدموا

بالرصاص أو أن يرحلوا ، والامر الذى يدعو للعجب هو أنه وهو أكثرهم تعرضا للخطر ، قد تجنب هذا المصير كل هذا الزمن الطويل ..

وفى أواخر ١٩٤٣ ، وبالاخص بعد هروب أندريه ، لم يعد يعتقد أن النهاية يمكن إرجاؤها وقتا أطول .. وكرجل محكوم عليه بالاعدام بواسطة طبيبه ، أخذ ينظر الى الناس والاشياء كما لو كان يراهم للمرة الاخيرة .

وظل بعض الوقت يحس بأن وراءه من يتبعه ويراقبه فى باريس .. ولكى يتخلص من « ظله » وجد من الافضل أن يستخدم المترو .. وكان عندما يصل الى احدى المحطات يتلكأ قليلا فى أحد الممرات الفرعية الى أن تعلن الاشارة قدوم قطار من القطارات التى تسير تحت الارض فيهرع نازلا السلم بحيث يصل الى الرصيف فى نفس اللحظة التى تقفل فيها البوابة بعده . وبينما يقفز ميشيل ويتعلق بالقطار فان أى شخص يتبعه يكون قد ترك جامدا لا يستطيع حراكا فى الجانب الآخر من الحاجز .

ولكن لسوء الحظ كان العدو يملك سلاحا لا تستطيع التغلب عليه الشجاعة ولا الحيلة .. ومثل كثيرين غيره وقع ميشيل ضحية الخيانة .

فى أواخر ١٩٤٣ استقبلت مدام سيمون بواريل صاحبة فندق بيرلات ، وكانت من أهم عملاء ميشيل المؤثرين ، صديقة قديمة جاءت لتزورها هى لور ليسكان ، امرأة فى حوالى الخامسة والثلاثين جميلة رشيقة ، متعلمة .. وكانت تعرف سيمون من أيام المدرسة ، وقد فرحت الاخيرة بها كثيرا .

وفى اثناء تبادلهما الحديث والانباء ، كشفت مدام بواريل عن العمل الذى كانت تقوم به لمعاونة حركة المقاومة وذكرت ضمنا اسم ميشيل ، واقترحت أن تنضم صديقتها « للشبكة » .

وانتفضت لور ليسكان لسماع هذا .. وأبلغت صديقتها وانها مخطوبة الى شخص يدعى كونت دى كيرجوت الذى كان يهمه أن يتصل بالحلفاء فى صدد اختراع له وسألت ما اذا كان مسيو هولارد يستطيع مساعدته ؟ .

وقالت مدام بواريل انها واثقة أنه يستطيع ووعدت أن تفعل ما فى وسعها لتدبير اجتماع بينهما ٠

لم يكن ميشيل بادى الشغف بالفكرة ، ولكنه سمح بأن يقابل لور ليسكان ٠٠ ومن قبيل الاحتياط لم يقيد نفسه بموعد مع خطيبها ٠٠ ولكنه أبدى أنه سيذهب اليه فى أى وقت دون موعد ٠

وقد وجد من يسمى نفسه بالكونتيقيمفى شقة فاخرة ملاصقة لغابة بولونيا ٠٠ كان كيرجوت فى حوالى الاربعين متوسط الطول واسع المنكبين وذا وجه ضخم مستدير وقد استقبل ميشيل وهو جالس خلف مكتبه الكبير فى غرفة رسم ثمينة الاثاث كان يستعملها كمكتب أيضا وكان لمظهره الخشن وتصرفاته الجافة تأثير سىء على ميشيل ٠

وشرح اختراعه : نوع جديد من مرحلة جوية تمكن الطائرة من الهبوط على الارض على ممر أقصر بكثير ٠٠ وبعد سنوات من التجارب قد استوفى الآن اختراعه وقال أنه شغوف بتقديمه الى الحلفاء ٠٠ ولما علم أن ميشيل على اتصال بهم فهل يستطيع أن يكون وسيطا بينه وبينهم ؟

ورأى ميشيل ، الذى شعر بكراهية نحو الرجل ، انه لا يهتم الا بالمال فقط ٠٠ فلم يعده بشىء ولكنه اقترح عليه أن يقدم اقتراحه كتابة ٠

واعترض كيرجوت « ولكنهم فى هذه الحالة قد يأخذون فكرتى ولا يدفعون لى شيئا » ٠

وقال ميشيل قد تتعرض لهذه المجازفةوعلى أى حال ليسمن الضرورى أن تشرح التفاصيل ٠

وأخيرا وافق كيرجوت وسأله متى يمكن أن يتقابلا مرة أخرى ٠٠ وراوغ ميشيل فى هذا وقال بأنه نادرا ما يأتى الى باريس وان سكرتيره تستطيع أن تلقى أى رساله ٠٠ وانتهت بذلك مقابلتهما ٠

وفى خلال الاسابيع التالية حاول كيرجوت وامرأة مجهولة عدة مرات للاتصال بميشيل وحضرا الى مكتبه عدة مرات ٠ وكانت سكرتيرته (مادلين بولانجيه) وهى أيضا عضو فى الشبكة تخطرهما دائما بعدم وجوده ٠

وكان هذا صحيحا في العادة ، لانه علاوة على رحلات زياراته المعتادة، فقد كان هناك فريقه الخاص الذى يراقب مواقع السلاح الجديد وكان عليه أن يشرف عليه ·· ولو أنهم كانوا قد انجزوا مهمتهم الاصلية ، الا أنه كان لا يزال عليهم حمل كثير كالتبليغ عن الخسائر التى تحدثها قنابل الحلفاء والتحرى عن أى أماكن لمواقع جديدة ·

وفى الشهر الاخير من يناير ، قام بزيارته المعتادة الى لوزان وأحضر معه المجموعة الضخمة من التقارير التي يجمعها من كل أنحاء فرنسا بما فيها منطقة السلاح السرى V. I وكان قد عرف فى ذلك الوقت أن قيام الحلفاء بضرب المواقع بالقنابل كان ناجحا للغاية ، وأخذت التقارير ترد عن خيبة أمل الالمان وتبددت آمال هتلر ·

كان هذا العمل ذروة ما بلغه ميشيل ، وقد كسب به لنفسه مجـدا وقال له O.P. أنهم أوصوا له بأعظم وسام يمكن أن يمنح له ·

والآن أصبح فى حاجة الى الراحة ــ وهو يستحقها فعلا ·· فهل يقضى أسبوعين فى سويسرا ضيفا على الحكومة البريطانية ؟؟ كان العرض مغريا لميشيل كان يشعر بالمرض من كثرة التعب والقلق ·· ولكن رجاله كانوا لا يزالون فى مراكزهم ولا يستطيع أن يتخلى عنهم وقد تأثر كثيرا بعرض O.P. وشكره عليه ولكنه رفضه ·

كانت الساعة قد بلغت الثامنة عندما وصل الى محطة لوزان وكانت نيته أن يأخذ القطار الى جنيف ويقضى الليلة فى فندق ثم يعبر الحـدود فيما بين جوسى ما شيللى عند الفجر وبعد ذلك يمربدورته المعتادة : ليون ، أفينيون ، تولون ، نيس ، ومنها الى نيمس ، سيت ، بيزييه · ناربون كاركاسون · وتولوز ·

وعندما مر بالطريق الفرعى الذى كان يؤدى الى جنيف (٣) كان قد تغلب عليه تعب شديد جسدى وروحى · تخشبت قدماه وأحس بالام روماتزمية حادة فى ظهره ــ وفكر فى الدعوة التى وجهت اليه وتساءل عما ادا كان رفضه لها فيه شىء من الحكمة ·

ثم يشعر أبدا بفكرة العودة الى فرنسا بمثل هذا الجمود ، الرحلات التى لا نهاية لها بقطارات مزدحمة ، وربما لا ينام فى فراشه الا مرتين

في الاسبوع ، والوجبات غير الملائمة وعدم توفر الحرارة ، والشعور الدائم بالقنوط واليأس بسبب الملابس الرثة ، وحقارة حالة الناس وعلى خلاف ذلك كان كل شيء حوله في سويسرا ينطق بالسعادة والازدهار : رجال ونساء أصحاء يرتدون أبهى الملابس وشبان وأطفال في منتهى المرح تشع الصحة من خدودهم الموردة وينعمون جميعا بالراحة والامن ، ولا يهتمون بما للغد ، وهذه كلها أمور كانت تنقصها حياته ٠

وبينما كان ينتظر قطاره على رصيف المحطة أقدمت امرأة ترتدى مريلة أنيقة منشاة تدفع أمامها عربة ترولي وتدق جرسا لتلفت الاهتمام٠ وكان الترولي مشحونا بكل الاشياء الطيبة من سيجار وسجائر من كل الانواع وشيكولاته وكرملة ونوجا وساندويتشات ، ومن أهمها جميعا جرائد لم تمر على الرقيب كانت تطبع بلاغات الحلفاء ٠

وتأمل في كل هذه الكنوز فاستولت عليه رغبة جامحة في وقف رحلته وأن يستمتع بفترة قصيرة في بلدة آمنة محايدة بكل مباهج الحياة العادية فيها ٠

ولمقاومة هذه الرغبة أغمض عينيه وفكر في عائلته في كل المتاعب التي يقاسونها ، وفي فريقه من راكبي الدراجات الذين يتناولون أسوأ الطعام ولا يستمتعون بالنوم من أجل تأدية الاعمال التي كلفهم بها ٠٠ وفكر في جندرون أحد مندوبيه الثلاثة متجولا في الطرق في كل أنواع الاجواء وفيجان هنريوهو يتسلل من خطى الديدبانىنتفي (بوسكهارت) وفكر في بيير كارترون بزراعه المكسورة ، باصابة قنبلة بريطانية ، ويمسك دراجته بالاخرى ، وفي لويس فيليت يتجول في مطار ابيفيل ، وفي لويس مارجو متجمدا في غروب الشتاء ، وهو يشاهد كيفية تركيب قنطرة بالون ألماني ٠

وكان هذا كافيا فقد تغلب الاغراء عليه ٠٠ لقد اشتغل ميشيل مع فريقه بكل جهد ، وبقدر ما كان يطلب منهم بقدر ما كانوا يستجيبون اليه ٠٠ ان الانسان لا يستطيع أن يتخلى عن مثل هؤلاء الناس حتى ولو يوما واحدا ٠

ولكن الشيطان لم يكن قد انتهى معه بعد ٠

فقد دخل قطار جنيف ، وكان ميشيل على وشك أن يركبه عندما وجد كلتا يديه قد قبض عليهما ، وكانت الحركة التالية هي دفعه الى الخارج .

فقد أمسك به اثنان من الرجال الفرنسيين يعيشان فى لوزان وكان قد قابلهما فى زيارات سابقة ، وكانا قد شاهداه يصل مبكرا فى هذا اليوم ، فانتظرا فى المحطة لاعتراض طريقه بقصد دعوته للعشاء .

كان أكبرهما ويدعى جورج قد جاء الى سويسرا لتجنيد الفرنسيين اللاجئين فى جماعة « الماكى » كان شخصا مرحا ووطنيا متحمسا ، وكان يستمتع بكل أطايب الحياة ويعرف العمل الذى كان يقوم به ميشـيل والحياة التى يحياها ولذلك عزم على أن يعطيه الفرصة للترفيه ليلة ، أما الآخر فكان أصغر منه سنا وأقل كلاما ، ولكنه أيضا كرس نفسه لاعمال المقاومة كان صديقا لجورج ويعمل فى نفس مهمته ..

وكان من العبث أن يحتج ميشيل .. وقال لنفسه على أى حال طالما أنه سيعبر الحدود فى الفجر فسواء اذا كان يقضى الليل فى لوزان أو فى جنيف .. ويبدو أنه سمح لنفسه مرة بشىء من التسلية .. وكانت هى المرة الاولى منذ قدم نفسه لخدمة الحلفاء .

وتناولوا العشاء فى أوبرج (سالاز) وهو مطعم من الدرجة الاولى يشرف على المدينة .. كانت هذه هى المرة الاولى التى يتواجد فيها ميشيل فى مثل هذا المكان منذ نشوب الحرب .. وقد بعث فيه دفء الغرفة اللذيذ ونكهة الاطباق الشـهية ، والمشروبات الفـاخرة ، والفرن الضخم الذى تشوى عليه الدجاجات المسمنة ، والنقوش المبهجة على الستائر ومفارش الموائد وهمهمة الاحاديث الناعمة التى تدور حول الموائد كل هذا بعث فى نفسه المتعطشة الشعور ببهجة الحياة .

وقام فى آخر الليل بعض الفنانين بتسلية الحضور ، رجل مشهور فى سويسرا بنكاته المضـادة للنازيين ومن رجال الكوميديا البـارعين ، وزميلته الحمراء الشعر ذات البشرة البيضاء الرخامية والعيون الواسعة . تمتزج فيها الرقة والمرح . المزايا التى تجعلها فرنسية فذة كانا ينشدان الاناشيد التى تشيد بفرنسا التى كانت مما لم يسمعه ميشيل منذ أربع سنوات .. وشعر ميشيل بالنشوة والذهول وأحس كأن كابوسا طويلا قد أزيح عن صدره فجأة وأنه استيقظ منه الى عالم السلامة والبهجة .

وعندما غادروا المكان في الساعات الاولى من الصباح تحت تأثير متعة المساء ·· ومنذ غزو فرنسا لم يشاهد مثل هذا الفارق بين حياة الحرية وحياة الضغط والحرمان بدا كرجل كان يعيش فى الظلام ، ويبهر عينيه ضوء الشمس ·· والآن عليه أن يعود الى الظلام مرة أخرى ، وسيراه أشد ظلاما بعد أن استمتع بهذا القبس من الضوء ·

كان الثلج يتساقط عندما وصل الى مكتب الجمرك بعد أن سار ساعتين على قدميه من جنيف ·· وأعد له الحارس الذى يعرفه جيدا قدحا ساخنا من القهوة ·· ولم يستطع ميشيل ، وهو يودع صديقه أن يخفى ما كان يشعر به فى نفسه من خوف وتشاؤم ·· فقال ليتنى لا أعبر هذه الحدود الملعونة اليوم !

لم يكن الحارس قد سمعه أبدا يبدى مثل هذا الشعور فنظر اليه باهتمام وقال مجرد تطير ومن يدرى فربما لايحسن صنعا بتأجيل رحلتك !

ـ انه ضعف عابر ليس الا ، ولا أظن أنى أفكر فيه مرة أخرى ·

وبعد أن تصافحا ، اتجه ميشيل الى طريقه فى الغابة ·· وتقابل بعد قليل مع حارس جمرك آخر بالقرب من المجرى الذى يحدد خط الحدود وكان صديقا عاديا ولكنه حيا ميشيل بمودة وتمنى له حظا سعيدا ·

ومرة أخرى شعر ميشيل بأنه يريد أن يخفف عن نفسه بالافضاء الى أى شخص آخر بما يحس به من ضيق يثقل نفسه فقال للحارس « هذه المرة انى مستعد أن أبذل أى شيء مقابل عدم عبور هذا المجرى » ·

وبعد أن عبر ميشيل الحدود قال فى نفسه هذه هى المرة التاسعة والاربعين التى أعبر فيها هذه الحدود ·

وكأن شيئا فى داخله قال وانها قد تكون الاخيرة أيضا ·

وبعد عودته الى باريس بأيام قلاقل كان ميشيل على موعد مع اثنين من عملائه ومع سكرتيرته فى مقهى صغير بالقرب من المكتب فى شارع بوبورج وموعد المقابلة التاسعة صباحا من يوم ٥ فبراير ١٩٤٤ ·

وحدث أنه قضى الليل • وهذا من المصادفات النادرة ـ مع عائلته فى بيته الصغير فى سانت ريمى حيث كان قد نقل العائلة الى هناك منذ عام مضى • ونظرا لانه لم يكن يرى زوجته الا نادرا فقد كان هناك أشياء كثيرة لبحثها فتأخر فى الصباح ولما تبين أنه لن يتمكن من الذهاب فى المعياد اتصل تليفونيا بسكرتيرته لالغائه حيث كان معه موعد آخر مع اثنين من عملائه •

وفى الصباح ، بينما كانت مادلين بولانجيه وحدها فى المكتب حضر لزيارتها الكونت كيرجو ومعـه نفس المرأة المجهولة •• فقالت لهما أن ميشيل غير موجود وطلبت منهما ترك رسالة له •

ولكنهما فى هذه المرة لم يقبلا اعذارا وقالت المرأة ان الامر ضرورى للغاية وانها يجب أن ترى المسيو هولارد فى نفس هذا اليوم ، فان شخصا عزيزا عليها فى خطر ولا يستطيع انقاذه الا مسيو هولارد ، انها مسألة حياة أو موت •

وتذكرت تحذيرات ميشيل بأن لا تكشف أبدا عن مكانه ، وبالاخص لهذين الشخصين اللذين لم يشعر بالثقة فيهما فأصرت السكرتيرة مـدة طويلة على التمسك بقولها ، ولكنها أخيرا خدعت بأن مطلبها حقيقى •• ولكنها قالت لهما انها لم تستطيع الاتصال بمسيو هولارد هذا اليــوم ولكنها تعرف أين سيكون فى المساء ثم أعطتهما الوقت والمكان : الساعة السادسة والربع بمقهى « الصيادين » ١٧٦ فوبورج أمام محطة الشمال•

وكان ميشيل قد اختار الوقت والمكان لموعد المساء لانه كان يلائم العميلين اللذين سيقابلانه •• وكان أحدهما روبرت روبناخ المعروف فى الشبكة باســم روبرت دى فيك ، والآخر رجل يدعى مايلى •• وكان مايلى قادمامن لوبورجيه حيث كان يعمل كاتبا فى السكة الحديد •

وكان مفروضا أن يصلا الى محطة الشمال فى القطارات التى تصل حوالى الساعة السادسة ، وليس عليهما الا أن يعبرا الطريق لكى يكونا فى مكان الموعد •

أما الاثنان الآخران اللذان كان مفروضـا أن يقابلهما فى الصباح ولكنه أرجا موعدهما الى المســاء فهما جوزيف ليجيندر المعروف باسم جندورو وهنرى دوجارييه •

عندما دخل ميشيل الى المقهى أحس بشعور مفاجىء بالخطر ، كان المكان مكتظا بالناس ، كما هى العادة فى مثل هذه الساعة ، ولكن شيئا فى الجو كان فى نظره غير عادى ٠٠ كان هناك رجل يتكىء على البار عند الركن القريب من الشارع وآخر يقف على الباب المؤدى الى دورة المياه ، ولم يكن يظهر عليهما أنهما من الزبائن المعتادين ٠

لم يكن انطباعه قاطعا ، انما هو شىء اشتمه من جو المكان ، كما يشتم الحيوان رائحة عدوه ٠

ورأى ثلاثة من الاشخاص الذين سيقابلهم جالسين الى احدى الموائد ، وعندما ظهر ميشيل وقف مايللى وسلمه لفافة صغيرة تحتوى على مذكراته ٠

وقبل أن يتمكن ميشيل من الجلوس ، سمع شخصا يناديه باسمه فتطلع حوله فرأى امرأة غريبة تقف عند مدخل الغرفة ٠٠ كان شيئا لا يريد أن يراه ٠٠ لم تكن لديه فكرة أن سكرتيرته قد أعطت لها موعده بالمقهى والادهى أنها كانت آخر شخص كان يرغب مقابلته فى هذه اللحظة ٠

وعندما تقابل معها فى الممر الضيق راحت تحكى له قصة صديق لها كان معرضا لخطر القبض عليه وكانت هى تحاول اخراجه من البلاد ٠٠ فقطع ميشيل عليها الحديث بقوله اسمعى يا سيدتى أنه من المستحيل بحث مثل هذه المواضيع هنا ٠ عليك باعطاء التفاصيل الى السكرتيرة وسأعمل ما بوسعى ٠ ثم من قبيل المجاملة وعلى أمل التخلص منها دعاها الى مشاركته فى الشراب وتقدمها الى مائدة أخرى ٠

وما كادا يجلسان حتى تقدم أحد الرجلين اللذين أثارا شبهته ، شاهرا مسدسه وصاح ارفعوا أيديكم جميعا ! بوليس ألمانى ٠٠ وفى لحظة بدا المقهى كله مملوءا بالرجال المسلحين ٠٠ وكانت لا تزال فى يد ميشيل الربطة التى أعطاها له مايللى وعندما وقف رافعا يديه القاها خلفه ٠

أحاط به عدة رجال بوليس بملابس مدنية وقيدوا يديه خلف ظهره ٠ أما الثلاثة الآخرون فقيدت أيديهم أمامهم وأخذ الاربعة الى الخارج حيث

كانت العربات فى انتظارهم ·· وأجلسوا ميشـــيل فى المقعـد الخلفى من العربة الاولى والحرس على جانبيه ·· والثلاثة الآخرون مع حراســهم تبعوهم فى العربات الاخرى ·

وعندما تحرك الموكب لمح ميشيل من النافذة المرأة الغريبة تتعارك وتصرخ مع اثنين من رجال البوليس فكان هذا المنظر هو التمثيلية المعتادة التى يلعبها الجستابو عندما ينوى القبض على الضحية ·· والمقصود بها حماية الخائن من الاخذ بالثأر ، ولكنها كانت تمثيلية لا تخفى عـلى فطنة أحد ·

أما الثلاثة الآخرون الذين كان مفروضا أن يتواجدوا فى نفس الموعد وهم روبرت روبناخ ، لوسيان فرانســوا ، مادلين بولانجييه ·· فمن حسن حظهم أنهم وصلوا متأخرين · وعندما رأوا ثلاثة عربات تقف خارج المقهى شموا رائحة الخطر ورجعوا الى مكتب البريد المقــابل ، ومن خــلال نوافذه شاهدوا المأساة ·

١٥

شارع ماليه ستيفنز

كانت العربة تسير مسرعة فى الشوارع التى مرت بها ، وعبرت ميدان الكونكورد ثم دارت الى اليمين لتتبع النهر .. وكانت من حين لآخر توقف بسبب حركة المرور أو الاشارات الضوئية ـ وكان ميشيل ينظر الى الباب ويتساءل اذا كان يستطيع أن يفتحه بكتفه ، ويأخذ سبيله للهرب .. ولكنه نبذ هذه الفكرة بسرعة .. فان منظر الرجلين اللذين يرتديان الملابس المدنية ، والمسدسات فى أيديهم ، جعله يقبع فى مكانه .. ومع يديه المربوطتين خلفه فان أى حركة يحاولها ليس منها أى أمل ..

وعند الوصول الى أوتويل انحرفت العربة وأخذت فى تسلق مرتفع حاد .. واستطاع ميشيل أن يرى العربة الاخرى تتبعهم .. كانوا الآن فى واحد من أغنى أحياء باريس .. بلوكات كبيرة من المساكن الحديثة بها شرفات فسيحة ومناظر رائعة تطل على السين وغيرها من المنازل الخاصة المقامة فى وسط أراضيها .. وكان الطريق ينحرف فى صعوده ثم سار فى خط مستقيم ثم مالت العربة الى طريق أضيق .. وقرأ ميشيل اسم الشارع : شارع مالية ستيفنس الثامن عشر .. وأثنان من رجال البوليس الفرنسى على كل من جانبيه .. وعلى بعد ياردات قليلة من مكان وقوفهما بناء ضخم دائرى وكان منظر واجهته القاسى ، بنوافذها الحديدية ، يجعله أشبه بقلعة منه بمنزل عادى وبعد خطوات قليلة ، باب مزدوج ضخم مقفل بشبكة حديدية وكتب على المدخل الرقم (٥)

وبعد دقيقة رفعت بوابة حديدية كبيرة فى الباب ، فكشفت عن جراج يتسع لعدة سيارات .. ودخلت فيه عربة ميشيل تتبعها العربات الاخرى ثم قفلت البوابة خلفهم .. ودفع الرجال الاربعة الى سلم قصير وادخلوا الى غرفة لاضوء فيها .. وخيل لميشيل انها فى الطابق الارضى اذ كانت تعلو مسافة قليلة فوق مستوى الشارع ..

ومرت لحظة دون أن يتكلم أحد منهم ٠٠ وكانت هذه دائما تجربةمرهقة وعندما يكون العدو هو الجستابو فان الموقف يكون أكثر مشقة ٠٠ وكان ميشيل مأخوذا وخائفا من أجل زملائه الثلاثة أكثر من نفسه ٠٠ فقد شعر بمسئوليته في القبض عليهم ، وكان منزعجا بدرجة عميقة من تفكيره في الاعضاء الآخرين في الشبكة الذين يحتمل انهم يعانون نفس المصير وأخذ يسأل نفسه عن كيفية حدوث ذلك ٠٠

وقطع ليجندر حبل الصمت بمرحة الذى لا يقهره شيء : وأخيرا هانحن هنا أيها الاخوان ٠٠ وأنا أدفع كل ما أملك لنكون في أى مكان آخر ٠٠ وكان عقل ميشيل منصرفا الى التفكير ٠٠ لقد تركهم العدو معا : وهـذه فرصة يجيب اقتناصها ٠٠

على أنه قبل أن يستطيع أن يفعل أى شيء فتح الباب ونودى عـلى اسماء جندرون ومايللى ٠٠ وتعثرا فى خطواتهما الى الخارج ، ودفع بشخص آخر الى الداخل ثم قفل الباب ثانيا ٠٠ وادرك ميشيل أن زميلهم الجديد قد يكون (جاسوس بوليسى) ومن ثم رأى من الافضل ان يلزم السكوت ٠٠ كان دائما يتناقش مع ليجندر وديجاريبه عما يقولانه اذا استجوبا : انهما كانا موظفين فى شركة جازوجين ولا يعرفانه الا بأنه مديرا لعملهما ٠٠ وكلما استمر تمسكهما بهذه القصة كلما توفرت الفرصة لنجاتهما ، أما مايللى فكان أمره مختلفا فهو كموظف سكة حديد فى (لوبورجيه) كان من الصعب عليه أن يشرح أسباب مقابلته لميشيل فى باريس ٠٠

وميشيل فيما يختص بنفسه لم تكن تساوره الاوهام ، فلم يكن لديه أهل فى أن يخدع الالمان ، فهم يعرفون عنه الكثير ٠٠ لقد كانت هذه هى النهاية المنطقية لمغامراته ، ولم يبق أمامه الا مهمة واحدة هى أن يتستر على معاونيه ٠٠

ومرت خمس دقائق كان يجمع فيها شتات أفكاره للاستجواب القادم ثم جاء دوره ٠٠ وعندما خرج وجد نفسه فى بهو به سلم يؤدى الى دور أعلى ٠٠ وصعد هذا السلم وحراسة يدفعونه لصعوده ، الى أن استطاع أن يرى من خلال باب مفتوح المنظر الخلفى لليجندر يقف أمام مكتب ٠٠ وفى نفس هذه اللحظة كان ليجندر يقول بصوت مرتفع وقد سمع صوت اقتراب ميشيل ، انى أكرر ماقلته من اننى لست الا عميلا «لشركة جازوجين» ٠٠

وأدرك ميشيل أنه هو المقصود بهذا الكلام ، فتشجع وعرف انليجندر قد نفذ الخطة المتفق عليها ..

وعندما دخل الغرفة ، اخرجوا ليجندر ، واتيحت لهما فرصة لكى يتبادلا نظرات التشجيع ..

كانت غرفة طويلة عالية بها شاشة سينما فى احدى نهاياتها ومسرح وكابينه للملقن فى الطرف الآخر .. وكانت ستائر النوافذ مسدلة ..

وكان يجلس اربعة مستجوبين الى مائدة طويلة ولاحظ ميشيل أنهم جميعا كانوا شبانا يرتدون ملابس مدنية انيقة .. أحدهم كان فى سن الاربعين لم يكن يبدو عليه أنه المانى ولم يكن ثقيل الظل فى مظهره .. أما الثلاثة الآخرون فكان يبدو عليهم البرود والقسوة ..

وأحدهم بصفة خاصة ، وكان يبدو أنه الرئيس كان متأنقا بشكل كريه .. فى سنواته الثلاثين ذو وجه بيضاوى طويل واسنان رديئة وكان الاخرون يسمونه (رودى) واتضح فيما بعد أنه بلجيكى ..

ووقف فى المؤخرة اثنان من رجال البوليس بالملابس المدنية اللذان كانا يحرسانه فى العربة وكان أحدهما ، وهو أشدهما وحشية ، كان يظهر أنه فرنسى ..

ولما أصبح ميشيل فى النهاية فى مواجهة الجهاز الفعلى الذى ظل طيلة أربع سنوات يخضع نصف أوربا ، أحس بان شجاعته أخذت تضمحن .. ولمقاومة انهيارة أخذ يركز تفكيره على أعداد خطته .. التى كانت تقضى بأن يتحمل هو مسئولية كل شىء وان يعترف بكل الوقائع التى لا تعرض للخطر أى شخص آخر غيره وبهذه الكيفية كان يأمل ، ان لايستر الثلاثة الآخرين فقط ، ولكن الى توجيه الاهتمام نحو اعماله السيئة هو .. ولاحظ أن تفكيره فيما سيقوله قد اعطاه الشجاعة .. وانتظر السؤال الاول : وكان (رودى) هو الذى يدير الاستجواب .

ـ ماذا كنت تفعل فى قهوة «الصيادين» هذا المساء ؟

ـ كان عندى ميعاد عمل ..

ـ ولماذا عقدت الاجتماع فى هذا المكان ؟

ـ لانه ملائم للثلاثة الآخرين الذين يعيشون خارج باريس

ـ انت تكذب ‥ فقد قابلتهم بصدد جهودك السرية كعميل للعدو .

ـ على العكس انهم لا يعلمون أى شىء عن ذلك ‥ ليجندر هو أقدم بياع متجول عندى وكنت طلبته لمقابلة ووجارييه الذى كنا قد عيناه ممثلا لنا فى المعارض الاقليمية ‥ وما يلى كان يحضر لى معلومات عن تكاليف ارسال بضاعتنا بالقطارات وكنا دائما نرسلها بالبر ‥ ولكنك تدرك مدى صعوبة الحصول على الوقود ‥

ـ لايهمنى هذا ‥ اذن انت لاتفكر أنك عميل بريطانى ‥

ـ أنا فرنسى وطنى وأنا أعمل مع حلفائى ‥

ـ لماذا ؟

ـ كوسيلة فعالة لاستمرار الحرب ضدكم ‥ وأنا آسف انى غير مستطيع أن أحاربكم بشكل سافر ‥

ـ وها أنت ترى أننا الاقوى وانكم قد خسرتم الحرب ‥

ـ أنا شخصيا قد فقدتها حقا ، ولكن أنتم ستفقدونها ‥

ـ هل أنت مستعد لان تخبرنا كيف كانت تقوم أعمال السرية ؟ ولم يجب ميشيل على هذا السؤال ‥

ـ ها انت ترى أننا نعلم كل شىء عنك ‥ وانك كنت تسافر فى كل انحاء (ميدى) كجاسوس وكنت تحصل على المعلومات وتبلغهـا الى البريطانيين فى سويسرا ‥

وكان ذكر (ميدى) أشارة مفيدة ‥ فاذا كان المبلغ عنهم ، على ماكان يظن ، هو المرأة التى كانت فى المقهى فلابد أن تكون قد كشفت عما سمعته

من أحد له صلة بتنظيمه فى الجنوب ، الذى كان مقصودا على عدد قليل من العملاء ٠٠ وكان سيمون بوارد قد قبض عليه فى شهر نوفمبر ، وبالرغم من انه لم يشتبه فى أحد فى ذلك الوقت ، ولكنه تحقق الآن أنه لابد أن يكون نتيجة نشاط نفس المبلغ ٠٠

ـ أنا لا أفكر دلك٠٠ لقد كنت أجمع المعلومات التى أستطيع الحصول عليها والتى كنت أظن انها نافعة لحلفائنا ٠٠ وكنت أقوم بزيارات منتظمة للسفارة البريطانية فى برن ٠٠ وكانت تقاريرى تسلم الى الكولونيل كارت رايت الملحق العسكرى ٠٠ واذا كنتم تشكون فى كلامى فيمكنكم أن تروا اسمه فى دفتر التليفون ٠٠ وليس سرا أن من عمله استلام تقارير المخابرات فهذا من عمل الملحق العسكرى كما لابد تعلمون ٠٠

ـ وهل انت مستعد أن تعطينا اسماء معاونيك ؟

ـ لم يكن لى معاونون ٠٠ كنت أقوم بالعمل بنفسى ٠٠

ـ اننا نعلم أن هذا كذب ٠٠ فعندك كثيرون من الناس يساعدونك ونحن نريد اسماءهم ٠٠

ـ هذا لايهمكم فى شىء ، معظمهم من الناس البسطاء الذين لم يشكوا فى الدور الذى أقوم به ٠٠

ـ ومع ذلك فنحن نريد اسماءهم ٠

ـ اخشى اننى لا استطيع مساعدتكم فى ذلك ٠٠

ـ هل أنت حقا غير مستعد لتعرفنا أسماءهم ؟

ـ على الاطلاق ٠

ـ هل تعلم أن هذا سيكفيك كثيرا ؟

ـ ليس هذا بالامر الغريب بالنسبة لى ٠٠

ـ وما هى كلمتك الاخيرة ؟

ـ هى نفسها ٠٠

ـ حسنا ٠٠ انك ستغنى الليلة كعصفور صغير ٠٠

وتحول رودى الى أحد الالمان وكان لا يزال يتكلم بالفرنسية وقال « يحسن أن تعد له أحد أجهزة الالكترون ٠٠ بل كليهما ؟ ثم نظر الى ميشيل قائلا « هل هو قرارك الاخير حقا ؟ » ٠

وهز ميشيل رأسه بالايجاب ٠٠ وتطلع رودى اليه بأعين بارقة كعينى القطة وقال فى بطء ونعومة : « أقول لك انك فى هذه الليلة ستتكلم ، نعم ستتكلم بحيث لا يستطيع أحد أن يوقفك عن الكلام » ٠

وعندما عاد ميشيل الى مكتبه كان الثلاثة الآخرين قد نقلوا ، وقفل عليه وحده فى الظلام ٠٠ وتلمس حوله فوجد قضيبا حديديا وحاول بعض الوقت أن يحك فيه قيوده الحديدية ولكنه سرعان ما نبذ هذه المحاولة ٠٠ ولم يكن أمامه الا الانتظار ٠

وأخذوا كل شيء من ميشيل بما فى ذلك ساعته ومفكرته التى كان يدون بها مواعيده ٠٠ ولذلك لم تكن لديه وسيلة لمعرفة الوقت ، ولكنه ضمن أن الوقت كان فى منتصف الليل عندما جاءوا اليه مرة أخرى ٠٠

أخذوه عبر ممرات الى بهو آخر ، حيث كانت المناظر قد وضعت عمدا لتثير الرعب والفزع ٠٠ سياط من الجلد ، وخراطيم من المطاط وحبال ، وعدة قيود حديدية ملقاة على الكراسى والموائد ٠٠

واعتقد ميشيل أن هذا هو المكان الذى سيجعله ـ تبعا لكلمات رودى ـ يغنى كعصفور صغير ٠٠ ولكن الموكب المشئوم استمر الى أن وصل الى غرفة الحمام ٠٠ وكان الفريق ـ علاوة على رودى ـ مكونا من أحد رجال البوليس الفرنسى وثلاثة رجال اشداء ٠٠

وبينما كان يملأ الحمام بماء مثلج كانوا ينزعون القيود عن يديه وطلب اليه خلع ملابسه ، وعندئذ ربط من كعبيه وربطت يداه من خلفه ٠٠ ثم

لكمة على وجهه من الرجل الفرنسى جعلته يتخبط الى الخلف ويسقط فى الحمام على ظهره ‥ وفى لحظة غمرته المياه كلية ولكنه حاول أن يخرج رأسه

وكان رودى يقف فوق رأسه وفى يده مذكرة ميشيل ‥ وقال ‥ أرى انه كان عندك موعد للغد ٦ فبراير فى الساعة التاسعة بمحطة أوسترليتز مع شخص رمزت لاسمه بالحرفين ش.ج فقل لى ما هو اسم هذا الشخص ‥

وهذه الحروف ترمز لاسم شارلس جويار وهو ضابط سابق فى الجيش السويسرى عنده محل نبيذ فى (أيتامب) ـ وكان هذا مكلفا من قبل ميشيل بان يضع رسومات للمطار الجديد فى مون دزير وان يبلغ عن تحركات الالمان الجوية ‥ وانه كان يأتى بكيفية منتظمة الى باريس ، وكان دائما يقابله ميشيل أما عند المحطة أو خارجها بالضبط ، أو عند مدخل الحديقة المجاور ‥

وسأله رودى «الاتريد ان تخبرنى؟» ولم يجب ميشيل ‥ فضربوه على رأسه ، ضربة جعلته ينغمس فى الماء مرة أخرى ‥ وكرر له نفس السؤال ‥ من هو ش.ج ؟

فى هذه المرة اتيحت له الفرصة لكى يهز رأسه قبل أن ينزل عليه سيل من اللكمات يضطره للهبوط تحت الماء مرة أخرى ‥

وللمرة الثالثة خرج وهو يلهث ، انما لكى يتلقى نفس المعاملة ‥

استمر كل هذا فى حوالى نصف ساعة كان التأثير أكثر فعالية مع اشتداد الضرب ، كما أنه لم يكن يمنح الوقت الكافى لكى يسترد أنفاسه قبل أن يفطس ‥ وبعد الجولة الخامسة أو السادسة أخذ يشرب الماء واقترنت محاولاته بمزيد من الغيظ والجنون ، وشعر بأن قواه أخذت تضمحل .

.. ولم يعد يحسب عدد الجولات ولكن بعد مدة معينة سحبوه الى الخارج وأعطوه استراحة لمدة عشر دقائق . ثم بدأت العملية من جديد ‥ وقد

كررت أربع مرات أخرى وكانت كل دورة تستمر حوالى النصف ساعة ٠ ولكن مع زيادة مدة الفواصل اذ أن قواه المنهارة كانت تتطلب وقتا أطول لتسترد نشاطها ٠

وفي الجولات الاخيرة بعد أن شرب كمية من المياه ، جاءت لحظة لم يعد يحتمل فيها أى مقاومة ٠٠ وعند ظهور أول بادرة لذلك ، وكان معذبوه يلاحظونه بدقة ، كانوا يسحبونه لنصفه الى الخارج ورأسه مفوق جانب الحمام بينما كان يقوم بتفريغ جوفه من المياه ، وجاءت لحظة عجز فيها حتى عن افراغ المياه من جوفه ٠٠ وعندئذ وضع الجندى الفرنسى ركبته على معدة ميشيل وضغط عليها لاخراج المياه منها بالقوة ٠

ومن بين جميع أنواع التعذيب ، التى كان يستعملها الجستابو ، ولو أنها ليست من ابتكارهم ، كانت عملية الحمام هى أكثر تأثيرا ، لسبب بسيط وهو أن هذه العملية لو نفذت بمهارة ، فان الضحية لن تفقد الوعى أبدا ، بينما فى حالات أخرى كالضرب وغيره من الوسائل الوحشية الاخرى فان سرعان ما يشعر بالضعف والغيبوبة ٠

والهدف من هذا الاجراء هو الابقاء على حياة الضحية بعمل كل شىء فيما عدا تفريقه فعلا ٠٠ وغريزة حب البقاء تكون عادة قوية حتى أنها تضطره الى المقاومة ، والمكافحة التى تكون عادة مؤلمة مريرة بحيث أنه فى ٩٥٪ من الحالات تنتهى بأن يفعل الضحية ما يطلب منه ٠

وقال ميشيل نفسه انهم لو كانوا قد جربوا محاولة أخرى معه لكانوا قد نجحوا ٠٠ ولو استطاع أن يقتل نفسه باغراق نفسه لفعل ، ولكنهم لم يسمحوا له أن يفعل ذلك ٠٠ وقد تحمل خمس محاولات التى استمرت مع الفواصل التى بينها حوالى ثلاث ساعات ٠

وبينما كان يستريح بعد المحاولة الخامسة ، وكان أقرب الى الموت منه الى الحياة ، ورأسه مسندة الى جانب الحمام سمع صوت رودى يقول : اننا نضيع وقتنا مع رجل عنيد غبى رأسه كرأس الخنزير ٠٠ ان لدينا وسائل أفضل من هذه ٠

وعندئذ سمع العصابة تخرج والباب يقفل من خلفها وبعد قليل حاول أن يسترد ما يكفى من قوته لكى يتدحرج من الحمام وعلى الارض ٠٠ كان

ممدودا هناك يرتعد من البرد والضعف ٠٠ وبعد قليل فتح الباب وظهرت أمامه امرأة متقدمة فى السن ٠٠ وكان فى يـدها كسرة من الخبز كانت تقطعها أجزاء صغيرة وتعطيها له قطعة فقطعة ٠

وعندما ابتلع ميشيل آخر قطعة ابتسـم لها شـاكرا وكان لا يزال عاجزا عن الكلام ، وانسحب الملاك المجهول ٠٠ وعلم بعد ذلك أنها احدى امرأتين ايطاليتين كانتا تعملان كسجانات فى المبنى ٠

وقد أنعش تصرف المرأة مع ميشيل روحه المعنوية ، وليست التغذية فقط ـ ولو أنه كان فى حاجة اليها ـ هى التى أنعشـته ولـكنه التصرف الانسانى فى مثل هذا المكان الذى يتجرد من كل مظاهر الانسانية ٠

وبعد ذلك عاد الحراس وأفرجوا عنه وسمحوا له بارتداء ملابسه ٠٠ ثم قيدوا يديه مرة أخرى وحبسوه فى غرفة أخرى ٠٠ كان فى حالة سيئة للغاية ولكنه عزى نفسه بفكرة أنه قد ربح الجولة الاولى ، وأنه لم يخسر المعركة بعد ٠

ولقد كتب زعيم المقـاومة والمؤلف المعروف الذى يكتب تحت اسـم « ريمى » ـ ولو أنه شخصيا لم يعذب اطلاقا ـ بعض ملاحظات شديدة عن الاشخاص الذين عذبوا فقال أن عضو المقاومة الذى يقع فى أيدى العدو ، ويفقد قدرته على ملازمة الصمت نتيجة التعذيب لا يجب أن يعتبر خائنا ٠ على العكس أن الفرق بينه وبين المواطن الذى بقى سلبيا فارق كبير هو الفرق بين المحـارب وبين الرجل المحجم المتكاسـل ٠٠ أما أولئك الذين صمدوا وكانت لديهم الشجاعة للمقاومة الى النهاية فهؤلاء نخبـة صغيرة ممتازة ٠٠ وذكرى معركتهم وكفاحهم يجب أن تعتبر مقدسة ويجب أن تملانا بالتقدير والاحترام لهم ٠

ويعبر هذا القول عما يجب أن نشعر به جميعا نحو تلك الفئة القليلة التى استطاعت ، مثل ميشيل ، أن تقاوم الى النهاية ٠٠ وكان تعليقه هو على ما عاناه من تعذيب « فى الحقيقة ان الله جل شأنه هو الذى منحنى قوة الاحتمال العجيبة التى جعلتهم يتعبون أكثر منى » ٠

وفى الساعة الثامنة أحضروا له قدحا من القهوة ، وبعد ذلك بسرعة جاء رجل البوليس الفرنسى ومعه أحد الالمان ، وكان ميشـيل يتوقع أن

يعودوا به الى غرفة الحمام · ولكنهم بدلا من ذلك قادوه الى الجراج ووضعوه في مؤخرة احدى العربات وحوله حارسان على جانبيه ·

وعندما سارت العربة قال الرجل الفرنسى « اننا نذهب بك الى محطة أوسترليتز ·· وسنقف أمام باب الخروج وعليـك أن تتعرف على ش.ج عندما يخرج ، فاذا لم يفعل ذلك قبل أن يخرج آخر مسافر فالاوامر التى لدينا تقضى باطلاق النار عليك فى الحال ·

وقبل وصول القطار القادم من ايتامبس بخمس دقائق تقدمت العربة داخل فناء المحطة ببطء الى جانب باب الخروج واستمرت ماكينتهـا فى الدوران والحارسان حوله بمسدساتهما مستعدة ·

ولم يكن لدى ميشيل أى مخاوف طالما أن « جويارد » ينفذ التعليمات ، وهى أن لا يقف أبدا ولا ينظر حواليه اذا لم يجده ، بل يسير بمفرده فى الشارع متجها نحو حديقة النباتات ·

كانت ساعة المحطة تشير الى التاسعة ، وميشيل يحدق ببصره الى الامام بقدر ما يستطيع ويداه مقيدتان خلفه ·· وبعد دقيقة خرج رجل يحمل حقيبة صغيرة وكان هو جويارد ·· كان أول من خرج من المحطة ، مما دعا الى دهشة ميشيل ، ولو لاحظ رجلا البوليس ما اعتراه من الدهشة بدلا من أن يراقبا باب الخروج ، لأدركا بدون شكأنه قد نم على نفسه ولكن حركة ميشيل مرت من غير أن يلحظاها ·· وعبر جويارد فناء المحطة دون أن يلتفت يمينا أو يسارا ثم اختفى فى زحام الطريق المؤدى الى الحدائق ثم خرج باقى الركاب أفرادا قلائل قلائل فى بادىء الامر ثم ازدحم بهم فناء المحطة ·· وعندما خرج آخرهم نظر رجال البوليس الفرنسى الى ميشيل وضربه على وجهه بطرف بندقيته وصاح به « ســنعلمك أيها الحقير كيف تخدعنا » واشترك معه الجندى الآخر فى ضربه على رأسه ووجهه الى أن تورمت عيناه وجرحت شفتاه وسال الدم من وجهه ·

وعادوا الى شارع ماليه ستيفنس حيث حبسوا ميشيل مرة أخرى ·· وفى الصباح أخذوه للاستجواب بواسطة أحد ضباط الجستابو ·· وفى هذه المرة كانت الجلسة قصيرة ·

ـ اذا كشفت لنا عن منظمتك سنفرج عنك فى الحال ·

وهز ميشيل كتفيه دون أن يتكلم ··

وفى تلك الليلة سمع فى الغرفة المجاورة له ثلاثة أسرى آخرين يقدمون الى عملية التعذيب فى الحمام ·· وقد سلم اثنان منهم بسرعة أما الثالث فقد قاوم بشجاعة كما فعل ميشيل ·

وكان الضحية ، كما علم ميشيل فيما بعد شابا فرنسيا ضابط بحريه يدعى (دى بيمودان) من عائلة ارستقراطية وقال عنه ميشيل أنه كان نبيلا فى تصرفاته أيضا ·· وقد رحل فيما بعد وعاش الى ما بعد الحرب ولكن صحته كانت منحطة منهارة ومات فى فرنسا منذ سنوات قلائل ·

هذا التعذيب الليلى لم يكن بطبيعة الحال ليرفع من روح ميشيل المعنوية ، وفى حالة من الجوع والقشعريرة من البرد · اذ كان الثلج يتساقط بشدة فى باريس فى هذا الوقت · كان ينتظر هو أيضا دوره معتقدا أنه لابد أن يجىء · فكرة واحدة فقط هى التى كانت تشجعه : انه غلب العدو مرة وكان أقوى منه ·

ولكن الليلة قد انقضت وقد تركوه وحيدا ·

وفى الصباح قرر أن من الواجب عليه أن يحاول الهرب قبل أن تأتى عليه ليلة أخرى ·· فطلب أن يذهب الى دورة المياه وسمحوا له بفك يديه بينما انتظر أحد الحراس فى الخارج والباب موارب ·· ولما وقف على المقعد أمكنه بالكاد أن يصل الى نافذة صغيرة تطل على حوش يقع فى جانب المبنى ·· ما كاد يخرج رأسه وكتفه حتى اكتشف أمره ·· وكانت النتيجة عملية تعذيب أخرى ·

وفى الليل ظل ينتظر ساعات يتصنت الى وقع الاقدام التى ستعلن له جلسة أخرى مع رودى : ولكن المبنى كان يغمره الهدوء والصمت ، وفى الساعات الاولى من الصباح اعتقد أن هذه الليلة ستمر واستطاع أن ينام لفترة قصيرة لأول مرة منذ القبض عليه ·

وفى اليوم التالى ، وهو اليوم الثالث لاعتقاله ، أخذوه للاستجواب فى غرفة أخرى مختلفة ·· أمام رجل لم يكن قد رآه من قبل · ومن مظهر الاحترام من جانب الآخرين الذين معه استنتج ميشيل أنه لابد أن يكون أحد كبار الضباط وأنه قدم حديثا من برلين ·

وكان تصرفه على شيء من المجاملة ويكاد يكون وديا فنزعوا القيود من أيدى ميشيل وسمحوا له بالجلوس ·· وسار الاستجواب على نفس الخطوط الاولى فيما عدا أن الالمانى لم يضغط عليه للكشف عن أسماء شركائه ·· وصرح ميشيل بعلاقاته مع البريطانيين ولو أنه لم يصرح باتصالاته الا مع (كارترايت) وهذه على أى حال لم تكن سرا بالنسبة للالمان ·· ولا بمكان المقابلات خلاف أنها مدينة بيرن ·

ويبدو أنه كان يحاول الاطنساب فى جهوده بينما كان الالمانى يريد التقليل من شأنها ·· فمثلا عندما قال ميشيل أن زياراته لسويسرا كانت نصف شهرية قال الالمـانى (يعنى مرة كل شـهرين) ويبدو أنه كتب مذكراته تبعـا لذلك ، وعنـدما قال أن البريطـانيين كانوا يدفعون له ٦٨ر٠٠٠ فرنك شهريا ، كرر الالمانى الرقم ٨ر٠٠٠ دون أن يذكر رقم ٦ كأنه لم يسمعه ·

وعندما قاربت المقابلة أن تنتهى سأله ميشيل أظن أن هذا سيكلفنى حياتى ؟

فأجاب الالمانى : نعم لسوء الحظ يا سيدى ، قالها فى تأثر كما لو كان آسفا على ذلك ·

كانت هذه آخر تجربة لميشيل مع شارع ماليه ستيفنس ، وفى تلك الليلة نقل رفاقه الثلاثة المنكودى الحظ الى شارع سوسيسى الذى يوجد به مركز رياسة الجستابو لكى يوجه اليه رسميا الاتهام ، ويسجل كعميل للعدو قبل أن يسجن فى فريسنس ·· ونقل هو وليجندر فى عربة واحدة بينما نقل مايللى ودوجاربيه بعدهما بقليل مقيدين معا ·

ولم ير ميشيل زملاءه أو يسمع عنهم شيئا منذ الاستجواب الاول ، فيما عدا مايللى الذى كان قد لمحه مرة عن بعد وكان منهارا بصفة كلية وهو بين أيدى حراسه ·

والآن بينما كانوا ينتظرون الشروع فى اتخاذ الاجراءات الشكلية ، كانت لديهم فرصة لتبادل الاخبار ·· كان مايللى لا يزال فى حالته من التـدهور بحيث لا يستطيع أن يحكى قصـته أما الآخران فكانا فى حالة معنوية طيبة نسبيا ·

وقال ليجندر أنه باستثناء الضرب الاعتيادى فانه لم يقاس كثيرا ٠٠ أما دوجارييه فقد علقوه لعدة ساعات مقلوبا ، رأسه الى أسفل ٠٠ وكانوا يضربونه من وقت لآخر وهو فى هذا الوضع ٠٠ وظل يحتج بأنه برىء وبعد ذلك لم يعذبوه مرة أخرى ٠

وقطع عليهم حديثهم وصول أحد الضباط ومعه بعض الجنود وتولوا استلام الاسرى من حراسهم الذين يرتدون الملابس المدنية ٠

وبينما كان الضابط يدرج أسماءهم فى السجل ، قال ميشيل « لا حق لك فى حبس هؤلاء الرجال الثلاثة فقد قبض عليهم بدون وجه حق وهم أبرياء تماما » ٠

فقال الالمانى « اذن فليس لهم أن يخافوا من شىء قالها فى لهجة أدبية وبلغة فرنسية سليمة ٠٠ واستطرد قائلا « ان الذين لم يقوموا بأى عمل ضار سيفرج عنهم » ٠

والواقع أن ليجيندر ودوجارييه قد أفرج عنهما بعد ثلاثة أشهر ، اذ لم يكن هناك أى دليل ضدهما ٠٠ أما مايلى الذى ضبطت ضده وثائق تدينه فقد رحل الى موتوزين حيث توفى من سوء المعاملة بعد ذلك بشهور قلائل ٠

١٦

فريســــــــــــنس

كانت عربة السجن تنتظر في الفناء ٠٠ وأركبوا فيها ميشيل وزملاءه الثلاثة معزولين عن بعضهم فى أقسـام منفصلة تكاد تكفى لجلوسهم ٠٠ وكان الظلام دامسا ٠٠ وسارت العربة وأحس ميشيل انها تنزل منحدرا وتتحول الى اليمين ثم أسرعت فى سـيرها قاصـدة فريسنس مخترقة شوارع باريس الصامتة ٠٠

وبعد نصف ساعة هدأت العربة من سيرها ودارت الى اليمين ثم وقفت وسمع صوت بوابات حديدية ثقيلة تفتح ٠٠ واستأنفت العربة سـيرها على أرض مرصوفة ثم وقفت أخيرا فتحت أبواب حواجزهم ونزل الرجال الاربعة من العربة يحيط بهم الجنود الالمان ، ولاحظ ميشيل أن سـائق عربة السجن كان يرتدى القبعة الزرقاء الخاصة بادارة البوليس ، وان العربة الصغيرة المكشوفة التى كانت تحرس عربة السجن كان يركبها أثنان من رجال البوليس الفرنسي ، وقد أحزنه أن يرى مواطنيه يقومون بأعمال العدو القذرة ٠٠

واقتادوهم الى سلم نزلوا منه الى ممر أرضى خافت الضوء وطويل جدا ٠٠ وأدى بهم سلم آخر الى بهو واسع ٠٠ وكانت محاطة من جميع النواحي بشرفات تمتد بينها كبارى أو ممرات بعرض البهو ، وكان يمكن أن يرى من تحتها أبواب الزنزانات ، وبكل منها فتحة لامكان رؤية الغرف من الداخل ٠٠

وبعد أن نزعت القيود والسـلاسل من القادمين الجـدد نقلـوا الى الزنزانات المختلفة ٠٠ وكانت زنزانة ميشيل بالدور الارضى وقبل أن يقفل عليه بداخلها سأله صف ضابط ألمانى عما اذا كان «أرهابيا» فأجاب كلا بل أنه وطنى ٠٠

فقال الالمانى «اذن ، انت تدخل هنا يامستر وطنى» واخرج مفتاحا صخما وفتح له بابا ضخما ، ودخل ميشيل وقفل الباب خلفه ٠٠

كان الظلام حالكا ولكنه استطاع أن يسمع شخصا يتحرك على الارض ٠٠ قدم نفسه اليه وتلقى من زميله غير المرئى ردا مهذبا ولو أنه ببرود ٠٠ وقدر ميشيل من صوته أنه فى حوالى الخمسين من عمره ٠٠

وقال الرجل الغريب لميشيل : تجد بعض القش فى ركن الغرفة وهنا شىء يمكنك أن تستعمله كغطاء وتحسس ميشيل حوله فوجد القش وأخذ ملاءة من رفيقه ، لف فيها قدميه ، وشد سترته الخفيفة حوله ونام ليلته الاولى فى السجن ٠

وقبيل الفجر كان البرد القارس قد أيقظه من النوم وظل مستيقظا وقتا خيل له أنه لا ينتهى منتظرا طلوع النهار ٠٠ وعندما استطاع أن يرى لاحظ أن زميله أصغر كثيرا مما كان يظن وكان أسمرا طويل القامة ، لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام ويبدو عليه أنه رجل مثقف ٠٠

وقبل أن يتبادلا كلمات كثيرة كان الباب قد فتح وطلب الى ميشيل أن يخرج لينضم الى طابور من المساجين ٠ كان من بينهم مايلى وليجيندر ودوجاربيه ٠٠ وسار الطابور فى ممرات تحت الارض الى أن وصل الى غرفة مزودة برشاشات الاستحمام (الدش) وجهاز غسيل بخارى ضخم وهنا طلب اليهم أن يخلعوا ملابسهم ويلفوا ملابسهم قبل الاستحمام بالدش ثم أرسلت طرود الملابس الى الغسيل البخارى ٠٠

ولما كان غسل الملابس يقتضى وقتا أطول من استحمامهم ، فكان المساجين ينتظرون فترة وهم عرايا فى انتظار ملابسهم ٠٠ وفتح الباب واستطاع ميشيل أن يرى من خلاله فناء صغيرا وفى نهايته السور الخارجى للسجن ٠٠ وفيما بين ذلك يوجد مبنى منحدر السقف كان ارتفاع طرفه المنخفض لا يزيد كثيرا عن قامة الانسان ، بينما الطرف المرتفع كان يصل تقريبا الى قمة السور ٠٠ وقد تبادر الى ذهنه أن رجلين يعملان كسلم كل للآخر يمكنهما أن يصلا الى السطح ثم الوصول الى السور والهبوط من الجانب الآخر ٠٠ وكان الحراس قد انسحبوا ، والالمان الوحيدون الباقون هما اثنان صف ضابط مكلفان باجراءات الغسيل البخارى ٠٠

وبينما كانوا يرتدون ملابسهم عمل على أن يهمس بكلمة الى ليجيندر وأشار هذا بالموافقة ، ولكن فى هذه اللحظة عاد الحارس ليقود المساجين الى الزنزانات .. وأصبحت أى محاولة للهرب مستبعدة اطلاقا .. الا أن اكتشاف وسيلة للهرب بعث فى ميشيل شيئا جـديدا يفكر فيه ورفع روحه المعنوية ..

ثم أخذوا بعد ذلك الى صف من الزنزانات الشبيهة بالعلب لا يزيد حجم كل منها عن كشك التليفون ، وحبسوا فيها كل رجل فى كشك .. ومن وقت لآخر كان ينادى على اسم أحد المسجين ثم يطلق من هذا الحبس ويؤخذ الى الاقامة الدائمة فى السجن ..

وجاء دور ميشيل بعد عدة ساعات أحضروا له فى أثنائهـــا شرابا ساخنا لا اسم له وقطعة صغيرة من الخبز .. وبعد عدة ممرات وســلالم وصل به الحراس الى الطابق آلثالث من القسم الثالث . وفتح باب يحمل الرقم ٣٩٤ ودخل سجنه الجديد وكان ذلك يوم الاربعاء ٩ من فبراير سنة ١٩٤٤

كانت زنزانة مضيئة للغاية ونظيفة جدا .. يدخلها ضوء النهـــار من نافذة كبيرة ، كان الجزء العلوى منها مفتوحا لدخول الهواء وفى الركن السفلى كان جزء من الزجاج مقطوعا وكان يمكن ازالته أو اعادته حسب الحاجة . وكان هذا يمكن شاغلى هذه الزنزانة من التطلع بعين واحدة الى جزء محدود من المنظر الخارجى .. ولما كان القسم الثالث هو أقدم بلوك الى سور السجن ، وكانت الزنزانة ٣٩٤ على الجانب الخارجى فكان منالممكن اختلاس النظر الى الحقول والاشجار والى الطريق والبيوت حيث النـــاس الذين ما زالوا يعيشون أحرارا .. وكل من قاسى مرارة السجن يعرف مدى ما يعنيه هذا بالنسبة لميشيل ..

وكان فى الركن القريب من الباب دورة مياه W.C. وفوقها حنفية . وكان أثاث الغرفة يشمل رفين مثبتين فى الحـائط وسرير حديد فردى وعليه أربعة مراتب مرتبة بكيفية فنية تجعله يشبه الكنبة الكبيرة .. وفى هذا المكان كان شاغلو الزنزانة الاربعة ، التى كان مقصودا بها أن تكون لسجين واحد ، يقضون معظم يومهم ..

وعندما جاء ميشيل لينضم اليهم لم يكن يوجد فيها غير اثنين فقط ، أما الثالث ، كما قالوا له ، فقد كان يســاعد فى توزيع المؤونة وتأدية بعض الخدمات الصغيرة للحراس ، وكان يسمح له بالخروج من الزنزانة كل صباح ولا يعود اليها الا فى آخر النهار ••

وكان أصغر الاثنين فتى فى الثامنة عشر اسمه جاك دونين • أحـد أفراد عائلة كبيرة ، أفلت أربعة منها من معسكرات الاعتقـال لينضموا الى حركة المقاومة ، وكان قد قبض عليه فى روين بناء على بلاغ من رجل فرنسى يدعى دوردان •• ونفس هذا الخائن هو الذى وشى بأحد عمـلاء ميشيل •• وهو (دودمار) مخبر ميشيل فى روين والذى أدت جهوده الى كشف مواقع السلاح السرى فى أوفاس •

أما الرجل الاكبر ففى حوالى الخمسين كان على العكس ذا مظهر رخو فاتر ويدعى بوجراس ، صاحب مقهى صغير فى الاقاليم ، وليست لديه أى فكرة عن سبب اعتقاله وكان يثق فى الافراج عنه •• ويبدو أن زوجته التى كانت مسجونة هى أيضا فى فريسنس كان لها ضلع بكيفية ما مع حركة المقاومة ، وأن الالمان كما هى عادتهم يتهمون الطرف الآخر بالجريمة .

والسجين الرابع الذى لم يقابله ميشيل الى فى المساء كان ضــابطا صغيرا يدعى جارديول وكان عضوا فى هيئة مقاومة منظمة بواسطة الجيش وكان شابا متحفزا يلتهب وطنية ••

كانت لا تزال تظهر على وجه ميشيل ورأسه ، وفى معصميه أيضــا آثار القيود الحديدية ، شواهد على المعاملة التى عامله بهـا الجستـابو • فكانت أفضل تقديم له لزملائه الجدد الذين رحبوا به كزميل مقــاتل ، وكدليل على التضامن أصروا أن يشاركهم فى طرد من الاغـذية كان قد وصل الى السجن من عائلة دونين •

وشعر ميشيل براحة كبرى اذ وجد نفسه فى مثل هذه الصحبة •• النظام الجيد فى الزنزانة ، وصداقة زملائه ، وروحهم المعنوية العالية ، كل هذا جعله يشعر أنه عضو فى نادى أكثر من أن يكون سجينا ، وجعله ينسى أنه على الارجح لن يغادر هذا المكان الى مكان تنفيذ الحكم باعدامه •

وفى المساء فرشت ثلاثة من المراتب على الارض بينما بقيت الرابعة على السرير ·· ونام ميشيل تحت النافذة ·· وكان الضوء يشعل فى فترات منتظمة من الخارج لكى يتمكن الحارس من رؤية ما بداخل الغرفة من خلال فتحة خاصة بالباب ··

وعند حوالى الساعة السادسة يقوم المساجين ويبدأ روتين يوم جديد على كل منهم أن يطوى فرشته ثم يغتسل بالدور تحت الحنفية ، ثم ينظفون الزنزانة بواسطة مقشة مصنوعة بمعرفتهم ويتلو ذلك تمرينات لمدة ١٥ دقيقة كان يشترك فيها الجميع فيما عدا بورجاس ·

وفى السابعة كان صوت الساعة يشير الى وصول طعام الافطار وكان يتكون من سائل بنى ساخن ليس عديم الطعم كلية · كما يملأ به أقداحهم موزع المؤونة من اناء كبير معه ، وفى نفس الوقت كان كل منهم يتسلم مؤونته اليومية من الخبز · ·

وهذه هى اللحظة الوحيدة فى اليوم التى يحظى فيها المسجونون بنوع من الاتصال بالحياة خارج زنزاناتهم · وبالرغم من أن الاجراءات يشرف عليها جندى ألمانى ، الا أن موزع المؤونة كان يستطيع عادة أن ينقل أى نبأ من الانباء التى يكون قد ألتقطها من أى مكان ·· فمثلا سيكون هناك تفتيش على الزنزانات اليوم ، أو أن الطرود يجرى تسليمها من حرف E الى حرف H أى المساجين الذين تبدأ أسماؤهم بالحروف E, F, G, H أو التحذير من شىء معين لغاية صدور تنبيهات أخرى ·

وبخلاف وجبة الافطار كان تقدم وجبتان أخريان فى خلال اليوم ·· وأنواع الطعام هى نفسها دائما : كوز شوربة الذى لم يكن أبدا غير مستساغ وفى حالات نادرة يثير الشهية وهى الحالات التى تقترن بتقديم هدايا غذائية من وقت لآخر من الصليب الاحمر الفرنسى ، وبعض المنظمات الخيرية وهذه كانت توزع عادة بالعدل بواسطة الالمان ··

وفى الواقع أن ادارة فريسنس لم تكن عديمة الانسانية والسجن ولو أنه مزدحم للغاية الا أنه يعتبر من أحدث سجون فرنسا وكان المسجونون بالاجمال يعاملون بكيفية عادية والحراس ومعظمهم من قوات احتياطى الجيش كانوا باستثناء قلة صغيرة ، كانوا رجالا دمثين لا يسيئون معاملة

من فى حراستهم من المساجين ٠٠ أما التعذيب وغيره من الاعمال الوحشية فكانت تجرى فى أماكن أخرى وغالبا فى مركز رياسة الجستابو فى شارع سوسيس ٠٠

كانت بداية ونهاية كل يوم تقترن دائما بتبادل التحيات التقليدى مع الزنزانات المجاورة ٠ وكان هذا يجرى بواسطة دقات على الجدران كانت تسمع فى الغرف المجاورة دون أن تلفت انتباه الحراس ٠٠ والتحية تتكون من سبع دقات بعضها قصير وبعضها طويل ٠٠ ثم يتبع ذلك سلسلة أخرى من الدقات تدل على عدد الموجودين فى الزنزانة ٠٠ ثم يرد الذين توجه اليهم هذه الاشارة بنفس الطريقة . وبعد الاتصال بالزنزانات التى على اليمين واليسار ، ينتقل الدق الى الارضية أو السقف حيث تسمع بواسطة الزنزانات العليا أو السفلى ٠٠

وبهذه الكيفية استطاع رفاق الزنزانة ٣٩٤ أن يوسعوا حدود معالمهم فكان يعرفون القادمين والذاهبين من جيرانهم ، وعلاوة على ذلك كانوا يشعرون بأنهم أقل عزلة ، ويحسون بأنهم يرتبطون بمجتمع يتحد معهم فى الروح والهدف وهذه ناحية يهتم بها المسجونون دائما ٠٠

وقد استطاعت عائلة ميشيل أن تقتفى أثره ، وفى اليوم الاول الذى سمح له بذلك استلم منها طردا من المأكولات والملابس ٠ وكذلك تلقى من القسيس الالمانى وهو قسيس من أتباع لوثر يدعى بيترز هدية عبارة عن التوراة وكتاب للتسابيح ٠٠ وكان الآخر يحتوى على تسبيحته المحبوبة وكان يقضى باقى يومه فى استذكار عبارات التراتيل ٠٠ وفى المساء بعد أن يسود الظلام بحوالى ساعة كان يشق سكون الليل صوت ميشيل وهو ينشد احدى التسابيح التى تقول : « ان الهى أقرب ما يكون اليك » ٠٠ وكان يعرف نغمتها منذ الطفولة وكان قد عرف من والديه أن فرقة الموسيقى فى الباخرة (تيتانيك) كانت تعزفها بينما كانت الباخرة تغرق فى مياه المحيط ٠٠

وفى المساء التالى بعد انضمام (جاك دونين) اليه كانا يكرران نفس المشهد ٠٠ وفى مساء تال قلدهما الاثنان الآخران ٠٠ وامتدت هذه العادة بسرعة الى الزنزانات المجاورة وفى نهاية الاسبوع كان كل نزلاء الجناح

الشرقي من القسم الثالث يمارسون انشاد التسابيح ٠٠ وبعد ذلك كانت مئات الاصوات من رجال ونساء تنشد التسابيح كل ليلة ، دون أن يتدخل الالمان في ذلك اطلاقا ٠٠

وفي خلال الاسابيع الستة التالية ، أخذوا ميشيل مرتين خارج زنزانته وهو مقيد الايدي خلف ظهره ويركب عربة السجن الى شارع سوسييس للاستجواب ٠

وفي المرة الثانية أبلغوه أنه حكم عليه بالاعدام ، وأن مهمة الدفاع عنه قام بها محام ألماني ٠ وضغطوا عليه لكي يعترف اعترافا تاما ٠

وقال ميشيل : ليس لدي ما أعترف به ٠٠

ولأول مرة شعر باليأس ٠٠ وتطلع من الفتحة التي في نافذة زنزانته فشاهد أولى بشائر الربيع ، واخضر الحقل الصغير الذي يقع خلف السجن وأخذ يزدهر تحت ضوء أشعة الشمس ، فظهرت الزهور في السياج المحيط بها ، واستطاع أن يسمع تغريد الطيور وأن يستنشق العبير الحلو للأرض المنتعشة ٠٠

وعندما فكر في موته وأنه لن يرى هذه المباهج مرة أخرى ، انتابه شعور بالذعر والالم ٠٠ وكان قد اعتاد على الاستسلام لمصيره وأن لايفكر في ذلك الا بهدوء وبرود ولكنه الآن وقد واجه الحقيقة فقد تخلى عنه هدوءه ، وأحس بأن سيطرته على نفسه أخذت تنهار ٠

وتطلع حوله يائسا بحثا عن شيء يجذب أفكاره ووقع نظره على قطعة من الشيكولاته كانت ضمن آخر طرد أرسلته اليه ابنته ٠٠ وكان قد احتفظ به ليستعمله كعملة ، أي ليرشي به حارسا ليؤدي له خدمة صغيرة أو للتبادل مع سجين آخر ليحصل منه على شيء مقابل يكون في حاجة أشد اليه ٠٠

وبدأ يقرض أحد أركان القطعة ، كان مذاقها جميلا ولكنه تلاشى بسرعة ، فأخذ يقرض ركنا آخر ثم غيره ٠ وسرعان ما أصبحت القطعة لا تصلح لتقديمها لأي شخص ٠ ولم يعد هناك داع لتوفيرها ، فأكل باقيها بشهية شديدة وكان يحاول أن يستخلص من كل قضمة أكثر قدر من اللذة

والاستمتاع بها . وعندما ابتلع آخر قضمة لذيذة منهـا كانت أزمتـه النفسية قد انتهت وشعر بارتياح واسترد تفكيره ونشاطه وقوته ، وسيطر على نفسه مرة أخرى ..

ومنذ القبض عليه لم ينقطع لحظة عن القلق على « الشبكة » وعما حل بأعضائها .. لا شك أنهم سيعلمون من عدم حضوره في المواعيد أن شيئا قد حدث له .. وتمنى أن يكون مندوبوه الذين عينهم على اتصال بهم .. ولكن أحد هؤلاء وهو ليجيندر معه في السجن وليس هناك من يحل محله لمواصلة الاتصال بالبريطانيين ..

وكان المفروض أن خلفه هو ليجيندر ، أهم عملائه وأقربهم الى ثقته . ومن الكيفية التي عولجت بها قضية بريتون اذ لم يستجوب ثانيـا منذ مغادرة شارع ماليه سيفنسن ـ كان يبدو أن هناك أملا في الافراج عنه ـ وفي هذه الحالة قد يحتاج الى تعليمات ميشيل ، وبالاخص بصدد الاتصال بالبريطانيين .

ولكن كيف السبيل للاتصال به ؟ لم يكن مسموحا للمساجين بأى أدوات كتابية .. يمكنه الحصول على الورق من لفـائف طرود المأكولات ولكن ليس لديه ما يكتب به .. وفي أحد الايام بينما كان ينبش الارض بحثا عن شيء حاد ، اكتشف ميشيل قطعة من الرصاص فكانت بمثـابة كنز ثمين تفوق قيمته أحلام البخيل وقضى يومه يكتب بهـا خطـابات ميكروسكوبية ، على قطع من ورق الصحف تتضمن تعليماته الى ليجيندر .

وكانت المشكلة الثانية توصيل الرسالة اليه . وعرف أن ليجيندر كان يشغل زنزانته في نفس الطابق ولا تبعد عنه كثيرا وفكر في طريقـة هي أن يعطيها لموزع الشوربة ويطلب منه تسليمها اليه ولكنه رأى أن هذه الطريقة خطيرة للغاية ، فلابد أن الجندى الالماني وهو موجود دائما سيكشف أمرها ويضبطها .

وفي أحد الايام بينما كان الصف ضابط الالماني المنوط به هـذا القسم ، يقوم بتفتيش الزنزانة ، كلمه ميشيل باللغة الالمانية وسأله اذا كان هناك أى عمل يستطيع أن يؤديه له وقد سر الالماني الذى لم يـكن نفورا من سماع السجين يكلمه بلغته الالمانية ، فتقبل طلبه بارتياح ، وفي اليوم التالي نودى على ميشيل وتسلم مقشة وطلب اليـه أن يكنس الممر الممتد خارج الزنزانات .

وأقبل ميشيل على هذه العملية بنشاط ، ووجه اهتماما خاصا بتنظيف ما تحت الابواب حيث كان يتجمع التراب بحيث أنه كان يستعمل يديه أيضا لمساعدة المقشة عند اللزوم ·· وهكذا عندما وصل الى زنزانة ليجيندر لم يجد صعوبة فى دفع الورقة التى تتضمن مذكرته من تحت الباب بدون اثارة شبهات الحارس الالمانى الذى كان يراقب العمل على بعد ··

وبعد أيام قلائل حصل ميشيل على اذن لرؤية ليجيندر بحجة اعطائه بعض الملابس الداخلية ، وعندئذ عرف مع سروره البالغ أن بريتون قد أفرج عنه هذا الصباح ·· وكان هذا أجمل خبر سمعه منذ اعتقالهم ·· انه لم يكن يعنى فقط أن (جندرون) المحبوب قد أصبح طليقا ، بل ان خط سويسرا يفتح مرة أخرى ، وتواصل الشبكة مهمتها فى تزويد الحلفاء بالمعلومات · (وعلم بعد ذلك أنليجيندر بعد الافراج عنه أبلغ البريطانيين فى سويسرا بكل قصة اعتقال ميشيل ، واستأنف هو زعامة الشبكة من بعده التى استمرتفىالقيام بأعمالها الناجحة المجدية لغاية تحرير فرنسا)
كان لذلك وقع عظيم فى نفس ميشيل ورأى فيه تتويجا للنصر الذى كسبه على خصومه فى غرفة الحمام فى شارع ماليه ستيفنسن · ولو كان قد خسر هذه المعركة ـ وتحدث ـ لكانت منظمته كلها قد أبيدت ولكنه يدرك الآن أنها ستحيا ، ومهما حصل له فان عمله سيستمر انه يستطيع فى هذه اللحظة أن ينادى بافتخار Mo iturus Vinco لقد انتصرت على الموت ·

كانت الليالى هى أسوأ أوقاته ، ففى بحر النهار يجد السجين عادة شيئا ما يقوم بعمله ، ولكنه عندما يرقد على مرتبته فى الظلام ، ولا شىء يشغل عقله أو يديه فليس أمامه الا أن يفكر فى حالته التعسة · وليس بين الآخرين ، باستثناء بورجاس من كان ينام أفضل من ميشيل ، وكان يستطيع أن يسمعهم ، بعد أن تنتهى أحاديثهم ، يتقلبون على فراشهم ·

وأحيانا ما كانوا يطلبون اليه أن يلقى عليهم بعض الاشعار فكان يلقى عليهم بعض القصائد الفرنسية الشهيرة · فكانت بالنسبة لهم بمثابة الدواء الذى يهدىء أرواح الرجال الذين بلغت أعصابهم المتوترة حد التمزق ، وكانت تمكنهم فى النهاية من نسيان بؤسهم بالنوم ·

ولكن هدوء السجن لم يكن يدوم طويلا ففى كثير من الليـالى كانت بعض الاضطرابات تكدر هدوءه ، كامرأة تصخب بكيفية هستيرية أو فتى أو زوج يصيح بعبارات حب أو يأس بين البلوكات · أو يدخل الحراس زنزانة لوقف أعمال غير قانونية ··

وكانت تحدث غارات جوية أيضا ، وعندها كان الحراس يمرون على الزنزانات ويضاعفون الحراسة على الابواب ، ضد محاولة انقـاذ الاسرى بواسطة رجال الباراشوت ، كما كانوا يعتقدون · والواقع أن البريطانيين كانت لديهم خطة لان يكرروا فى فريسنس ما فعلوه بنجاح فى سـجن (أمينز) اذ ضربوه بالقنابل وأتاحوا الفرصة لعدة مئات من المسـاجين من أعضاء « المقاومة » للهروب ، على أنهم لم ينفذوا تلك الخطة · على أنه فى احدى المرات سمع ميشيل ورفاقه صوت ماكينات الطائرات وانفجار قنابل شديدة وشاهد نافذة الزنزانة تضىء لحظة ·· وسمعوا فى اليـوم التالى من أحد القادمين الجدد أن مستودع البترول فى (فيترى سين) قد ضرب بنجاح ··

وفى الصباح مر الحارس على الزنزانات ليبلغ المسـاجين المطلوبين للمحكمة · وكانت هذه هى أفظع لحظة فى اليوم · فالمقصود بالمحكمـة الاستجواب فى شارع سوسيس ، حيث يطبق التعذيب بكيفية لا تتغير ، اذا كانت الاجوبة غير مرضية · والى أن يمر الحارس على زنزانة يكاد من فيها يكتمون أنفاسهم من الخوف ، فاذا مر وتجاوزهم عرفوا أنهم أصبحوا آمنين لمدة ٢٤ ساعة أخرى ·

ولكن ميشيل كان محروما حتى من هذا الامان · فان المساجين الذين صدرت عليهم أحكام بالاعدام كانوا غالبا ما ينقلون فى المساء لكى يقضوا الليل فى احدى زنزانات المحكوم عليهم بالاعدام ·· وكان كل يوم من مائة وخمس أيام كان يتوقع هذا الاستدعاء القاتل ·

لم تكن هناك فترة نظامية للرياضة ، فكان الاسرى يؤخذون من وقت لآخر فى جماعات صغيرة لقضاء عشرة دقائق فى الهواء ·· وكان هـذا يحصل فى فناء صغير يحيط به سور مرتفع تحت مراقبـة مستديمة من الديدبان · وكان ميشيل يقضى هذا الوقت دائما فى القيام بتمرينـات رياضية ·

وفى أحد الايام وجد دونين نوعا من النبات منبثقا من شق فى الارضية فاقتلعه من جذوره ، وخبأه ببعض الطين تحت سترته ولما عاد الى زنزانته أعاد زراعته في اناء فخارى ونما الزرع واذدهر أياما عديدة ، وامتـدت أغصانه الى النافذة • وكان دونين يعتنى به بشغف لانه كان يبعث فى جو الزنزانة شيئا من بهجة الريف ••

كان القسيسان الالمانيان ، أحدهما كاثوليـكى والآخر بروتستنتى يبذلان ما في وسعهما لتعزية الاسرى وكان مصرحا لهما بأن يقابلاهم على انفراد فى زنزانة منفصلة كانت تستعمل لتأدية فريضـة (الاعتراف) وأعطاء (المناولة) وأحيانا ما كانا يحضران لهم رسائل من عائلاتهم ، كما يقومان بابلاغ الرغبات الاخيرة للمحكوم عليه بالاعدام • وعن طريق هذه الوسيلة أرسل ميشيل الى زوجته آخر خطاب كان يتوقع ارساله اليها •

وبفضل القسس أيضا اتصلت مدام هولارد بعائلة جاك دونين وكان لذلك عواقب طيبة • فعائلة دونين واجدت الوسيلة للاتصال مع ابنهـا بواسطة رسائل كانت تخفيها داخل البسكويت • ومن ذلك الوقت كان كلما وصل طرد الى دونين ، تكون به رسالة أيضا الى ميشيل •

وبعد ذلك استطاعوا أن يبتكروا طريقة للرد على الرسائل فقد كان مسموحا للاسرى بأن يعيدوا أوانى الطعام نظرا لندرتها فوجدوا وسيلة لتخبئة رسائلهم فى قاع مزدوج لاوانى المربى وهكذا انشأوا نظـام مراسلات مزدوج ، فكان فى ذلك تعزية كبيرة سواء للرجال ولعائلاتهم •

وفى أواخر مارس ودعوا جارديول بقلوب حزينة ، فقد أرسل الى أحد معسكرات الاعتقال فى المانيا وحل محله شاب فى الثـامنة عشر ، طالب فى مدرسة المياه والغابات وكان قـد قبض عليه مع كل تلاميـذ فصله ، لانهم كانوا يتظاهرون بأخذدرس فى الزراعة العملية بينما كانوا فى الواقع يمهدون أرضا لهبوط المظلين فى غابة (فونتان بلو) •

وبعد ١٤ يوما نقل القادم الجديد ـ وهذه علامة سيئة ـ ولم يسمعوا عنه شيئا بعد ذلك • وحل محله شخص غير مرغوب فيه ، تاجر أخشاب ويبدو أنه قبض عليه بطريق الخطأ •• وكان شخصا مدعيـا ، ولم يخف اشمئزازه من سجنه فى زنزانة واحـدة من « الارهابيـين » الذين كان يعتبرهم باعتبارهم من (المتعاونين) بأنهم ليسوا أفضل بكثير من المجرمين العاديين •

على أنه أراد أن يجعل نفسه مفيدا لزملائه بمساعدتهم فى مشروع كانوا يفكرون فيه منذ زمن طويل ·· ولعلمهم بأنه سيفرج عنه بعد وقت قصير فقد أعطاه كل من ميشيل وجاك دونين عناوين عائلاتهم وكلفوه بتوصيل رسالة اليهم وكان المقصود بها تعريفهم بموقع الزنزانة وطلبوا اليهم الحضور خارج السجن فى موعد معين ·

ونجحت الخطة بكيفية مدهشة ، فبعد خمسة أيام أفرج عن تاجر الاخشاب ، وفي أول خميس عقب ذلك أكمل ميشيل وجاك استعداداتهما وباستعمال مقبض ملعقة مكسورة استطاعا بعد جهد بالغ فتح قفل النافذة وقبيل الساعة المحددة لحضورهم بدأ جاك يراقب الطريق من الثقب الصغير فى اللوح ، بينما وقف ميشيل وظهره الى الباب لكى يمنع الحارس من النظر الى الداخل ·· وبعد دقائق ظهرت شقيقتا جاك وكانتا تمشيان فى الممر الذى يخترق الحقل الذى يقع خلف حائط السجن · وفتح النافذة بحيث استطاع أن يلوح لهما بيديه وقد رأياه وردا له تحيته ·

تم تبادل المكان مع ميشيل وبعد برهة لاحظ ميشيل شخصين يسيران خلف الاثنين الآخرين وعرف فيهما زوجته وابنته · وكان أثر ذلك شديدا عليه اذ لم يكن يتوقع أن يراهما أبدا · فظهور أعز شخص عليه ، أمام عينيه ، لا فى حلم بل فى حقيقة واقعة ، كان أشبه بمعجزة ··

ولما لوح لهما بيديه ، أبديا علامة برؤيته وتحيته دون أى حركة أخرى تستلفت النظر ، وظل ميشيل يبعث لهما بقبلاته طالما بقيتا فى مدى نظره وعندما اختفيتا فى النهاية عن نظره جلس على الفراش وأغمض عينيه كما لو كان يريد أن يحتجز المنظر فى مخيلته وقتا أطول ·

وبعد ذلك بوقت قصير نقل رفاق الزنزانة الى زنزانة أخرى رقم ٣١٢ ــ ولو أنها كانت فى نفس القسم الا أنها كانت تطل الى الداخل ــ وكانت النافذة مسمرة لا تتحرك · وعندما نجحا فى عمل فتحة صغيرة فى الزاوية كان كل ما شاهداه هو واجهة البلوك المقابل ·

وكانت أفكار ميشيل كرجل محكوم باعدامه ويتوقع كل يوم أن يؤخذ لتنفيذ الحكم عليه ، كانت تتجه دون انقطاع الى فكرة الهرب ·· لقد سبق أن أضاع فرصة لذلك ، وهو لا يسامح نفسه على غباوته ·· فقد دخل أحد الحراس زنزانته وسأله اذا كان اسمه روبرت فهز رأسه

بالنفي وكرر الحارس الاسم ، وكرر ميشيل رده السلبي ‥ وفي اليوم التالي عرف أن سجيننا بهــذا الاسم قد أفرج عنه ‥ فلو كان حاضر البديهة وأجاب بالايجاب ربما كان قد حصل على حريته ٠ دون أن يكون في ذلك الحاق ضرر بروبرت الحقيقي ، الذى لا يعتبر مسئولا عن هــذا الخطأ ٠ ٠

وصمم بعد ذلك أن يحاول الهرب وليكن ما يكون ‥ وأفضل مناسبة في الواقع هي الفرصة التي يخرج فيها المساجين من زنزاناتهم للاستحمام وهذه تحصل مرة كل أسبوعين وكان يصدر تنبيه عنها بأمر الاستعداد ، وعندئذ يخلعون ملابسهم في الزنزانة ولا يحتفظون الا بأحذيتهم ومعطف وينتظرون الى أن يحضر الحارس ليأخذهم ‥

وقرر أن يقوم بمحاولته في يوم الاستحمام القادم ، ورأى أن لحيتــه قد تجعله هدفا واضحا في الخارج فأقنع جاك بأن يحلقها له بموسى كان يخفيها لديه ‥ وعندما حان الوقت فبدلا من أن يخلع ملابسه كالآخرين أخفى شواربه داخل حذائه ولف بنطلونه الى أن أخفاه المعطف وحبكه حول رقبته جيدا حتى لا يظهر أنه يرتدى ملابسه من تحته ‥

وجاء الحارس ليصحبهم الى غرفة الحمام وتقدموه في صف واحد ‥ وكان ميشيل في مؤخرة الصف ‥ وكانت غرفة الحمام في البدروم وفي عهدة صف ضابط ألماني ‥ وعندما وصلوا الى نهاية السلم المؤدى اليها عاد حارسهم لاحضار جماعة أخرى وانتظر ميشيل برهة ثم عاد في هدوء وصعد السلم فوجد نفسه في البهو الرئيسي ‥ ومن هنا يوجد سـلم داخلي ، مختفي عن البهو يتصل مع الشرفات العليا ‥ وكانت فــكرة ميشيل أن يصل الى الدور الثالث حيث يوجد مصعد يستخدم في احضار الطعام وينزل الى البدروم ٠ وهنــاك يوجد ممر يؤدى الى المطبخ ثم الى الحوش الصغير الذى لاحظه ميشيل عندما أخذ حمامه الاول ، وحيث لاحظ وجود مبنى صغير يصل سقفه الى الجدار الخارجي للسجن ‥ فاذا استطاع أن يصل الى هذا الحوش تكون لديه فرصــة طيبة لعدم رؤيته من المطبخ الذى تعتم نوافذه الابخرة المتصاعدة من المطبخ ، بينمــا يتسلق السقف ويصل الى قمة الحائط ‥

وصل فعلا الى الطابق الثالث دون أن يراه أحد وكان المصــعد في منتصف المسافة حيث يبدأ الجزء النسائي من القسم وشاهد وراء المصعد

مباشرة حارسه وظهرها الى ميشيل ٠ وتقدم ميشيل على أطراف أصابعه وكان باب المصعد مفتوحا فلم يكن عليه الا أن يقفز فى داخله ويضغط على الزر لكى يغيب عن الانظار ٠

لم يكن الا على بعد ثلاث خطوات عندما استدارت الحارسة ورأته ٠٠ وثارت شكوكها فى الحال وصاحت تنادى أحد الحراس ووصل جندى بعد ثوانى ٠٠ وقال ميشيل انه كان عائدا من الحمام وأنه ضل طريقه وشك الحارس فى أقواله ولكنه لم يقل شيئا وقاده الى الزنزانة ٣١٢ وقفل بابها عليه ٠

كانت الخطة واضحة للغاية وكان يمكن أن ينجح لو ساعده الحظ ٠٠ وكانت تعزيته الوحيدة فى فشله أنه لم يعاقب على محاولته ٠٠ ولكنه كان يشعر بمرارة شديدة اذ يرى انهيار آخر أمل له ٠٠

١٧

النفى

فى صباح أحد الايام فى أواخر شهر مايو ، أخذوا ميشيل وحده من الزنزانة ٠٠ وكانت هذه هى المرة الاولى التى يفارق فيها زملاءه فى الزنزانة بعد زيارتيه السابقتين الى شارع سوسيس ٠٠ فأخذ يتساءل هل جاء يومه الاخير ؟ ٠

اقتيد الى طبيب السجن ، وكشف على صدره بالسماعة ثم أعيد الى الزنزانة ٠٠ وعلم فيما بعد من جندى توزيع الشوربة أن هذا هو اجراء تمهيدى للابعاد ٠٠ والواقع أن الحكم الصادر ضده كان قد عدل بتخفيفه ٠

ولم يؤثر فيه ذلك بالقدر الذى كان يمكن أن يؤثر به فى أوائل سجنه ، فان مرور الايام دون أى أنباء عن اعدامه المعلق جعل شبح الموت يتضاءل فى نظره ٠٠ ومن ناحية أخرى لم يكن بين الموت وبين النفى أو الابعاد مجال كبير للاختيار فغالبا ما يكون الواحد هو الخطوة التمهيدية للآخر ٠٠ ولكنه على الاقل يمكن أن يتيح له فرصة لوضع خطة للهرب ٠

وبعد أيام قلائل أحضر له ضابط الصف المنوط بالقسم شنطته ومتعلقاته وطلب اليه الاستعداد للرحيل ٠٠ وكان هذا هو الشاويش الودود الذى سبق أن أدى له عدة خدمات صغيرة فمثلا كان يتغاضى عن بعض الاخلال بالتعليمات كاستلام السجاير وورق اللعب الخ ٠٠ كان متحفظا وفى حوالى الخمسين من عمره ، وكان يعمل سابقا صرافا فى بلدة كولونى واعتاد أن يعامل المساجين معاملة انسانية ٠٠ وبعد أن أعطى تعليمات لميشيل أضاف وهو يبتسم « أنى آسف لانهم أخذوا أفضل من فى عهدتى »

ولم يكن لدى ميشيل الا مهمات قليلة ليأخذها ، بضعة قطع من الملابس وكتاب العهد الجديد وبعض صور فوتوغرافية ، وعندما أتم كل شىء قبض على يدى رفيقيه ، وانشد الثلاثة معا أغنية الوداع ٠٠ ولم

يقابل الا واحدا منهما فقط بعد ذلك ٠٠ جاك دونين ، الذى ولو أنه كان متقهقرا فى صحته الا أنه عاش مدة النفى وعاد الى فرنسا بعد الحرب ٠٠ أما بورجاس السيء الحظ ، وكان لا يزال يحتج بأنه برىء ، فقد إبتلعه زحام الحياة فى ألمانيا ولم يره أحد بعد ذلك ٠

وعند الساعد الثانية انضم الى مجموعة مكونة من عشرين سجينا ، ولما نوديت اسماءهم خيل لميشيل أنه سمع اسم دودمادور عميله السابق فى روين ، ولكنه قبل أن يتمكن من التحقق من ذلك سارت الجماعة الى الخارج وركبت احدى سيارات الاونوبيس ٠ وكان الحرس مكونا من أربعة جنود ايطاليين مزودين بمدافع التومى ٠

وتحركت العربة فاخترقت البوابة الحديدية الكبيرة ـ التى قفلت بعد مرور العربة فورا ـ واتخذت طريقها الى باريس ٠٠ وكان ميشيل يتطلع بشغف الى المناظر التي تمر به ٠٠ كانت الضاحية غير نظيفة ، منازل مبعثرة وحقول مكشوفة ، وأرض جرداء ، فلم تكن جميلة ولكنها فى نظره كانت تبدو فى جمال عالم جديد بالنسبة له ٠

وصلت العربة بسرعة الى بورت أورليانس واتجهت رأسا الى قلب المدينة ٠٠ وفى ميدان روشرو كان يوجد مشرب صغير غالبا ما كان يتوقف فيه ميشيل ليتناول القهوة والسجاير بعد وصوله بالقطار من سانت ريمى ٠٠ ولما مرت العربة بالميدان تطلع بحزن اليه ، ورأى الساقى فى مكانه المعتاد خلف البار ٠

وفى شارع راسبيل وقف الاتوبيس ليأخذ بعض الركاب من سجن (شيرش ميدى) ٠٠ وتجمع الناس حول العربة ولكن الجنود الالمان حالوا بينهم وبينها ، على أن هذا لم يمنع اثنين من المساجين من القاء رسائلهما ، التى التقطها بعض أفراد الجمهور بسرعة ٠

وامتلأت كل مقاعد العربة واستأنفت سيرها فى اتجاه شمالى ، تاركة محطة الشمال على اليسار واخترقت ضواحى أوبرفيل و بورجيه قبل أن تصل الى الطريق الرئيسي الى سنليس ٠٠ كانت حركة النقل عليه بسيطة ٠٠ فالسيارات الخاصة قد توقفت عن السير فيه ، وكانت العربات الوحيدة التى تشاهد به اما تابعة للنقل العام أو لقوات الاحتلال ٠٠ ، وبدلا من عربات التاكسى اعتاد الناس أن يستعملوا الدراجات التى تجر مقاعد جانبية خفيفة ٠

وبعد سنليس يدخل الطريق الى غابة كومبين وبعد قطع ممر طويل تحيط بجانبيه الغابات مروا بقرية أخرى وبدا من بعيد أمام نظرهم مكان الوصول الذى يقصدونه : حظيرة كبيرة تضم عدة منازل منخفضة ومحاطة بخط مزدوج من الاسلاك الشائكة بهـا نقط مراقبـة عنـد كل ركن من أركانها ·· وخفف الاتوبيس من سرعته ودار مع الطريق ثم دخل بوابة كبيرة عليها حراسة قوية ·· لقد وصلوا الى معسكر كومبين ·

كان هذا المعسكر يتكون من صفوف من الاكشاك الخشبية وفي الوسط يوجد فناء واسع مكشوف ·· وكان به مئـات من المسـاجين يسـيرون بملابسهم المدنية ، وطالما بقوا بعيدين عن حدود المعسكر فليس هناك على ما يبدو على أنه تقييد لتحركاتهم ·

وعند نزولهم من الاوتوبيس ، صار تسـليم القادمين الجـدد بطاقات طلب اليهم تعليقها فى عنقهم ·· كل بطاقة تحمل رقما ثم اقتيدوا الى مكان نومهم ، حظيرة طويلة منخفضة على الارض وعليها طبقة من القش بدلا من البلاط ، ونافذة مغلقة دائما وعليها طبقة كثيفة من السلك وهى الوحيدة التى تسمح بدخول الضوء ·

وبعد أن تأمل ميشيل فى كل ما يحيط به ، حول اهتمامه الى رفاقه فى الغرفة ·· وكان من اسباب سروره أن عرف فيهم الذى سبق أن سمع اسمه عند النداء على الطابور ·

فقد كان جاك هنرى دودمارد هو الذى ارشده الى الطريق الذى أدى به الى اكتشاف مواقع السلاح السرى ·· وهو مهندس بارع كان يشتغل فى السكك الحديد الفرنسية ، ولم يكن يعمل من أجل « الشبكة » الا وقتا قصيرا ، وبفضل المحادثة التى سمعهـا فى مقهى روين ، أرسـل تقريره الذى أدى الى اكتشاف الموقع الاول ·· وبعد ذلك بوقت قصير كشف أمره للجستابو هو وناظر محطة روين ، وقبض عليه وسجن ·

ولم يكن قد تقابل هو وميشيل منذ خمسة شهور ، فكانت مقابلتهما حتى فى مثل هـذه الظروف ، مصـادفة سعيـدة لكل منهمـا · لم يكن دودمارد يعرف النتيجة التى أدى اليها عمله ، فشعر باهتمام عميق لدى سماعه أهمية ما ترتب عليه ·

منذ تعديل الحكم على ميشيل لم تكن تساوره الا فـكرة واحـدة هى الهرب ٠٠ لم تكن هناك أى فرصة لذلك فى خلال رحلتهم من باريس ، أما الان فكان يبدو له أن الفرصة أصبحت سانحة وعزم على أن لايضيعها٠

وبعد أن عاين الحظيرة عن كثب بقدر ما استطاع ذلك رأى أنها ليست بالعقبة التى يتعذر اجتيازها٠ فالاسلاك لم تكن مكهربة ، وسياج الاسياخ المعدنية الذى كان يفصل الاسلاك الشائكة الداخلية عن الخارجية يمـكن اجتيازها ، على حد تفكيره ، بواسطة لوح خشبى٠٠ ولاشك أن الديدبانات كانوا يمرون على محيط المعسكر ولكنه ، مع اختيـار اللحظـة الملائمـة يستطيع على الارجح أن يمر من بينهم ٠٠ وعلى أى حال بدت له المحاولة جديرة بالتجربة ٠

وبعد وجبة المساء المكونة من الشوربة وقطعة من الخبز كان يقفل على المساجين أثناء الليل ٠٠ قليل منهم من كان ينام وكانت الاحاديث والحركة تستمر الى الساعات الاولى من الصبـاح ، بينمـا كان ميشيل يضـطجع مستيقظا على فراشه من القش ينتظر بفـارغ الصبر هـدوء الرفـاق ٠٠ وعندما ساد الصمت أخيرا فى الـكوخ كانت خيـوط النور الاولى بدأت تبزغ ٠٠ قام ميشيل مسرعا وقفز الى النافذة وكان من دواعى ارتياحه أن رأى ضبابا كثيفا فى الخارج ٠

وبعد محاولة فتح النافذة بملعقة ، أخذ يحاول فك الشبكة السلكية٠ واستطاع بواسطة مسمار وسلاح مطواه مكسور أن يحرز تقدما مرضيا اذا استطاع أن يزيح نصف السلك ، عند ما سمع فجأة صوتا خلفـه يقول له « هل تعلم أنك فى غاية الجنون » وكان صوت دودمارد ٠

واستأنف ميشيل عمله واستطرد دودمارد « لاأمل من هروبك ولكنك فقط تلفت الانظار اليك فى الوقت الذى نسيت فيه قضيتـك ، فيتـذكر الالمان أنك عدو خطير وقد يطلقون النار عليك ٠٠ وحتى لو نجحت فمـاذا تستطيع أن تفعل ؟ ان الحلفاء سينزلون بفرنسا قريبا وستنتهى منفعتك لهم ٠٠ فانا أرجوك لمصلحتك أن لا تكرر هذه الفكرة ٠

فهمس ميشيل دون أن ينقطع عن عمله ، انها فرصتى الوحيدة ولو أخذونا الى ألمانيا نكون قد انتهينا ٠٠ وعند ذلك كان قد نزع السلك كله بكل حماس ٠

ـ ان الحرب ستنتهى سريعا ـ ربما هذا العام ، فاصبر قليلا فقد تقدر لنا الحياة ·

واستمرت المناقشة ، وزاد ارتفاع أصواتهم الى أن استيقظ جميع رفاقهم · وقام واحد أو اثنين واقتربوا من النافذة وسرعان ما استيقظ الكشك كله ·· ولم يكن أمام ميشيل الا أن يتخلى عن المحاولة ·

أعاد وضع الشبكة بأفضل ما يستطيع واغلق النافذة وعاد الى مكانه ورقد ·· وبالرغم من أنه كان يعلم أن دودمارد قال كلامه مدفوعا بافضل العوامل الا أنه لم يستطع أن يكتم شعوره بخيبة الامل المريرة ·

وفى الصباح فتح الباب ، ووزع رفاق الحظيرة على أكشاك أخرى وزودوا بأسرة سفرى وملاءات واستقروا فى حياتهم الجديدة ·

ولم يكن على المساجين ما يقومون بعمله سوى نظافة المعسكر وفيما عدا ذلك كانوا يقضون معظم اليوم كسالى دون عمل ، ويستدعون من وقت لآخر للطوابير أو تناول وجباتهم التى كانت تتكون من أغذية بسيطة ولكنها كافية ، وكانت تدعم بطرود المأكولات التى ترد للمساجين من عائلاتهم ـ وكان من دواعى دهشة ميشيل أن وصله طرد مأكولات من شقيقته فى اليوم التالى لدخوله أحضرته اليه شقيقته التى ركبت دراجة خصيصا لذلك قطعت بها خمسين ميلا من باريس ·

وكان اكتشاف مقره بمثل هذه السرعة نتيجة لتحريات أسرته ·· وكانت ابنته فى اليوم السابق قد ذهبت الى سجن فرنسيس مع الطرد المعتاد ولكنها علمت أن السجين ليس هناك ·· وتصورت بادىء الامر أنه قد نقل لتنفيذ الحكم عليه ·· ولكن تحرياتها فى مقبرة ايفرى حيث ينفذون احكام الاعدام دلتها على أنه لم تنفذ احكام فى هذا اليوم ·· واستنتجت العائلة أنه لابد أن يكون قد نقل الى معسكر الترانسيت فى (كومبين) تمهيدا لنفيه ·

وقد نظم المساجين محاضرات ومباريات ملاكمة من أجل تمضية الوقت كما كانت تقام أيضا خدمات دينية تعقد فى الكشك وكان ينقسم الى قسمين كاثوليكى وبروتستنتى وكان يقوم بالخدمة فى القسم الثانى راعى سويسرى يدعى بورنان الذى وقع فى خلافات ومتاعب مع الالمان بسبب صداقته الوطيدة مع الحكومة عليهم الذين كان يرعاهم كقسيس ·

وبعد أن تطوع ميشيل لمساعدة القسيس كانا يتقاسمان مهمة الاستماع الى الاعترافات ·· فبعض المساجين كانت تعذبهم مشاكل نفسية واحدة هؤلاء الرجال كان قد طلب من الله وقت القبض عليهم أن تنجو ابنته من الخطر ، ونذر فى صلاته أنها لو نجحت فانه يقطع على نفسه عهدا بان لا يراها ابدا ·· وحصل أن الفتاة لم يقبض عليها والمسألة بالنسبة للاب القلق هى ما اذا كان الله يطالبه حقا بأن يحافظ الاب على وعدة الى الممات ·

ولكن ميشيل حاول تهدئته وطمأنته وقال له أننا لا نستطيع أن نحكم على أنفسنا ·· وانت من أجل تدعيم صلواتك لله أبديت استعدادك لتقديم تضحية ثقيلة الوطأة عليك ·· هذا هو الامر المهم ·· ولكن كيف يمكنك أن تعرف اذا كان الله يريد منك هذه التضحية الخاصة بالذات ؟ بالاحرى عليك أن تظهر لله عرفانك بجميله عليك بان تكون قويا وصادقا فى ايمانك به ·· وهذا سيمكنك من التغلب على التجربة » ·

ولا يعرف ميشيل اذا كان الرجل قد عمل بنصيحته أم لا ولكن الذى يعرفه أنها جددت فيه روحه وشجاعته ·

ومضى أسبوع لا بأس به ، كان الجو فيه رائعا وهذا بالنسبة لمن يعيشون فى سجن يعتبر هاما ·· وميشيل كان فى حالة تجعله يهتم بحالة الجو ·· فقد كانت فكرة الهرب تنازعه باستمرار وكان يرى أنه كلما مر يوم كلما زادت المسألة صعوبة ·· ورأى فى ازدياد نشاطه سلاح طيران الحلفاء الذى تحلق طائراته فوق المعسكر ، علامة على أحداث هامة منتظرة ، وربما تبشر بقرب انتهاء الحرب ·· وكان هذا يزيده يأسا فى استرداد حريته ··

وتطوع فى بعض الاعمال فى مصنع مجاور ، ونجح فى صنع منشارين أحدهما للخشب والآخر للمعادن · ولم تكن لديه أى فكرة فى استخدامهما ولكنه كان متأكدا بأنه سيحتاج اليهما ·

وفى أول يونية أى قبل يوم النصر بأسبوع ، اجتمع المساجين ونوديت أسماء الذين سيرحلون فى المرة القادمة الى المانيا ·· وكان عددهم ٢٨٠٠ سجينا ، وقد طلب اليهم أن يسلموا جميع متعلقاتهم الشخصية ، وأنذروا بأن اخفاء أى شىء ستترتب عليه عقوبة شديدة ، وفتشوا ، وكانوا يرتدون

بنطلوناتهم فقط ·· وأخفى ميشيل المنشارين داخل رجل بنطلونه بين فخذيه ، وبالرغم من تفتيشه بواسطة جنديين مرا بأيديهم على رجليه من الامام ومن الخلف فأنهما لم يكتشفا الخطوط المعدنية الدقيقة ·

وبعد أن زود المساجين بأكلة للرحلة ، اقتيدوا لقضاء ليلتهم الاخيرة فى عدة اكشاك بدون نوافذ ·· وهنا وجد ميشيل نفسه بين فريق من الشبان كثير ما كان يقابلهم فى المعسكر وكانوا عادة فى رفقة قسيس كان يدعى لومير وكان قد قبض عليه معهم وكان يعمل (راعيا للقطيع) وقرر ميشيل أن ينضم لهذه المجموعة ·

وفى المساء اقترب منه أحد المساجين ، وعرف فيه شخصا كان يعرفه من قبل : ديجولى يدعى الكابتن (ب) كان قد قابله منذ شهور فى مونتليمار وكان ب قد حاول اغراءه لكى يعمل من أجل «فرنسا الحرة» بدلا من البريطانيين وعرض عليه عروضا مغرية من النقود والسجاير والاغذية ·· ورد عليه ميشيل ، وهو يتخوف لئلا يكون شركا ، بانه لن يغير ترتيبات عمله الا بأوامر من القيادة العليا ·· والان وقد انتهت شكوكه من ناحية ب فانه يسره أن يجدد تعارفه به ·· وكان يوجد معه فى الكشك عضوان من جماعته السابقة (جيم) وهو زنجى وبطل الملاكمة فى المعسكر و (جو) وهو محارب قديم ذو ساق خشبية ، كان مخبأ بها جميع العدد اللازمة للهروب حتى من عربة مختومة ، على ما قاله ب لميشيل ، وقال أنهم ينوون الهروب أثناء الرحلة وانهم وضعوا كل الترتيبات اللازمة لذلك ·

فقال ميشيل وانا أيضا عندى نفس الفكرة ·

فقال ب ·· فلماذا لا تنضم الينا ، ونهرب معا ؟ ·

وقبل ميشيل هذه الدعوة بسرور ، وفى صباح اليوم التالى عندما غادر المبعدون المعسكر سار ميشيل مع ب ورفاقه ·· وتحرك الطابور الطويل كل صف من خمسة رجال عند الفجر واخترق شوارع كومبين ·· وعلى كل من جانبى الطريق صف من الجنود ويقف خلفهم جمهور من المبكرين فى الاستيقاظ ليشاهدوا موكب المبعدين فى سكون ·· وفى بعض الجهات كانت تتجمع اعداد كبيرة من الناس قد يكونون من أقارب المبعدين ليشاهدوهم وقد أدهش ميشيل أنهم كانوا أشد كآبة من المرحلين أنفسهم ربما لانهم كانوا يعرفون ما تخبئه لهم الايام هناك ، بينما لايعرف

المرحلون الا أنهم ذاهبون الى ألمانيا .. وهم بعد اقامتهم فى معسكر الترانسيت التى كانت محتملة نسبيا لم يكونوا يعرفون ما سيحدث لهم بعد ذلك ، ولم يشعر أحد منهم بأى قلق أو مضايقة حقيقية ، فيما عدا شغفهم بالعودة الى بيوتهم .. ولكن هذه الحالة تغيرت لدى وصولهم الى المحطة .. فهنا كان الجو مختلفا كلية عن معسكر الترانسيت .. فقد أخذ يتولى شئون الطابور أفراد من (بوليس الامن) فى أيديهم سياط جلدية قصيرة والغدارات فى أحزمتهم ، واوقفوا الطابور بجوار صف طويل من عربات الماشية .. وعند عد أحد الجنود العشرين صفا الاولى فوجدهم مائة رجل فأمرهم بأن يركبوا العربة الاولى .. وعندما دخل نصفهم كانت العربة قد امتلأت بهم أما الباقون فاذ وجدوا أنه لا محل لهم فقد وقفوا منتظرين فأخذ الجنود الالمان يضربونهم بالسياط. وفى ثوان قليلة أوجدوا لانفسهم مكانا وانحشروا مع الباقين ، واقفل عليهم باب العربة ووضع عليه قفل .

كان ميشيل فى مؤخرة الطابور فعندما جاء دورهم كان كل فرد قد عرف ما يحصل ، وتحت تهديد الكرباج فان الرجال الذين كانوا من لحظة اصدقاء اصبحوا يتدافعون ويتعاركون حتي لا يكونون هم الاخرين لئلا يصيبهم الاذى وتلاشى كل احساس بمجاملة الشخص لجاره .

وهكذا كان منظر التحقير الانسانى متعمدا وموضوعا عن قصد ، ونفذ بطريقة فنية مدبرة .

وعندما اقفلت العربة عليهم كان الضوء الوحيد الذى يدخلها يأتى من فتحة صغيرة للتهوية مغطاة بأسياخ حديدية .. لم يكن ميشيل يستطيع أن يرى شيئا فى بادىء الامر ، وعندما اعتادت عيناه الظلام استطاع أن يتبين وجوه زملائه.. كان المائة رجل يقفون مشدوهين ومضغوطين الواحد فى الآخر ويكاد المكان يتسع لاقدامهم .. وفى وسط العربة يوجد برميل معدنى مفتوح من اعلاه ، ولا يستطيع الوصول اليه الا القريبين منه وكان بمثابة المرفق الصحى الوحيد لهم .

وحرص ميشيل على أن يكون قريبا من ب باستمرار ، وكان حارسه الزنجى جيم قد حصل لهم على أماكن على جانب العربة وكان يجاورهم مباشرة مساجين من جميع الطبقات والمهن : موظف مدنى وميكانيكى ، وعامل سكة حديد وفلاح وترزى وقسيس وشاب يرتدى ملابس ضابط جوى .

لم يتبادلوا الا كلمات قليلة فان هذه المعاملة الوحشية فى معاملتهم كالماشية ، وما يشعرون به من عدم راحة بدنيا ، وعلمهم أن هذا كله ما هو الا بداية ما ينتظرهم كان له تأثير مقبض على المساجين منعهم حتى تبادل الكلام ٠

وكان القسيس أول من قطع حبل الصمت وقال بصوت مرتفع حتى يسمعه كل من فى العربة قائلا أنه يقترح نظرا لان الرحلة قد تستمر لعدة أيام ، ضرورة اجراء التنظيم فمثلا اذا كان لكل سجين رقم معين فان هذا يساعد فى توزيع الطعام عليهم بسهولة على افتراض أنه سيوزع عليهم طعام وسار كل شىء على ما يرام بعض الوقت الى أن حدث أن شخصين ناديا بنفس الرقم فحدث اضطراب ٠٠ ثم اقترح القسيس انه اذا كانت المناداة بالرقم صعبة فليقسموا أنفسهم الى مجموعتين قسم يتبعه هو والقسم الآخر يتبع جيم ، ووافقوا على هذا أيضا ولكن قبل امكان تنفيذه كانت العربات قد اهتزت معلنة بدء القيام بالرحلة ٠

كانت أفكار ميشيل مازالت منصرفة نحو الهرب وكانقد لاحظ بدقة ، عندما كان ينتظر دوره فى ركوب العربة ، كيفية تكوين الحملة ٠٠ كانت تتكون من حوالى عشرين عربة ماشية فيما بينها مقاعد للمسافرين كان يشغلها الجنود ٠٠ ومنها كانت الرقابة مستمرة على العربات بواسطة حراس مسلحين بالبنادق ٠٠ وفى المؤخرة سبنسة عفش على سطحها مدفع ماكينة ، وكانت تستخدم كنقطة مراقبة اضافية ، وكان يشاع بين المساجين أن فى اسفلها جهاز يقتل أى سجين يقع تحت القطار ومع ذلك فقد كان من المعروف أن هناك رجالا أمكنهم الهرب فى أثناء الطريق الى ألمانيا ، ولم يقطع ميشيل الامل فى أن يفعل مافعلوه ٠

استمرت الرحلة طوال اليوم مع وقفات قليلة جدا فى المحطات فقط٠ وعندما علت الشمس ، وانصبت أشعتها على سقف العربة أصبحتالحرارة فى داخلها لاتطاق ٠٠ وصار الرفاق يتلهفون على الماء وبعضهم الذين تعجلوا فأكلوا وجبتهم من السجق والخبز ازداد بهم العطش لدرجة الجنون ٠

ولما جاء الليل هبطت درجة الحرارة نوعا ، ولكن أطراف أبدانهم المتوترة لم تجد سبيلا الى الراحة وقد شلت من ضغط الزحام ٠٠ وشعر

ميشيل بألم شديد فى أحد ساقيه ولكنه لم يحاول اراحتها برفعها قليلا خوفا من أنه لو فعل ذلك فان جزءا من المكان الذى يقف عليه سيؤخـذ منـه ٠

كانت كل آماله مركزة الان في ب وفريقه ، وعندما أتى المساء كان يترقب بادرة تشير الى أن مشروع الهروبقد نضج وبعد مرور عدة ساعات عمل على أن يقترب ما أمكن من رفيقه ليسأله عما يحدث ٠٠ ولكنه في الظلام لم يستطع أن يتبين الاثنين الآخرين ولـم تكن لديه فـكرة عمـا يحاولانه ٠

واجاب ب من غير اكتراث « اننا فى حاجة الى منشار » ٠

وسأله ميشيل للمعدن أم للخشب ٠

ــ للخشب ٠

ــ لماذا لم تقل من قبل ٠٠ ها هو واخرج من داخل بنطلونه المنشار الذى صنعه بيديه وسلمه الى ب ٠

ــ هل أنت مستعد الليلة ؟

ــ من الافضل أن ننتظر للغد ٠

وسقط قلب ميشيل فكلما اقتربوا من حدود ألمانيا كلما قلت فرص نجاحهم ٠٠ على أى حال لا يمكن أن تتم الا ليلا ولذلك فان التأجيل معناه ارجاء العملية لمدة ٢٤ ساعة أخرى وفي هذا الوقت ربما يكون القطار قد اخترق الحدود ٠

ومر اليوم الثانى كما مر الاول الا أن المساجين كانوا أكثر ضعفا ٠٠ معذبين من الظمأ ومتلهفين على الهـواء ، فانهـارت قوى البعض واصيب آخرون بالحمى ٠٠ وكان ميشيل يحمل فى جيبه ليمونتين كانتـا ضمن طرد الطعام الاخير فاستطاع أن يقسمها شرائح رفيعـة ووزعهـا على من كانوا أشدهم تعبا ولم يكن الاختيار سهلا فقد كانوا جميعا فى حالة تدعوا الى الرثاء ٠

ومرة أو اثنين في اليوم عند الوقوف في بعض المحطات كانوا يحصلون على زجاجة من الماء بطريقة سرية ، تحديا للحراس ٠

وفي احدى المرات كانت الزجاجة قد وصلت الى شخص أغمى عليه من شدة الاعياء ٠٠ ولكن بمجرد أن وصلت اليه اختطفها منه شاب آخر وأخذ يشرب منها وعند ذلك خطف ميشيل الزجاجة ووضعها ثانية على فم الرجل المغمى عليه ، ولكن الشاب الآخر عاد فاختطفها وقد تجهم وجهه بالغضب ورفعها بأشد قوة كما لو كان ينوى أن يهشم بها رأسه ولكن الرجال المحيطين به تجمعوا حوله ومنعوه وأخذوها منه ٠

وسرب أحد المساجين بوله ولكنه شعر بالمرض على أثر ذلك وأخذ يهزى من الحمى ٠٠ وعند المحطة التالية طلب الى الحراس أن ينقلوه ولكنهم تجاهلوا هذا الطلب كأى طلب آخر ٠٠ وفى أثناء الليل توقف صراخ المريض وفى الصباح وجدوه ميتا ٠

كانت مثل هذه الحوادث مألوفة ، وقليل من العربات هى التى كانت تصل بدون جثث موتى بها ٠

كانت هذه المعاملة مقصودة ، وكانت من وجهة النظر الالمانية منطقية للغاية ٠٠ كان الفرض من هذا الابعاد مزدوجا : هى ابعاد اعداء الريخ والحصول على عمال من العبيد ٠٠ وكانت ألمانيا الهتلرية لا تستفيد من الضعفاء ، فكان من اهداف هذه الرحلة التخلص منهم بقتلهم أما الاقوياء الذين يستطيعون التغلب على هذه المصاعب فهؤلاء ، يمكن استخدامهم على الاقل لعدة شهور اخرى فى معسكرات العمل ، طبقا لتقديرهم ٠

١٨

نهـاية الرحـلة

جاءت الليلة الثانية ومرة أخرى انتظر ميشيل أى شواهد على اتمام خطة الهروب ٠٠ وبعد ثلاث ساعات شق طريقه نحو (ب) الذى قال له أنه فى حاجة الى منشار للمعادن فسلمه ميشيل منشارا وقد بلغ به الحنق أشده ٠٠

وبعد قليل هدأ القطار سيره ثم توقف واستطاع ميشيل أن يقفز على ذراعيه لينظر من فتحة التويه ٠٠ فقرأ اسم المحطة (أفريكور) وهذه كانت بالكاد فى داخل أراضى اللورين ، أى أنهم أصبحوا فوق الارض الالمانية والواقع أن أفريكور كانت محطة الحدود الجديدة ٠

وأثناء فترة الانتظار الطويلة وفتحت أبواب العربات لاجراء تفتيش دقيق عن أى شواهد على محاولة للهرب ٠ وفى هذه المحظة ــ ظهر على رصيف المحطة ، ما أذهل الاسرى ، وعاء كبير ممتلىء بالقهـوة الساخنة وأخرجت الاوانى ووزعت القهوة على الجميع ٠

كان هذا الاجراء مخالفا للقواعد ، ولكن كيف سمحوا به هو ما كان لغزا بالنسبة لهم ٠٠ ولكن ميشيل عرف بعد ذلك أنه كان من أعمـال الاحسان من جانب ناظر المحطة الفرنسى الذى حصل على اذن بذلك بعد أن قدم صندوقا من الشمبانيا كرشوة للحراس ولا شك أن عمله قد انقذ حياة الكثيرين ٠

كان الظلام لا يزال مخيما عندما استأنف القطار سيره وبالرغم من أنه من الناحية النظرية كانوا لا يزالون بين شعب صديق يمكن الاعتماد عليه لمساعدة أسير فرنسى ، ولكن بمجرد اجتياز الحدود الشرقية لمنطقة اللورين تكون قد ولت آخر فرصة للهرب ، فاما الهروب الآن والا فلن يتم أبدا ٠

وللمرة الثالثة بحث ميشيل عن (ب) فوجده راقدا على الارض فى حراسه رفاقه وقد استولى على المكان المتسع الذى يرقد فيه على حساب جيرانه الذين احجموا عن الاعتراض خوفا من الزنجى ٠

وبمجرد أن رآه يقترب أخذ (ب) يتمتم ببعض الاعتذارات الفارغة وأدرك ميشيل فورا أن هذا الشخص لم يكن الا مراوغا وأن خطة الهروب التى قال له عنها لم تكن الا خداعا وليست هناك استعدادات اطلاقا ٠٠ لقد وضع نفسه ومنشاريه الثمينين فى يد رجل تافه وهكذا أضاع على نفسه بتصرفه هذا أمله الاخير فى الحرية ٠٠ وأحس بمرارة شديدة الى حد أنه لم يوجه اليه أى توبيخ وأدار له ظهره احتقارا ليس فقط بسبب خداعه بل أيضا لمظهر عدم أكثراتهم بزملائهم المتسم بحب الذات من جانب (ب) وزمرته ٠

والارجح أن خيبة أمله قد تكون أشد وقعا لو عرف وقتها ما لم يعلمه الا مؤخرا : وهو أنه فى نفس تلك الليلة بينما كانت الحملة تتسلق مرتفعا بالقرب من (بار الدوق) تمكن خمسة وأربعون أسيرا من الهرب من عربة أخرى واستطاعوا أن يفلتوا ٠٠ وأن هذه الجماعة لم تكن الا جماعة القس (لومير) التى كان منضما لها ميشيل أصلا ، وكان قد تركها من أجل أن ينضم لجماعة (ب) ٠٠ ولو أنه بقى معهم بدلا من ربط مصيره مع (ب) لكان قد تمكن هو أيضا من الهرب معهم ٠

وكان القس هـو الذى نظم وقاد حركة الهرب ، وكانوا فى اثنـاء وجودهم فى كومبين قد أعدوا أربعة مناشير استطاعوا بواسطتها أن يشقوا ثغرة فى أحد جوانب العربة ٠٠ وعندما هدأ القطار سـيره استطاعوا أن يقفزوا بالدور باستخدام الملاءات لتخفيف صدمة سقوطهم ٠ ولم يكتشف هروبهم الا عند وصول القطار الى أفريكور ٠

ودخل القطار ألمانيا دون أى توقف آخر ٠٠ وعند الفجر اسـتطاع ميشيل أن يلقى نظرة أخرى من خلال فتحة التهوية ٠٠ وكل ما استطاع أن يراه غابة من الاشجار ، ولكن كان ينتابه شعور بأنه أصبح فى بلاد غريبة معادية وغير مألوفة لديه ٠

وعندما ارتفعت الشمس أصبح الجو فى العربة خانقا لقـد مر عليهم يـومان وليلتان وهم وقوف وأقدامهم متلامسة دون طعام أو شراب باستثناء

قدح من القهوة وبعض قطرات من الماء ·· وكانت حاجتهم الى الهواء النقى والى متسع يتحركون فيه وفوق كل شيء الى سائل يطفئون به ظمأهم ، أشد تعذيبا وارهاقا ·

وصل القطار الى كولونيا واستطاعوا أن يسمعوا من خلال جوانب العربة ضجيج المحطة الكبيرة وصوت مكبرات الصوت تعلن بالالمانية عن القطار القائم الى باريس ·· ومجرد التفكير فى أنه على بعد خطوات منهم يوجد أناس يركبون عربات وثيرة مريحة فى قطار متجه الى باريس ملأ ميشيل باليأس ·· وبعد دقائق انطلقت صفارة وتلاها صـوت عجلات القطار ·· وعندما زاد الاكسبريس من سرعته ازداد صوت العجلات ثم أخذ يضعف الى أن تلاشى نهائيا كأمل ذاهب ·

واستأنفت الحملة تحركها فى اتجاه مضاد وظلت طوال الصباح تواصل طريقها الذى لا ينتهى فى يوم صيف شديد الحرارة ·

وعندما بلغوا احدى النقاط قال جـار ميشيل وهو شاب فرنسي من رجال البوليس يدعى ماكس وكان يشاركه فى مكان بالقرب من فتحة التهوية قال له أنه شاهد البحر ·· فتطلع ميشيل لكنه لم ير الا سهلا فسيحا مكشوفا أما البحر فكان خيالا أشبه بالسراب الذى يراه المسافر الظمآن فى الصحراء فيخاله ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ·

وبعد ذلك هبطت أمطار غزيرة · وكان الاسرى يسـمعون صـوت تساقطها على سقف العربة واستطاع ماكس أن يأخذ بعض قطرات منها من خلال قضبان الفتحة ويرشها على وجه ميشيل ·· وكان تأثيرها منعشا ، فشعر كما لو كان قد أخذ دشا باردا ·

وفى الموقف الثـانى لاحظوا أن هنـاك حركة غير عادية فى الخارج وسمعوا أصوات جنود يصيحون بألالمانية وضجة ناس يسرعون ·· ورفع ميشيل نفسه مرة أخرى ونظر الى الخارج كان المشهد الذى رآه خياليا ·· فقد وقف القطار فى منطقة ريفية مكشوفة وحـوالى ثلاثين أو أربعين من المساجين ، عريانين كلية يجرون فوق وتحت الخط أمام بضعة جنود ، وفى كل مرة كانوا يمرون أمام الجنود كانوا يديرون لهم رءوسهم ويحيوهم ·· وبعض الرجال كانوا كبارا فى السن والآخرون وحتى سقماء كانوا كلهم ضعفاء يتعثرون بأقدامهم الحافية وأحيانا يسقطون على الارض ·

وبعد برهة سمع صياح آخر وأصوات أبواب العربات تفتح ثم تغلق، ثم يستأنف القطار سيره ٠

ان ما شاهده ميشيل ، دون أن يتبين حقيقته فى بادىء الامر ، كان عبارة عن انتقام الحراس من باقى الاسرى من أجل هرب الخمسة والاربعين أسيرا ٠٠ فقد انتظر الحراس الفرصـة الملائمة وعلى الارض الالمانية ثم أرغموا باقى رفاق الهـاربين الذين كانوا معهم فى نفس العربة على خلع ملابسهم وتأدية المشهد العجيب الذى رآه ميشيل ٠٠ وبعد ذلك ورغموا هؤلاء الاسرى وكانوا لا يزالون عراه على العربات الاخرى ٠

وبعد ساعات وقف القطار مرة أخرى وقرأ ميشيل من خلال الفتحة اسـم المكان : (بيرجيدورف) وهو عبـارة عن مواصلـة صغيرة شرقى هامبورج ٠٠ وكان موظف السكة الحديد بقبعته ذى الخطوط الذهبية وربما يكون ناظر المحطة ، يسير على رصيف المحطة ٠٠ واستفسر ميشيل بالالمانية عما اذا كانت جهة وصولهم هى هامبورج ، فهز الموظف رأسه وهو يرفع عينيه فى نفس الوقت بكيفية كانت لها دلالتها فى نظر ميشيل ٠

وأخذ القطار يسير فى اتجاه عكسى ٠٠ وبعـد عشرة دقائق أخرى توقف وسمعت أصوات وقع أقدام وفتح أبواب ، فان الرحلة الجهنمية بلغت نهايتها ٠

وفتح السقف ليدخل منه نور السماء ، وتدفق الى العربة ضوء النهار لاول مرة منذ ستين ساعة ٠٠ وكان نصف الاسرى لا يزال واقفا والباقى قد انهار وتمدد على الارض من شدة الضعف ٠٠ كانت تعبيرات وجوههم كتعبيرات وجوه الموتى وعيونهم المرهقة وشفاهم المزرقة تنم عما قاسوه من تعذيب كانوا أقرب الى الهياكل العظمية منهم الى البشر الاحياء ٠٠ ومع ذلك فكانوا لا يزالوا وقوفا على أجلهم ٠

كان أحدهم القسيس (كارلوتى) الذى امتاز بصبره وقوة احتماله ٠ وبينما كان الاسرى فى حالة انتظار وتوقع لما سـيحدث أخذ هـو يتلو صلوات الشكر على أن كتبت لهم النجاة الى الآن ، وأخذ الباقون يرددون بعده عبارات الصلاة ٠

وسمع صوت الاقفال تفتح وصوت ضجيج عند أبواب العربة الجانبية. واندفع المساجين الى الخارج دون انتظار تعليمات .. وقد بهر بعضهم من ضوء النهار واذ كانوا متقلصين من توتر أعصابهم لم يحكموا قفزتهم الى الخارج فكانوا يرتمون من علو العربة على الرصيف ، وكان رجال البوليس بأرديتهم السوداء ينتظرونهم بالسياط فكانوا يجلدونهم على اكتافهم بسبب وقوعهم .. ومن هنا تعلم الرجال أن هذه هى اللغة الوحيدة التى سيسمعونها من حراسهم .

ولمدة ثلاثة أيام كانوا يعاملون بما لا يعامل به الحيوانات فى أى دولة متمدنة .. كانوا يعاملون كعبيد وكان هذا شيئا جديدا على حالتهم وكانوا يهيئون أنفسهم له .

وقد اتفق بعضهم اثناء الرحلة ، لجهلهم بما كان ينتظرهم ، على أن يتقدموا باحتجاج بعد انتهاء الرحلة اما الى ضابط الحرس واما الى قائد المعسكر .. فلم يكونوا يتصورون أن أى شخص مسئول يمكن أن يرضى بمثل هذه الظروف وهؤلاء كانت معلوماتهم ضئيلة عن الناس الذين يعاملونهم ولكنهم ما ان شاهدوا رجال بوليس الامن .S. S حتى تفتحت عيونهم على الحقيقة .

وقد كان الحراس فى فريسنيس وحتى فى معسكر الترانسيت فى كومبين من الجنود الالمان ، وكان معظمهم من المتقدمين فى السن الذين سبق استدعاءهم للحرب ، كانوا مدنيين يرتدون الكساوى الرسمية ولكنهم ذوى مشاعر انسانية عادية .

ولكن رجال ال .S. S كانوا من عينة أخرى فهؤلاء قد تعلموا ودربوا لهدف واحد هو ضمان سيادة الدولة النازية .. وتجردوا أثناء تدريبهم من مظاهر الانسانية فلم يصبحوا رجالا بل وحوشا قساة لا يعرفون للشفقة طعما .. وقد لاحظ ميشيل .. أنهم .. لايضحكون حتى فيمابينهم وبين أنفسهم بل لا يتبسمون فقد كانت وجوههم عبارة عن أقنعة ارتسمت عليها بصفة دائمة صورة القسوة الشديدة المقترنة بالصرامة .

ورتب الاسرى فى طابور من صفوف بخمسة أفراد .. كان لتحررهم من العربات بعض التأثير المنعش على غالبيتهم بينما لقى الذين سقطوا على الارض من كل الجنود بالارجل والضرب بالسياط ما يشبه فى تأثيره

الصدمة الكهربائية ٠٠ ومع ذلك فان البعض لم يستطع الحركة الا بمعاونة جيرانهم ٠٠ والبعض كان لا يصلح معه أى مقاومة أو علاج فتركوا فى مكان رقادهم فى حالة من عدم الوعى أو جثثا هامدة ٠

كانت السماء معتمة ولكن المطر قد انقطع ٠٠ وقد قدر ميشـيل من الوقت الذى مر بهم منذ بزوغ النهار أن الوقت كان عصرا والمكان الذى وصلوا اليه أشبه بصحراء لا شجر فيها ولا زرع ، وعلى بعد مائتى ياردة كان يرى صفوفا من المبانى المنخفضة وسياجا عاليا من الاسلاك الشائكة ممتدا بين أعمدة خرسانية ٠٠ يدل ما يعلوها من عوازل صينية على أن الحاجز مكهرب ٠٠٠ ولم يكن هناك أى شواهد على وجود سكان ٠

وسار الطابور على طريق صلب ٠٠ وبعد دقائق كانت مقدمة الطابور تنحرف الى اليمين وتدخل لداخل السياج من خلال بوابتين عليهما حراس مسلحون وكان الحراس يقفون على ابعاد كل منها مائة ياردة على امتـداد الحظيرة كلها ٠

وواصل الطابور سيره بعد المبـانى ، الى أن وصل الى مكان فسـيح مكشوف حيث توقف ٠٠٠ وهنا استطاع الاسرى أن يمعنوا النظر فى الجو الجديد الذى يحيط بهم ٠

مجموعتان من المبانى كل منهما تتكون من أربعين وحدة فى صفوف على جوانب الارض المكشوفة ٠ وكانت المبانى عبارة عن حظائر طويلة منخفضة من القرميد ومطلية باللون الاخضر الفاتح ٠٠ وعند نهاية الصفوف مبنيان جديدان يعلوان على المبانى الاخرى بطابق واحد وكانتا فى طور الانشاء ٠٠ والرجال الـذين يعملون فيهـا كانوا يرتدون مختلف الملابس الرديئة وجوههم نحيلة هزيلة وعيونهم ذابلة واهنة ، وقد حلقت رءوسهم جزئيا مع ترك شريط من الشعر بعرض بوصتين يمتد من مقدمة الرأس الى مؤخرة القفا ٠ ورسم على ظهور ستراتهم صليب سانت أندرو كبير باللون الاصفر وقد نظروا الى القادمين الجدد نظرة عدم الاكتراث التى ينظر بها كل من فقدوا امالهم واهتمامهم بالحياة ٠

وجاء سجين آخر يرتدى قبعة بحار ويبدو أحسن مظهرا فى ملابسه ولكن كانت على سترته أيضا علامة الصليب وكان يصيح بالاوامر وكان هذا يعرف بأنه زعيم المعسكر أحد أفراد طبقة مميزة أعطيت لها سلطة على

المساجين الآخرين وهؤلاء يكونون عادة من الالمان الذين يقضون عقوبات اضافية ولكن فيهم أيضا روسيون وبولنديون · وزعيم المعسكر يعتبر رئيسهم والمسئول عن النظام الداخلى فى المعسكر ·

وظهرت عربة يد يجرها رجلان وكانا يرتديان كالمجرمين المحكوم عليهم ملابس من الخيش وعليها أشرطة زرقاء عريضة ·· وعلى العربة برميل يحتوى على سائل يغلى ويتصاعد منه البخار ·· وملئت بعض الاقداح وأعطيت للرجال الذين فى الصفوف الامامية ·· وكانت توجد ثقوب فى الاقداح التى سقطت مقابضها فكان لابد من سدها بالاصابع حتى لا تتسرب محتويات هذه الاقداح ·· وبعد أن شرب رجال الصفوف الامامية ملئت الاقداح ثانيا وأعطيت للصف التالى ·

وعندما جاء دور ميشيل استطاع أن يميز رائحة العدس فى هذا الشراب الذى يبدو أنه لا طعم فيه غير ذلك وقال آخرون أنه الشيكوريا أو ثمار البلوط ·· ولكن كيفما كان هذا الشراب فانه يعتبر شمبانيا بالنسبة لرجل لم يشرب شيئا فى الواقع منذ ثلاثة أيام وقد شربه ميشيل بشغف ·

وفى اثناء ذلك كان يعلن باللغة الالمانية أن المياه الموجودة فى المعسكر غير صالحة للشرب ·· وقام ميشيل بالترجمة وانتهز ميشيل الفرصة وسأل زعيم المعسكر أين هم الآن :

فكان الجواب « من سوء حظكم الفظيع أنتم مثلنا فى معسكر الاعتقال فى نيونجام ·

وصاح أحدهم بالنداء وأخذ الطابور يتحرك ·· وبعد التقدم مسافة قصيرة ، وصلت المقدمة الى أحد المبانى حيث يؤدى سلم شديد الانحدار الى أقبية ، وهنا تسبب ضيق الممر فى تعطيل الطابور ·

وفجأة بدت حركة شديدة فى المؤخرة فالرؤساء الروس والبولنديون الذين كلفوا بهؤلاء القادمين الجدد أخذوا يضربون صفوف المؤخرة بالعصى· ولكى يتفادوا الضرب اندفع الرجال الى الامام وهؤلاء بدورهم دفعوا من أمامهم ·· وكان أثر ذلك أشبه بالصدمات المتوالية التى تحدث عندما يفرمل قطار بضاعة طويل كثير العربات وتحت هذا الضغط أخذ الطابور يتحرك مرة أخرى واختفى السلم ·

ومرت عـدة سـاعات انتظار ، وفى اثناءها بقى بضعة آلاف من الرجال محشورين معـا فى الظلام ٠٠ وعلى فترات كان يؤخـذ منهم مائة رجل يذهبون بهم الى الحمامات حيث يؤمرون بخلع ملابسهم والاغتسال ، وبعد ذلك تحلق رءوسهم وأجسادهم ، وتؤخذ ملابسهم الخاصة وتعطى لهم أردية جديدة سترة وبنطلون تعطى لهم كيفما اتفق وجميع هذه الملابس كانت توزع دون اعتبار للمقاس ٠٠ ولو أنها نظيفة الا أنها قديمة وتحتاج الى تصليح ، ومعظم زرايرها مفقودة أما الاخذية فقد استلم كل سجين زوجا خشبيا بيضاوى الشكل مسمرين معا بقطعة من القماش ٠٠ وبعد أن ارتدى المساجين هذه الملابس كانوا أشبه بالمهرجين فى السرك ٠

كانوا يضحكون على منظرهم الهزلى ولكن الضحك لا يطاوعهم ، لقدكان شعور الاشمئزاز من الحالة التى وصل اليها تحقيرهم وسرعان ما اكتشفوا كيف يفقد الرجل الذى يجعلونه زرى المظهر كرامته أولا ، ثم تفكيره فى نفسه ، وأخيرا رغبته فى الحياة ٠

وبينما كانوا يرتدون زيهم الدنس كان يقف رجلان ومعهمـا الطلاء والفرشاة لكى يرسـموا عليهم وصمة العبودية من خطين على الظهر فى شـكل صليب ثم خطين رأسيين عـلى مقدمة السـترة وآخرين عـلى رجلى البنطلون ٠

وأخيرا صار تمييز كل منهم برقم ، وهذا كان مطبوعا على قطع من الجيش مثبتة بالسترة والبنطلون وكان رقم ميشيل ف (اختصار فرنسى) ثم رقم ٣٣٩٤٨ ٠

وعند اتمام هـذا الاجراء الاخير اقتيـدوا الى أماكنهم ، وهى أربعة بلوكات من القشلاقات منفصلة عن بعضها ، حيث كان عليهم أن يقضوا العشرة أيام الاولى فى حجر صحى ٠

وكان داخل المبانى عاريا مجردا كخارجها ، ثلاثة صفوف من السراير الخشبية ومائدة طويلة كانت هى كل ما فيها من أثاث وكان عرض السراير الخشبية قدمان وست بوصات وكان أغلبها يشغله اثنان وأحيـانا ثلاثة ينامون رأسا الى قدم ويعطى لكل فرد مرتبة رقيقة وملاءتان ٠

وعند الساعة التاسعة مساء تطفأ الانوار ، ويخلد الجميع الى أسرتهم بعد أن يخلعوا بنطلوناتهم واذا ضبط أى واحد منهم مرتديا بنطونه يعاقب كأسير هارب عقابا شديدا ٠

وأخيرا بعد أن مضى ميشيل ثلاثة أيام بلياليها واقفا على قدميه استطاع أن يرقد ٠٠ وفى هذه الحالة من الارهاق ، لم يستطع الجوع ولا عدم الراحة في الوضع أن يمنعه من النوم ولبضعة ساعات قليلة استطاع أن يجد النسبان فى النوم ٠

وفى اثناء مدة الحجر الصحي ، كان القادمون الجدد معزولين على حدة ، وفيما عدا بعض خدمات عرضية لم يكونوا يكلفوا بأى عمل ٠

كانوا يقضون معظم الوقت مصطفين أمام بلوكاتهم أو واقفين على الارض الطينية التى تفصل أحد المبانى عن الآخر ٠

وكانوا يقضون تلك الساعات التى لا تنتهى فى صمت معدوم الاحساس فقد كان معظم الاسرى ما زالوا تحت تأثير ما عانوه اثناء الرحلة ، وصدمة تجربتهم الاولى فى المعسكر ٠٠ وكانوا فى حالة عجز عن القيام بأى عمل لا يرغمون عليه ٠

وفى اثناء احدى هذه الانتظارات الطويلة القى قسيس جزويتى هو الاب لافالارد محاضرة عن اسفار العهد القديم وكان يتحدث ببساطة ووضوح ويستشهد بأقوال الكتاب يلقيها بافاضة من الذاكرة فجذب اهتمام السامعين الذين كانوا فى أول الامر جماعة صغيرة ثم ظلت تكبر حتى بلغت عدة مئات ٠

وفى النهاية اعتذر الخطيب عن معالجته موضوعا كان يمكن أن يعالجه بروتستنتى بكيفية أفضل ٠٠ وميشيل الذى ينحدر من عائلة بروتسنتية وله كثير من الاقارب من بين رجال الدين احتج بسرعة على هذا التواضيع من جانب الخطيب وعبر عن تقديره الفائق لخطابه ٠

وفى كل مســاء عندما كان يعود عمــال (المعسكر) من عملهم كان الجميع يقفون متراصين فى طابور استعراض فى مكان التجمع للمناداة ٠ وكان هذا يستغرق من ساعة الى ساعتين ٠

وقد اشتركت الجماعة الجديدة فى ذلك لاول مرة فى اليوم التــالى لوصولها ٠٠ وبينما كانت قولات الاسرى تسير فى دقة عســكرية ، انتشروا الى صفين لكى يشــكلوا دائرة متســعة تاركين فراغا كبيرا فى الوسط ٠٠٠ وفى الوسط كان يوجــد عشرون فردا هم أعضــاء فرقة الموسيقى النحاسية ومعهم آلاتهم على استعداد ، وكان أمامهم رجل ضئيل الجسم يقف على منصة وهو قائد الفرقة الموسيقية ٠

وعندما تم كل شىء فى موضعه رفع القــائد عصــاه وعزفت الفرقة نشيدا عسكريا معروفا ٠٠ وعندئذ دخل أربعة رجال من فتحة فى أحــد جوانب الدائرة يحملون جهازا ثقيلا ٠٠ وتقدموا الى وسط الدائرة ، كان يتكون من عامودين ضخمين متصلان من أعلى بعارضة وترتكز على كتل خشبية ثقيلة مثبتة بأربطة معدنية ، ومن وسط العارضة كان يتدلى حبل ينتهى بأنشوطة (عقدة) ٠

وبينما كانت الفرقة تعزف النشيد العسكرى كانت المشنقة تنصب ، وتوضع تحتها منصة خشبية ٠٠ ولما تم كل شىء توقفت الموسيقى ٠٠ ثم مضت فترة صمت وعندئذ ظهر شاب يرتدى ملابس المحكوم عليهم المخططة واحدى يديه معلقة فى عنقه على حين ربطت الاخرى خلفه وأخذ يصعد على المنصة ٠٠ كان ضئيلا بشكل مؤلم وعلى وجهه صفرة الموت وصعد خلفه ، زعيم المعسكر الرجل القوى الذى يتميز بقبعة البحارة وأحكم الحبل حول عنقه ٠

وعندئذ تحول نحو الجمهور المحتشد ونطق بصوت مرتفع أســباب الحكم عليه : محاولة الهرب وسرقة الطعــام ثم سأل : « ألا يســتحق أن يشنق ؟ » ٠

وأجاب البعض : « نعم ، انه يستحق أن يشنق » ٠

وقوبل ذلك بهتافات صارخة بالموافقة من الصفوف القريبة ورددت الصراخ فى كل أرجاء الدائرة مئات من الاصوات الذليلة الخاضعة وكانت أصوات الاسرى الروس والبولنـديين الذين يحـاولون أن يتوددوا الى أسيادهم بارزة ، كانت هذه الظاهرة الاستعبادية هى أشد ما أثار نفسية ميشيل من بين جميع الاحداث التى شاهدها فى المعسكر ٠

وانتظر المحكوم عليه بنافذ الصبر وقتا أطول وهو واقف فوق المنصة اذ كان طويلا بكيفية غير مناسبة ، وفتحت الهوة وسقط الرجل ، وحدثت رجة عندما اشتد الحبل بعد سقوط من علو ثلاثة أقدام واهتز الجسم ببطء ثم توقف ومال الى الناحية الاخرى ثم ارتاح الى الابد وبعد لحظة أنزلوا الجثة الى الارض وفصلوها من الحبل وجروها الى أحد الجوانب ٠ وقام اثنان من الاسرى باعادة وضع المنصة ٠

وظهرت الضحية الثانية ـ رجل فى نحو الخامسـة والثلاثين قوى الجسم ضخم الرقبة عريض المنكبين مملوء نشاطا لم ينتظر الى أن يدفعوه ولكنه صعد الى المنصة فى خطوتين بالرغم من أن يديه كانتا مربوطتين الى خلفه ـ وتبعه زعيم المعسكر ووضع الانشوطة حول عنقه ٠ ثم كرر خطبته، ومرة أخرى ارتفعت أصوات المئات باستنكار فعلته ٠

وعندما سكتت الصياحات جذب القائم بالتنفيذ الحبل ولكن المشنقة لم تؤد عملها ٠٠ وأجريت محاولتان أخريان دون نجاح ، قبل أن يشتغل الجهاز ٠٠ وسقط جسم المحكوم عليه وظل معلقا بالحبل ولكنه لم يمت ٠٠ وظل يرفس ويتمايل كما لو كان يكافح من أجل الحياة ٠٠ ثم تشنج جسمه كله بشدة حركاته ٠

واستمرت هذه المعركة وقتا طويلا وكان يشاهدها فى صمت مطبق آلاف المشاهدين ٠٠ وسكتت بالتدريج حركة الرجل الذى يموت وازدادت ضعفا الى أن أصبح جثة معلقة تتأرجح ببطء ٠

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما بدأت الطوابير الطويلة تتحرك نحو قشلاقاتها ٠٠ وكانت وجبة المساء المكونة من الثريد فى انتظارهم ، ولكنهم مع ما كانوا يشعرون به من جوع الا أن قليلا من القادمين الجدد من استطاعوا أن يلمسوه ٠

أما السكان القدامى ، الذين اعتادوا مثل هذه المشاهد فقلما تأثروا منها ٠٠ ان الضعف شيء اعتادوه ٠٠ علاوة على أنه يمر يوم دون أن يموت أحد فى المعسكر أما فى أحد أقبية الزنزانات ، حيث كانت كل منهـــا مزودة بحبل معلق فى حلقة وحيث كان يجرى تنفيذ أحكام الاعدام بأكثر مما كان يجرى علنا ، واما فى المستشفى نتيجة الجلد (الضرب بالسياط) واما فى العمل ، واما اثناء الليل من مجرد الاعياء والجوع ٠٠ وفى كل يوم كانوا يرون الدخان الاصفر يصعد من مدخنة فرن الحريق ٠

١٩

نيـونجـام

بعد أن انتهت مدة الحجر الصحى للقادمين الجدد ، اندمجوا مع باقى سكان المعسكر وفقدوا شخصيتهم الخاصة ٠

وارسل بعضهم الى معسكرات أخرى ووزع البـاقون على الثمـانين بلوكا ٠٠ كان كل بلوك يحتوى على سبعمائة أو ثمانمائة سجين ، كان معظمهم من الالمان والروس والبولنديين ٠ أما الفرنسيون فقد كانوا أقلية ضئيله ٠

كان اليوم يبدأ من الساعة الرابعة صباحا فتضاء الانوار ويسـتيقظ الاسرى على أصوات رئيس البلوك ومساعديه فكل سجين كان يقفز حاملا معه حذاءه وبنطلونه (الذى يكون قد استعمله أثناء الليل كوسادة) ٠٠ وينضم الى الحشد لكى يلحق له مكانا فى دورة المياه ٠٠ ولما كان عـدد الحنفيات غير كاف ، فكانت تحتكر عادة بواسطة أرستقراطية المعسـكر أى الالمان والروس والبولنديون ٠٠ ونفس هؤلاء كانوا يحتـلون أيضـا جميع المقاعد على موائد الطعام الاربعة ، بينما يقف البـاقون ويعتبرون أنفسهم سعداء اذا وجد كل منهم مكانا يستند اليه ٠

بعد الانتهاء من الافطـار وترتيب أسرتهم تبعـا للتعليمـات ، يذهب المساجين الى الحوش حيث يسمح لهم بالسير والاختلاط مع بعضهم الى أن يأتى وقت العمل ٠٠ وكانت هى هى اللحظة التى يستطيعون فيها مقابلة أصدقائهم من البلوكات الاخرى ، ويتبادلون معهم أنباءهم ويسـتمتعون ببعض الاحاديث ٠٠ وبسبب البرد كانوا يواصلون السير، أما فرادى واما فى جماعات ، ولمدة بسيطة يكون هذا الفضاء الفسيح بما فيه من حشد بشرى مسرحا لنشاط حيوى كبير ٠

ودق جرس ، فتشكل رجال المعسكر خلف رؤسـائهم ٠٠ وبدأت الفرقه الموسيقية فى العزف بينما كانت الطوابير تسير ٠٠ وفى دقائق كان آحر طابور قد اختفى وتوقفت الموسيقى ، وساد الصمت هذا الميدان الفسيح مرة أخرى ٠

وفضى ميشيل أول يوم فى العمل فى رفع الواح حديدية ثقيلة ٠٠ وقد علم أن هذه الالواح تستخدم فى انشاء زوارق الطوربيد البخارية ٠٠ وبعد كل ساعتين من العمل المضنى يستريح لمدة عشر دقائق وفى أثنـاء الاستراحة سأل المشرف البولندى على جماعة العمال ، ميشيل وقد أخذه جانبا عن نوع عمله المدنى ٠

فقال له ميشيل أنه كان يعمل فى توريد ماكينات الغاز وعاد البولندى بعد لحظة ومعه مشرف المانى الذى تعمل جميع فرق العمال تحت اشرافه وبعد أن تحادث معه ليختبر مدى معلوماته ، والحصول على اجابات مرضية أخذ رقمه وانصرف ٠

وبعد ذلك علم ميشيل عن طريق المشرف البولنـدى أنه قـد اختير ليكون مساعدا فنيا ٠٠ وكانت هذه تعتبر ميزة كبيرة اذ كان يستطيع أن يعمل على انفراد وتحت أوامر المشرف مبـاشرة وماكينات الغـاز ، التى يستعمل الخشب فى وقودها ، كان يجرى تركيبها فى زوارق الطوربيد ٠

وفد دهش البولندى اذ لم يظهر ميشيل أى ابتهاج بذلك ٠٠ وقـد شـعر بالاسـف لانه ذكر مؤهلاته تلك ٠٠ لقـد رفض من قبـل توريد الماكينات الى الالمان وخاطر بالسجن من أجل ذلك لكى يقوم الان بوضع كل خبرته الفنية تحت خدمتهم وفكر فى أن يتخلص من ذلك بوسيلة ما ٠

وبعد ظهر ذلك اليوم ، أثناء طابور المعسكر بعد الغـــذاء ، طلبوا الاسرى الذين لهم خبرة بالمعادن ٠٠ ورأى ميشيل أن هذه فرصته فتقدم٠ وانضم هو وجمـاعة آخرين وكونوا منهم وحـدة عمل خاصـــة باسـم وحدة الاعمال المعدنية ٠

وفى اليوم التالى عندما خرج المساجين الى العمل خرجت وحدة ميشيل الجديدة من بوابة أخرى ٠٠ وكانت هذه أول مرة يخرج منها من الحاجز السلكى ٠٠ وبعد اجتياز السياجات الداخلية والخارجية خرج الطابور الى الخلاء ٠٠ كانت الى يسارهم ويمينهم أرض مستنقعات تمتد الى الافق البعيد

دون انقطاع ٠٠ لا شجرة ولا بيت كانت فى مرأى البصر عند خط الافق من بعيد كانت تبدو فقط مبانى الورش ٠٠ وبعدها كان يمكن رؤية القناة التى كانت تربط نهر الألب بالمعسكر ٠

وبعد اختراق حاجز آخر مكهرب وصل الطابور الى ورش الاعمال المعدنيه ، وهو مبنى من طابق واحد يمتد فى جناحين ٠

وهنا صار توزيع المساجين على أعمالهم المختلفة بينما كان المجندون الجدد يؤخذون لمقابلة المدير المدنى قبل أن يسلموا الى رئيس العمال وتخصص لهم أعمال ٠٠ وكلف ميشيل بالاشراف على أربع ماكينات كانت كلها تصنع أجزاء من مدافع الماكينة ٠

وكان هذا العمل ، من وجهة نظره ، أفضل من العمل الآخر الذى يستخدم فيه خبرته لانتاج ماكينات الغاز ٠٠ ومع ذلك فالكل سواء من ناحية أنه شكل من التعاون وقد صمم على أن يكون ذلك على أدنى حد ٠

وكانت حصته هى انتاج ٢٠٠ قطعة يوميا ٠ ولكنه لكونه كان مبتدئا ولعدة أسباب ابداها لم يزد انتاجه عن ١٠٠ قطعة ومع ذلك فان هذا لم يرضه فوضع خطة لاخفاء أربع قطع يوميا من اجمالى الانتاج وكان يخفيها فى جيوبه ويتصرف فيها بعد عودته للمعسكر ٠

وليس هناك تصرف أشد من هذا خطرا ٠٠ فان التخريب بواسطة الاسرى لانتاج الحرب الالمانى كان يعاقب عليه بأشد العقوبات قسوة ٠٠ وفى خلال الاسبوع الاول لميشيل كان قد أعدم بلجيكى شنقا أمام عينيه لانه تعمد اضعاف لحام ٠

وفى أثناء عودة الطابور الى المعسكر فى آخر النهار كان رجال بوليس الامن S. S. يوقفون الطابور ثم يؤخذ بعض الاسرى كيفما اتفق لتفتيشهم ٠٠ فاذا وجد أى شىء معهم ليس من المفروض امكان الحصول عليه فى المعسكر يعتبر مسروقا حتى ولو كان فرشة أسنان أو موس حلاقة فكان يصادر ويعاقب حائزه بالجلد القاسى ٠

ومن حين لآخر كان يؤخذ الرجال من الطابور من أمام ميشيل أو خلفه للتفتيش ولكن من حسن حظه كان الحراس دائما يفوتونه ٠٠ وفى

كل مساء عندما كان يأخذ مكانه فى الطابور كان يعمل على تخبئة نفسه حتى لا يكتشف أمره فيؤدى به ذلك الى المشنقة ، وفى ٢٦١ مرة خاطر برأسه بهذا الشكل ٠

ولعل هذه المجازفة كانت من أشجع مغامرات ميشيل فقد أقدم عليها اختيارا ودون مسوغ ، واذا راعينا تأثيرها التافه على الحرب فقد نتساءل عن السبب الذى دعاه الى الاقدام عليها ٠٠ اذ بعد كل ما حققه من أعمال وقاسى من متاعب ، كان من حقه بالتأكيد أن يتطلع للعمل على سلامته الخاصة ٠٠ والرد على ذلك هو أنه بتكوينه الذى جبل عليه ، كان يفهم أن واجبه يقتضيه أن يستمر فى كفاحه الى النهاية ، وكان هذا هو آخر سلاح ترك بين يديه فكان عليه أن يستخدمه ٠٠ ولو كان قد تراجع مرة عن مواجهة الخطر ، وهو لم يفعل ذلك ابدا ولا يوما واحدا ، لاعتبر نفسه كالهارب من الجندية ٠

والمجازفة بالتعرض لبوليس الامن لم يكن هو الخطر الوحيد ٠٠ فانه بعد العودة الى المعسكر كانت لا تزال امامه مشكلة التخلص من أربع قطع الغيار ٠٠ كانت كل منها طولها ١٢ بوصة وكان عليه أن يخفيها فى جيوب بنطلونه ٠٠ وظل بعض الوقت يخفي جسم الجريمة فى أحدى الحفر المفتوحة تحت دورات المياه والموجودة فى نهاية كل بلوك ٠٠ ولكن لما امتلأت الحفر بالقطع أصبحت لا تخبأ بدرجة كافية ، وأصبح تفريغ شحنة جديدة عليها قد يحدث صوتا يلفت نظر الحراس أو الجالسين فى المقاعد (الادبخانات) المجاورة ٠٠ التى يقف أمامها دائما صف طويل من المنتظرين ٠٠ وكثير من هؤلاء المساجين ، وبالاخص الروس والبولانديون مستعدون دائما للابلاغ عن زملائهم ولذلك فان المجازفة تكون خطيرة للغاية ٠

وبحث ميشيل عن مستودعات أرضية أخرى ٠ فاضطر أن يبتعد أكثر فأكثر فى الخلاء ـ وهو عمل فيه مجازفة فى حد ذاته ـ وكان عليه أن يجد الفرصة الملائمة ٠٠ ومع ذلك فقد نجح ، دون أن يكتشف أمره أبدا ، فى تحويل ما لا يقل عن ألف قطعة وعدم استخدامها فى الغرض الذى صنعت من أجله ، بدفنها فى مستودعات الادبخانات فى المعسكر ٠

وبالنسبة لرئيس « شبكة العمل » السابق الذى كان يدير أكثر من مائة عميل ، وكان الالمان يعتبرونه عدوا خطيرا ، يعتبر هذا العمل من التخريب الضئيل شيئا تافها محزنا فى نظره ، ولكن كان أفضل مايستطيع

عمله فى الظروف التي هو فيها .. ولكن الاهم من ذلك هو أن هذا العمل أبقى فيه روح المقاومة مشتعلة وساعد على حفظ روحه المعنوية واحترامه لنفسه والرغبة فى البقاء للعمل .

وكان أول انطباع في ذهن ميشيل لمعسكر نيو نجام هو أنه معسكر اعتقال ، مستخدم كمنطقة للمجرمين .. (ويقتضى أن نتذكر أنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف سوى الالمان ما الذى يحدث للملايين من الاسرى، وأسماء مثل بلسين ورافنسبروك التى أصبحت فيما بعد أسماء مألوفة لم يكن يسمع عنها شيء خارج المانيا) ولكن مع استمرار عملية التـدمير الانسانى بدون هوادة أصبح ميشيل أكثر اعتقادا بحقيقـة هدف هـذا المعسكر .. انه مكان لا يقدر فيه لاى انسان أن يعود منه وهو على قيـد الحياة .

مثل هذه الاماكن ، وكان يوجد منها كثير والتى عرفت فيما بعد باسم معسكرات الابادة كانت تخدم هدفين :

أولا : تصفية اعداء ألمانيا بأفظع كيفية يمكن أن تخطر على العقل ، بعد تعريضهم أولا لكل أنواع الوحشية والتحقير .

ثانيا : ليس فقط بابعاد كل الشواهد على الجريمة وذلك بالتحقيق من عدم ابقاء أحياء منهم يشهدون ، ويتركوا كشواهد للآتين بعد ذلك ، بقايا من الطوب والمونة كدليل دائم ، طبقا للمألوف فى المدينة ، على أنه كانت توجد مساكن نظيفة لاسرى ألمانيا .

كانت المعسكرات تدار بأكثر الوسائل الممكنة وحشية ، وكان اختيار الحراس بكيفية خاصة لقسوتهم . وان الهدف كان تشغيل الاسرى الى حد الافناء والموت ، كل هذه الحقائق كانت من الاسرار المحفوظة بكيفية وثيقة، بحيث أنه لو كانت ألمانيا قد كسبت الحرب لما كان عرف أمرها اطلاقا .

ومن بين هذه المعسكرات كان معسكر نيو نجام يعتبر من أسوأها ان لم يكن أسوأها فعلا ـ وتبعا لتقرير رسـمى للـكونت برنادوت الرئيس البطولى لجمعية الصليب الاحمر والاجنبى الوحيد الذى سـمح لـه بزيارة المعسكر ـ فانه من بين الاسرى البالغ عددهم ثمانين ألفا مات منهم خمسون الفا أو اعدموا فيما بين ٣ نوفمبر ١٩٤٢ و ٢٩ أبريل ١٩٤٥ كانت تلك

شهرته لدرجة أنه حتى المساجين الاقوياء الذين بقوا على قيد الحياة من معسكرات التصفية المشهورة مثل (ساشنهوزن) و (داكو) كانوا يرتجفون رعبا لدى ذكر اسمه ٠٠ وكان قائده تورمان ـ الذى شنق بعد ذلك كمجرم حرب ـ من أوشويتز حيث كانت مهمته ارسال اليهود الى غرف الغاز ٠

لم تكن الصعوبات البدنية وحدها هي التي تجعل الحياة غير محتملة ـ الاثنى عشر ساعة من العمل اليومي المضني ، احيانا في حرارة شديدة ، والاجتماعات التي لا تنتهي في أرض الطابور ، والوجبات الغذائية المستعجلة وغير الملائمة ، والليالى القصيرة والنوم المنقطع بسبب انذارات الغارات الجوية ، والعقوبات الوحشية وحكم الارهاب الذى كانوا يعيشون في ظله ٠٠ ان ما يحيط بهم أيضا كان يضيف الى ما هم فيه من بؤس٠٠ صفوف من المباني الوحشية ، والاراضي الجدباء الخالية من عود واحد من الحشائش أو غصن شجرة ، وسياج الاسلاك الشائكة ولا شيء أمام أنظارهم سوى مناظر الفضاء القفراء التي لا حد لها ٠

وبمقتضى أوامر بوليس الامن S. S. كانت تحفر أحواض للزهور في نهاية بعض البلوكات وتزرع فيها الزهور ٠٠ وكان هذا العمل في نظر الاسرى مهزلة عديمة الذوق ، كانت أشبه بتكليف رجل محكوم عليه بالاعدام بتزيين مشنقته ٠ وكأن الزهور كانت تحس أنها سيئة للطبيعة، فكانت تذبل بسرعة تحت أشعة الشمس الحامية وتبدو كما لو كانت صناعية ولا محل لوجودها في هذا المكان ٠

وحتى لو كانت توجد أى بقعة مبهجة كقطعة أرض مخضرة ، أو ظل شجرة فلم يكن هناك أى امكانية للاستمتاع بها ٠ فبين الاستيقاظ في الرابعة صباحا وبين اطفاء الانوار في التاسعة مساء لم تكن دقيقة واحدة يملكها الاسير يستطيع فيها أن يكون لنفسه أو يفكر في الراحة ٠

وربما كان في هذا أشد حرمان بالنسبة لميشيل فقد كان دائما يحتاج الى الوحدة التي يستطيع أن ينصرف فيها الى التفكير والتأمل ٠٠ كانت ضروريه بالنسبة له ضرورة التدخين أو الشراب للمدمن عليها ٠٠ ولذلك كانت عندما تطفأ الانوار ينسحب من سريره ويقضي ساعة في دورة المياه يفاجيء فيها نفسه وكان بتصريفه هذا يعرض نفسه للعقوبة لذنبين ، أنه خارج محل نومه ومرتديا بنطلونه بعد الظلام ٠٠ ولو قبض عليه متلبسا لاتهم بمحاولة الهرب وعوقب على الاقل بالجلد ٠

وفى احدى الليالى بينما كان جالسا فى دورات المياه فوجىء برئيس المعسكر يسأله عما يفعل هناك ٠

فأجاب ميشيل بهدوء « انى أصلى » وتوقع عاصفة من الغضب ٠٠ ولكن دون أن يفوه بكلمة عاد الحارس الى البلوك ثم رجع واحضر معه قصرية ووضع يده على كتف ميشيل فى حركة ودية واشار عليه بان يستخدمها ثم انسحب ٠

ودهش ميشيل الى حد أنه لم يعبر له حتى عن شكره ، وبعد ذلك لم تكن تأملاته الليلية تقاطع ابدا ٠

وفى منتصف يونية ، بعد وصول ميشيل للمعسكر بلغته أنباء نزول الحلفاء الناجح فى نورماندى ، وقد أثار هذا شعورا حماسيا وبالاخص بين الاسرى الفرنسيين ٠٠ وفى لحظة تغير يأسهم أملا وحتى أكثرهم انهيارا معنويا استردوا ايمانهم ٠٠ ولمدة أيام قلائل كان يسود المعسكر جو من المرح كما لو كان المنقذون سيأتون فى أى لحظة ويفتحون لهم الابواب على مصاريعها ٠

وبمرور الاسابيع ثم الشهور دون أن تكون هناك أى علامة على قرب انتهاء الحرب ، سيطر التشاؤم مرة أخرى ٠٠ وكان الاسرى يقولون أنه لو كان الالمان مازالوا يقاتلون فى فرنسا فسوف تمضى شهور وربما سنوات قبل أن يهزموا ٠٠ فالامل فى الحرب الذى كان فى وقت ما يبدو قريبا جدا منهم تضاءل بكيفيه محدودة فى المستقبل ٠

وجعلت حالة اليأس الناجمة الاسرى أكثر يأسا مما لو كانت آمالهم لم تنتعش أبدا ٠٠ وفى نظر الكثيرين منهم كانت هذه فرصتهم الاخيرة ٠٠ واذ اعتقدوا أنه لا أمل لهم الان فى الخروج فقد يئسوا من معركة البقاء وكفوا عن أى جدال أو عراك من أجل حصتهم فى الغذاء أو من أجل الدفاع عن شىء من متعلقاتهم اذا استولى عليه غيرهم ولم تعد فيهم أى رغبة للدفاع عن حقهم فى الحياة وكانوا يزدادون كل يوم ضعفا ، وأخيرا انهاروا وهكذا مات كثيرون منهم فى صيف وخريف ١٩٤٤ ٠

وفى الصحف الالمانية ، التى كان ميشيل يطلع عليها احيانا أثناء عمله كانت ترد أنباء نزول قوات الحلفاء متعلقة بانباء الهجوم بالقنبلة الطائرة

على لندن ٠٠ وكان هذا محزنا لميشيل واتجه بتفكيره الى (بوا كاريه) والى اندريه كومبس والى فريقه من العملاء المخلصين الذين جازفوا بحياتهم من أجل اكتشاف مواقع السلاح الجديد الخطير V. I. ٠٠ فهل ذهبت اذن جهود جميع هؤلاء سدى ٠٠ ولكنه لم يكن يعلم أنه يفضل تلك الجهود التى بذلها رجاله ، فان ذلك الهجوم أسفر عن فشل ذريع ٠

ومع قدوم الشتاء ، أضافت البرودة مزيدا من متاعبهم وبطبيعة الحال لم تكن هناك تدفئة فى المعسكر وكان الاسرى يرتجفون داخلها من البرد ، وكانت أرديتهم هى نفسها تلك الكساوى البالية والتى استهلكت طوال الصيف ٠٠ وبينما كانوا يقفون فى الطابور واسنانهم تصطك ، كانوا يشاهدون أسراب اللقلق الابيض وهى تطير فوق رءوسهم متجهة الى أجواء أكثر دفئا ٠

وكانت انذارات الغارات الجوية تزداد وتتردد أكثر فأكثر وفى كل ليلة تقريبا كان يؤخذ الاسرى من أماكن نومهم وينقلون الى الزنزانات ، بينما يقف جنود بوليس الامن ومعهم القنابل اليدوية مستعدين لالقائها عند أول بادرة تمرد أو ثورة وكان هذا الاجراء احتياطيا ضد أى محاولة للانقاذ بواسطة رجال مظلات الحلفاء ٠

ولما ٠ ازدادت الاحوال سوءا ورأى ميشيل أن زملاءه الاسرى تزدادون ضعفا من الارهاق والجوع حتى لم يعودوا يحتملون تلك الظروف ، تحقق لديه انه لم يبق الا بذل جهد استثنائى لكى يتجنب انهياره هو أيضا ٠٠ وكان يضغط على نفسه للقيام مبكرا مهما كان الطقس ويقضى فترة فى ممارسة الالعاب الرياضية فى الهواء الطلق ٠٠ وهذا علاوة على أنه كان يجعله صالحا جسمانيا ــ اذا كان هذا التعبير يمكن أن ينطبق على مثل حالته ــ فانه كان يتيح له مزية اضافية يغسل بها ادران نفسه كل صباح ٠٠ ولكى يشغل ذهنه وتفكيره كان يتلو الشعر ويستذكر ما كان يحفظه من أبيات الشعر ٠٠ لانه بالطبع لم تكن لديه وسيلة كتابتها ٠

ولما لم يكن مسموحا بالخدمات الدينية فى المعسكر حاول أن يقوم بها بنفسه ٠٠ ففى كل أسبوع ، مع الاعتماد على ذاكرته أيضا ، كان يختار نصا من التوراة ، ويتخذه موضوعا ثم يعد حفلة دينية ٠٠ وفى أيام الاحاد كان يترك الاسرى لمدة ساعة أو نحوها يقضونها كما يشاءون فكان ميشيل يبحث عن مكان هادىء ويجمع حوله بعض اخوانه ويتحدث معهم فى الموضوع المختار ٠

وكان هدفه من هذه الاحاديث أن يبعث في زملائه الضعاف الايمان والامل ·· وفوق كل شيء كان هو نفسه يجدد ثقته وشجاعته ·

ومع مرور الوقت كان مستمعوه يزدادون عددا ، وكان ينضم اليهم خلاف مواطنيه ، المان وروس وبولنديون ، وهؤلاء كانوا عادة يعادون الفرنسيون ·· ولما كان أى تجمع للاسرى يعتبر خرقا للتعليمات ، والاجتماع الدينى أشدها من هذه الناحية فقد توقع ميشيل الاذى ·· على أنه لم يتقدم أحد بالتبليغ ضده ، واستمر يؤدى الصلاة كل أحد طوال مدة وجوده فى المعسكر ·

ولم يكن فى بلوك ميشيل الا رجل فرنسى واحد غيره هو موريس جاشنى وهو مهندس من مونترى كان قد اعتقل ورحل على أثر اكتشاف جهاز ارسال لاسلكى فى بيته كان يستخدمه فى الاتصال بلندن · وثلاثة آخرون كان يقابلهم بانتظام فيورشة الاشغال المعدنية وهم البرت سينولى فلاح من نورماندى و جاك بتجان صاحب محل دراجات فى تولوز ، ولويس أصغر الجماعة ·

وهؤلاء الاربعة ومعهم ميشيل كانوا يشكلون اخوة فرنسية صغيرة يجتمع أعضاؤها يوميا ·· وكان هناك عدد آخر ممن يتكلمون الفرنسية من السويسريين والبلجيكيين ، كان يجد الفرصة أحيانا ليتبادل معهم أحاديث قليلة ·

وتمت حلقة معارفه بانضمام أمريكى معروف يدعى جاكسون كان طبيبا فى المستشفى الامريكى فى بيللى وهذا الآخير كان قد جاء الى المعسكر بعد ميشيل ومعه ابنه الذى يبلغ عمره الخامسة عشر فيليب ·· ولم يعلم أحد سبب ترحيله الى المعسكر ، كما أن جاكسون لم يتحدث عن ذلك أبدا كان فى الستين من عمره مستقيما للغاية أبيض الشعر قوى الملامح شديد التعبير وكان يبدو كشخص جم النشاط قوى الخلق · كان شديد التحفظ فى تصرفاته وهذا بالاضافة الى مظهر الاباء الذى تحمل به حياة المعسكر أثار فى نفس ميشيل ميلا نحوه ونشأ بينهما تفاهم كامن ·· وفى أثناء الاجتماعات الاسبوعيه كانا يتبادلان عبارات قليلة ·

كان هم جاكسون الرئيسى هو أن يدبر وسيلة لوصول أنباء عن مكان وجوده هو وابنه الى عائلته فى أمريكا ·· وميشيل كان يستطيع مساعدته

في هذا ، الا بفضل وجود أخته في سويسرا التي استطاع بعد محاولات أن يبعث لها ببطاقة ، أمكن ارسال الانباء الى أمريكا مما دعا الى ارتيـاح جاكسون كثيرا ٠

وفي أحد الايام بينما كان ميشيل يسير في أرض الطابور تقابل مع الشاب المارسيلي الذي كان يريد تهشيم رأسه في عربة الماشية ٠ وقد تغير شكله فبدأ كما لو كانقد انكمش قوامه وبدا عليه الاكتئاب والانحلال من الجوع وفي شكل زرى بملابسه التي تدعو للرثاء وبالكاد عرف فيـه المعتدى عليه السابق ٠٠ ومع ذلك فقد تصافحا وهزا أيديهما بحرارة ٠

وجاء موسم عيد الميلاد وأقيمت شجرة في جانب من أرض الطـابور وعلقت فيها الانوار الملونة ٠٠ وفي يوم عيد الميلاد ، في اجتماع الصباح ظهر رجال بوليس الامن يحملون سلالا كبيرة كانوا يقدمون منها السجاير، ربطة لكل سجين وبعد ذلك صدرت أوامر الانصراف ، واستأنف الحراس سيرتهم الاولى بالضرب والركل بالاقدام ٠

وفي المساء ، كان يمكن أن يرى من خلال احدى نوافذ البلوكات ، حوالي أربعين أو خمسين أسيرا جالسين الى مائدة طويلة ٠٠ وهؤلاء كانوا الرؤساء الالمان ، وهم الاسرى من الطبقة الحاكمة وامام كل منهم شمعـة الميلاد التقليدية مشتعلة وهو يراقبها في صمت ورأسه مائلة فوقها ٠٠ فكانت هذه الاضواء المرتعشة ، والهياكل التي لا حراك بهـا ، والوجوه الذابلة ، تبعث في ميشيل ، الذي كان يراقب المنظر من الخارج ، احساسا باليأس المرير ٠

وفي بلوك آخر ، كانت تتمثل فيه جميع الجنسيات ، ولكن معسيادة الروس والبولنديين ، ارتفع فجأة صوت انشاد جميل ٠٠ كان صـوت شاب فرنسي يغني ووجهه يكاد يضيء بحماسة النشوة بينما كان الاسرى ينظرون مشدوهين ويستمعون في شيء من الدهشة والاعجاب ٠

وكان يوم الاحد ، يعتبر نظريا ، يوم عطلة ٠٠ الا أن فترة الصباح كانت تقضى في تنظيف البلوكات ، وبعد الظهر يطلق سراح الاسرى داخل المعسكر ٠٠ وهذا الوقت كان هو وقت السوق السوداء الاسبوعي ٠٠ كانت العملة تأخذ شكل السجاير وتجرى المساومات على تبادل الاشياء بهذه العملة ، وكانت أعلى الاسعار هي التي تدفع عن الادوات التي لاتتوفر في المعسكر والتي كانت حيازتها تبعا لذلك تعتبر غير مشروعة ٠

ومكان التجمع الرئيسى هو أرض الطابور الذى كان يزدحم دائما يوم الاحد · واحيانا ما يحاولون ممارسة احدى المباريات ولكن قليلا من الاسرى من كانت لديهم الهمة للمشاركة فى ذلك ·

وفى احد ايام الاحاد كانت الساحة خالية من الناس الا من هيكلين بشريين ذليلين .. كانتا جثتى أسيرين روسى ويوغسلافى قتلا أثناء محاولتهما الهرب · وتدل ملابسهم الممزقة والملوثة بالدماء بانهما هوجما حتى الموت بواسطة الكلاب البوليسية ·

وفى أوائل العام ، وصل الى المعسكر بضعة مئات من رجال البوليس الدانمركى وكانوا لا يزالون يرتدون كساويهم الرسمية الغامقه الانيقة ، وبعد أن استبدلوها بملابس المعسكر تم توزيعهم عى مختلف البلوكات ·

وبعد أيام قلائل وصلت عدة لوريات الى المعسكر ترفع على الصليب الاحمر السويدى ·· وكانت تحمل طرودا من الاغذية للقادمين الجدد ، وكان مسموحا لهم باستلامها ، مما أثار حسد باقى الاسرى اذ لم يكن الداتمركيون يتناولون طعام المعسكر ، الذى لا يعتبر صالحا للاكل الا بواسطة رجل يموت جوعا ·· وبدلا من أن يشركوا معهم جيرانهم الاقل حظا منهم فان أغلبهم رفض أن يتنازل عن أى حصة الا مقابل مبادلات ·

كانت هذه نوع العقلية التى ترتبت على حياة المعسكر هى فلسفة « البقاء للأصلح والويل للمتخلف » وهىفلسفة تطبقها الغالبية . وبمقتضى خطة مرسومة تهدف الى ازالة المشاعر الانسانية أصبح الرجال أقرب الى البهم التى تدافع بوحشية عما لها ، ويترقب كل رجل نقطة الضعف فى الآخر للانقضاض عليه ·

وبعد وصول رجال البوليس الدانمركيين ، وصل للمعسكر ثلثمائة من النرويجيين ·· ونتيجة لاصرار الكونت برنادوت الذى كان يتفاوض مع هيملر فى شأن اعادتهم للوطن ، تقرر اقامتهم فى بلوك خاص مزود باثاث مريح وسمح لهم باستلام الاغذية من الصلب الاحمر ·

ولو أن النرويجيين كانوا مفصولين عن بقية الاسرى بواسطة سياج من الاسلاك الشائكة ، الا أنهم كانوا يشركونهم معهم فى طرود الاغذية بكرم وسخاء ·· فكانت تمر من خلال الاسلاك الشائكة طرود الخبز والبسكوت واللحوم المحفوظه فى العلب والسجائر الخ ·

وقد أنقذ هذا العمل الانسانى حياة الكثيرين ، بعد أن هبطت أخيرا وجبة المعسكر البائسة فأصبحت شريحة واحدة من الخبز يوميا ومعها ملء ملعقتين من سائل مائى ٠

وجماعة أخرى ، قوامها حوالى المائة وصلت الى المعسكر فى نفس المدة واستلفتت الاهتمام لسبب آخر ٠٠ كان معظمهم فى السنوات الثلاثين من عمرهم يتكلمون الالمانية وكانت تبدو عليهم الطيبة وعدم الشر ٠٠ على أنهم لم يخرجوا للعمل مع رجال المعسكر وكان كل منهم يضع على كمه علامة تحمل كلمة « الخروج ممنوع » ٠

وفى بادىء الامر لم تكن دلالة هذه الكلمات مفهومة لباقى الاسرى ٠٠ ولكن لوحظ بعد وقت أن دفعات القادمين الاخيرة الذين كانوا يعرفون كل اليوم على أرض الطابور ، كانوا يتناقصون باستمرار ٠٠ وفى كل يوم كانوا يتناقصون الى أن اختفوا أخيرا ٠٠ وعندئذ فقط عرف أنه صار « تصفيتهم » بدفعات من خمسة أو ستة وذلك بشنقهم فى زنزانات الموت ٠

ومذبحة اجمالية ثانية حدثت فى فبراير عندما قدمت جماعة من الاولاد الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والرابعة عشر وشوهدوا وهم يدخلون بلوك المستشفى ٠ فلم يترك واحدا منهم على قيد الحياة وعلم بعد ذلك أنه صار تلقيحهم بلقاح مميت بعد تعريضهم لسلسلة من التجارب البيولوجية٠ كما أعدم ثلاثة أطباء فرنسيين لمحاولتهم منع هذه التجارب ٠

وكان نادرا أن يعود أى شخص يرسل الى المستشفى ، فلم يكن فيه تمريض ، والناس الذين يرسلون اليه بقصد أن يموتوا بدلا من أن يعالجوا .

وبالرغم من أن اقتراب باقى الاسرى كان محظورا الا أن ميشيل استطاع أن يحصل على اذن بالدخول عدة مرات لزيارة جار مريض ٠٠ وقد حصل على ذلك اما برشوة الاسير المكلف بالاشراف بتقديم السجاير له أو بالتسلق — وفى خلال هذه الزيارات اكتشف فى بعض الاحيان وجود أسرى آخرين من معارفه الذين اختفوا ٠

وقابل فى المستشفى أيضا لاول مرة أحد الرجال المعروفين فى المعسكر وهو لويس مارتن شوفيه ، المؤلف والصحفى الفرنسى وكان معروفا له

بشهرته كمساعد فى تحرير « فندردى » الاسبوعية التى يحررها أندريه شامسون ٠ وقبل الحرب كان ميشيل يقرأ مقالاته غالبا ، ولكنه لم يكن ليخطر بباله اطلاقا أن تكون أول فرصة لمناقشة تلك المقالات مع كاتبها ستكون فى مستوصف معسكر الاعتقال الالمانى ٠

كان مارتن شوفيه فى شدة المرض ، ولكن شجاعته لم تتضاءل، وبينما كان ميشيل يجلس على حافة سريره ، متوقعا فى أى لحظة أن يكتشف أمره ويسحب الى الخارج ، كان الاثنان يشتركان فى مباحثة ثقافية بحثه ٠

ومواطن آخر ممتاز قابله ميشيل فى المستشفى هو الجنرال الفرنسى المتقدم فى السن باردى دى فورتو ــ الذى بعد أن اشترك بدور قيادى فى حركة المقاومة صار ابعاده وكان قد قضى فعلا عاما فى المعسكر حيث كانت شجاعته وايمانه مبعث وحى والهام للجالية الفرنسية ٠٠ وهو يعانى الآن سكرات الموت ٠

وفى أحد الايام بينما كان مضطجعا فى شدة المرض ، لاحظ الاسير البولندى وكان يقوم بعمل النوبة أن فراش الجنرال غير مرتب فصاح فيه موبخا ونادى باقى المرضى لكى يشاهدوا حالته المخجلة ٠٠ وكان رد الجنرال حركة واهنة من ذراعه وعند ذلك اندفع البولندى نحو فراشه وأخذ يضربه بقبضته على أم رأسه ٠٠ وعندما هدأ غضبه كانت قد انقطعت أنفاس الرجل الميت ٠

ساد الصمت ، ثم سمع صوت ألمانى يتعجب قائلا : « لم يتعلم » ٠٠

وظن المشاهدون أن الالمانى يندد بكلمته هذه بحركة القتل ٠٠ ولكن اتضح بعد لحظة أن الالمانى لم يكن ينتقد البولندى على تصرفه وانما كان ينتقد الجنرال لانه لم يكن يرتب فراشه ٠٠ فهذا فى نظر الالمان كان الفضيحة التى تدل على « عدم التعليم ! » ٠

وفى احدى الليالى التى كان مفروضا فيها على ميشيل أن يعمل بالليل استطاع أن يسرق كرنبة من مطبخ بوليس الامن وهربها الى رجل فرنسى كان يموت جوعا فى المستشفى ٠

وكان من نتيجة تأخيره أن تحركت القوة بدونه ، ولعلمه أن غيابه سيلاحظ عند نداء الاسماء والطابور ، رأى أن أفضل طريقة أن يقدم نفسه لفرقة الحراسة ويدعى أنه قد نسى الوقت •

ورفض هذا العذر وعوقب بخمسة وعشرين جلدة •• وظل يحتمل العقوبة بصبر لغاية الجلدة العشرين ولكنه بعد ذلك لم يستطع المقاومة وسقط على وجهه من الاعياء •• وعند ذلك استشاط جندى الامن غيظا وأخذ يركله بقدمه بجنون •

وكان ميشيل يعرف رجال ال S. S. ،اذا سقط أى رجل تحت عقوبتهم ، فانهم يفقدون أعصابهم كلية ، ويستمرون فى ضربه وركله الى أن لا يتركوا منه شيئا الا جثة هامدة ، فان لم يستطع الصمود والوقوف على قدميه فان ضياعه محقق •

وكان على بعد خطوات منه حائط ، حاول ميشيل أن يستند اليه وأن يمسك بيديه ويرفع نفسه أولا على ركبتيه ثم على قدميه ، وهنا نجح فى أن يصلب عوده بينما كانت الخمس ضربات الباقية تنهال على جسده •

وكان لتصرف ميشيل أثرا مريحا فى نفس الجندى ال S. S. الذى أخذه بعد ذلك الى مصنع الاشغال المعدنية •

كانت مثل هذه الأحداث تحدث يوميا •• كان الاسرى يجلدون لأن ملابسهم كانت رديئة التصليح أو أن الرقم المثبت عليها لم يكن ظاهرا بكيفية واضحة أو أن أماكن نومهم لم تكن مرتبة أو كانوا يقفون فى وضع خاطىء فى الطابور •• وكان الذنب الشائع عدم اتمام الحصة الكاملة من العمل •

والذين لم تكن لهم أى مهارة عملية خاصة كانوا يستخدمون فى حمل الاحجار أو دفع عربات اليد المملوءة بالرمل وكانوا يؤدون عملهم تحت المراقبين المشرفين عليهم •

وآخرون ليست لهم المهارة ولا الصلاحية البدنية فكانوا يعملون فى احدى الزنزانات وهم جالسون على البلاط فى شكل دائرة حول كوم كبير من الانقاض يصنعون منها حبالا بأن يوصلوا معا قطعا من هذه المخلفات من

خرق بالية مضبوط وقطع من أقمشة أو اطارات .. وكان على كل رجل أن ينتج طولا معينا من الحبال كل يوم ٠٠ أو أن يتعرض لعقوبة الضرب ٠

وكان هذا هو العمل الذى يعطى عادة للمثقفين الذين كانوا الهدف المرغوب لرجال ال S. S. ، فكلما زادت ثقافة الفرد كلما زادت الرغبة فى اذلاله الى مرتبة الحيوان الاعجم ٠

وقال أسير يتحدث الفرنسية لميشيل « هل تعلم أنك أتيت الى هنا لتموت » وبروح التفاؤل الطبيعية فى ميشيل لم يأخذ هذا الكلام جديا ، ولكنه بعد ستة شهور تحقق من صحته ٠٠ وكانت النهاية لا مفر منها ، والسؤال الوحيد هو كيف يمكن تأجيلها ٠

وفى نفس الوقت كان عليه واجب آخر هـو أن لا يخضع لاجراءات التجريد من الانسانية ، وأن يواصل مكافحته ، وأن يبقى رجلا وكان هذا من الصعوبة بمكان ، والرجال ذوى الاخلاق الاستثنائية هم فقط الذين استطاعوا أن يرتفعوا الى مستوى البطولة التى يتطلبها ذلك ٠

وبخلاف ميشيل نفسه ، كان أفراد قلائل هم فقط الذين فعلوا ذلك هو رفيقه فى المعسكر لويس مارتن شوفيه ٠٠ لم يستطع أى شـخص أن يصف بكيفية أفضل منه المعركة التى عاناها أولئك الذين ـ بالرغم من كل ما قام به العدو بسحق روحهم واذلال رجولتهـم ـ بقوا ، حتى فى موتهم ، فخورين غير مهزومين ٠

ان الكتاب الذى وضعه شوفيه اثر عودته الى فرنسا بعنوان « الانسان والحيوان » L'homme et la Bête لا يعتبر فقط أفضل وصف لمعسكر الابادة ، ولكنه أيضا تدليل رائع على قوة الروح الانسانية على مقاومة قوى الشر ؛

ولعل أفضل ما نختتم به هذا الفصل أن نورد بعض عبارات الكتاب :

« كانت الجريمة الكبرى للهتلرية تحقير الكائنات الانسانية الى ذلك الحد من الدناءة الذى لا يستطيعون فيه أن يتبينوا مدى ما انحطوا اليه و ٩٥ فى المائة من ضحاياها قد استسلموا ٠٠ بعد أن فقدوا احترامهم الذاتى ولم يعودوا أشبه بالرجال » ٠

«والمعجزة هى أنه فى مثل هذه الظروف ـ مع كل أنواع القسوة والتحقير التى يمكن ابتكارها لانهيار الروح ـ ومع القوة الوحشية التى تستخدم كلا من المكر والوحشية ـ أقول أن المعجزة هى أنه فى حالة راحة من كل عشرين يعجز العدو عن السيادة على الروح البشرية التى تكمن فى جسد يستطيع أن يقاوم ·· نعم رجل واحد من كل عشرين استطاع أن يحتفظ بانسانيته دون مساس بل ظهر فى عظمته وأدرك بكيفية لم يسبق لها مثيل جذورها ومصيرها » ·

وكانت النسخة الاولى من الطبعة التى صدرت بأرقام تحدد ترتيبها لكتابة : «الانسان والحيوان » مهداه الى ميشيل ·· وما من تكريم يمكن أن يقدم اليه أفضل من هذا ·

٢٠

من الأعماق

فى ربيع سنة ١٩٤٥ كان سكان المعسكر قد نقص عددهم كثيرا ٠٠ مات منهم كثيرون فى الشهور الاخيرة بينما نقل عدد كبير الى معسكرات ابادة أخرى ٠٠ أما الدانمركيون والنرويجيون فقد أعيدوا الى أوطانهم بفضل تدخل الكونت برنادرت ٠

وأصبح المستشفى خاليا فى الغالب ، ونقل المرضى من الحالات السيئة للغاية الى « بلسين » ، أما الذين يستطيعون السير فقد وضعوا فى قطار بضاعة سافر بهم الى جهة غير معلومة ٠٠ وعلم فيما بعد أنهم بعد السفر عدة أيام وصلوا الى جاردلجين حيث حجزوا فى عنبر كبير ٠٠٠ ثم اشعل فيه النار عندئذ بواسطة رجال ال S. S. حيث هلك جميع من فيه بما فيهم الطبيب السويسرى مورين الذى رفض أن يتخلى عن مرضاه ٠

وفى أحد الايام ــ حوالى يوم ٢٠ أبريل ــ كانت تسمع أصوات نيران المدافع ٠٠ لم يسبب ذلك سرورا للاسرى فلم يكن أى واحد منهم يأمل أن يترك المعسكر حيا الا اذا كان يساق الى الموت فى مكان آخر ٠

وفى نفس الوقت تجمع العشرون ألفا الباقون ، فى أرض الطابور وطلب اليهم تسليم مراتبهم وفى الصباح التالى بدأت عملية توزيع المعسكر بترحيل من فيه الى أماكن مختلفة ٠

وكان على ميشيل هو ومواطنه البرت سينونى أن يذهبا مع عامل المطبخ الذى كان قد نقل اليه على أثر اغلاق المصنع وفى اللحظة الاخيرة حاولا اغراء صديقهما جاشنى أن ينضم اليهما ولكن هذا الاخير كان مترددا، ولما كانت جماعتهم قد بدأت تتحرك فقد سافرا بدونه ٠

وساروا مع باقي الرجال الى السكة الحديد حيث كانت تنتظرهم عربات الماشية ، وكانت تشبه العربات التى حضروا بها من كومبين منذ عام ·· على أنها فى هذه المرة بدلا من أن يكون كل مائة أسير فى عربة كان كل أربعين أسير فقط في العربة ·· وترك أعلى الباب مفتوحا ··· وكان الجنود يقومون بالحراسة في كل عربه ·· وكانوا من رجال احتياطى الجيش ويتصرفون بدون وحشية ·

وسار القطار وبعد أن ترك المواصلة الصغيرة في برجدورف اقترب بسرعة من هامبورج ·· وأخذت الارض ميلا بعد ميل تغطى بالاكواخ التى لجأ اليها السكان هاربين من ضرب القنابل وكانوا يحدقون من أبواب أكواخهم الى القطار وأطفالهم يقفون الى جانبهم فكانوا أشبه بالاوباش المشردين منهم بشعب متمدين في مدينة عظيمة ·

وواصل القطار سيره فاخترق هامبورج الى الشرق الى أن وصل الى رصيف حجرى يشرف على قناة ، وعلم ميشيل فيما بعد أنه كان يؤدى الى مصب نهر تراف خارج ميناء لوبيك ·

وأوقفت باخرتا شحن جنبا الى جنب بجدار الرصيف ونزل الاسرى من العربات وعبروا الباخرة الاولى وكان اسمها المينورست ثم دخلوا الثانية « تيلبك » عبر أبواب ضيقة في داخلها ·· ثم تسلقوا عدة سلالم حديدية ليصلوا الى أدنى مخزن فى الباخرة ، الذى يقع فوق القاع مباشرة ·

وفي الوقت الذى وصل فيه ميشيل الى أسفل السلم الاخير كان المخزن قد امتلأ بالاسرى ·· وكان الظلام حالكا وكان عليه أن يتلمس طريقه لكى يجد فراغا فى ناحية الجانب المنحدر من قاع الباخرة ·· وكان معه سينوتى الى جانبه ووجدا لنفسهما موضعا فى الطرف بالقرب من أحد السلالم الحديدية ·

ومن الآن أصبح هذا الحيز الضيق ، الذى لا يستطيع أن يقف فيه ولا أن يضطجع هو مكان راحته الوحيد ·

ولم يعرف ميشيل أبدا كم قضى من الوقت فى مخزن (تيلبك) · فقد أضاع قدرته على حسبان الوقت ـ ولكنه بتقدير الاحداث السابقةواللاحقة

استطاع أن يقدر الوقت بثمانية أو تسعة أيام على الاقل ·· ولما كان المكان يسوده الظلام الدائم فلم تكن هناك وسيلة لتبين الليل من النهار الا عندما تفتح الطاقة لادخال الطعام الى الاسرى ·

وبخلاف برميل مفتوح موضوع في الوسط ، سرعان ما يمتلىء بالمخلفات (البراز) ، فان كل شبر في المكان كان مشغولا بأجسام بشرية ··· نسبة بسيطة فقط استطاعت أن تجد لها مكانا على القاع المسطح أما الباقون فكانوا يتأرجحون على السطح المنحنى لهيكل السفينة ·

وعندما كانت تفتح الكوة لادخال الطعام ، أو لاستدعاء أحد الاسرى للعمل ــ ودائما يكون بولندى ــ كان ميشيل يشب على السلم ليقضى بعض ثوانى على السطح ·· ولكنه كان يدفع بشدة الى أسفل بالضرب والشتائم ·· ولكنه كان ينجح غالبا فى ملء رئتيه بالهواء النقى وأحيانا في العثور على بعض الماء لكى يبل يديه ويرطب وجهه ·

تلك اللحظات التى كان يهرب فيهـا من أهوال المخزن والتى كان يحصل عليها كل يوم تقريبا · ولو مقابل عدة ضربات ، علاوة على فائدتها البدنية له كانت تحفظ روحه المعنوية · فان الحقيقـة الماثلة من تحديه للسلطة ، والمجازفة بعواقب خطيرة كان لها تأثير مقوى على ذهنه ·· ومثل خططه الخاصة بالهرب من السجن فى فرينيس ، كانت شيئا يشـغل تفكيره ، جعلته يحتفظ دواما بيقظته ومنعته من السقوط فى هوة البلادة والجمود التى أصابت معظم رفاقه باليأس والشقاء ·· فما من واحد منهم كانت لديه أى تصورات عن مستقبلهم ·· ومن الواضح أن الالمان ما كانوا ليضعونهم فى قبور الاحياء هذه اذا كان فى نيتهم الافراج عنهم عند قدوم الحلفاء ·· الا لامكن أن يقيموا فى المعسكر وكانت تـدور الحكايات بين الروس والبولنديين عن شحنات بواخر من الاسرى ، أخذوا الى البحر ثم اختفوا نهائيا ·

وكانت طلعات ميشيل اليومية على السـطح تعطيـه فرصة فحص ما حوله ·· ظلت السفينة راسية فى نفس المكان على جانب السفينـة الاخرى ·· وكان يقف على الرصيف عربتان أو ثلاث عربات بضاعة ، وعلى مسافة قصيرة كانت القناه وعليها يلاحظ ما بالخارج ، شاهد تراما يمـر فوقه مملوءا بالرجال والنساء الذاهبين الى أعمالهم ·· واختفى الترام فى

شارع مغروسة على جانبيه الاشجار فى اتجاه لوبيك ‥ وقد ملأه منظر الناس الذين ما زالوا أحرارا ، أو نسبيا ، بمشاعر لا يستطيع التعبير عنهـا ٠

وعندما فتحت الكوة للطعام ، نزلت جماعة العمل تحمل عدة أوانى مملوءة بالشوربة واندفع عليها الرجال الهالكون جوعا بحيث لم يستطع الحصول الا القريبين منهم فقط ، ولكن حتى مع ذلك فانه لعدم وجود أطباق لاخذ الشوربة فان معظم السائل كان يسكب ٠

ولحسن الحظ كانت قد وزعت عليهم طرود أغذية مرسلة من الصليب الاحمر الامريكى قبيل مغادرة المعسكر بقليل ، وقد اقتسمها عدة مئات من الاسرى وبعضهم من الفرنسيين الذى يتبعه ميشيل ، وقد فطنوا الى توفير بعضها للرحلة وقد عاشوا على هذه البقايا الايام القليلة الاولى من وجودهم فى المركب ، وكانت العلب الفارغة التى بقيت تستخدم كآنية يغترفون بها من الشوربة ٠

وفى أحد الايام أمكنهم أن يسمعوا من ناحية الجانب الصلب من الباخرة صوت أوناش تدور وتلاه صحه توربينات وعندما استطاع ميشيل مرة أخرى أن يتطلع من السطح شاهد الباخرة المجاورة (المينورست) قد ذهبت وأن باخرتهم هى التى أصبحت ملتصقة مباشرة بالرصيف ٠

وبعد وقت فتح المدخل الرئيسى لاخراج وتفريغ البرميل الذى طال امتلاؤه لآخره ، ودليت الحبال وربطت بيــدى البرميل ورفع الى أعلى ٠ وعندما وصل الى مستوى الســطح العلوى انقلب البرميل فأفرغ كل محتوياته على رءوس الاسرى الــذين كانوا متجمعين تحتـــه على أمل أن يستروحوا بنسمة من الطاقة المفتوحة ‥ لم يحاول أحد أن ينظف نفسه ولا توجد على أى حال الوسيلة لذلك ‥ وهكــذا كانوا يتحركون وهم غارقون الى كعوبهم فى الغائط البشرى ‥ ولم يكن هناك ما هو أفظع من ذلك لكى يكمل ما هم فيه من شقاء مقيم ٠

بعد أيام قلائل ، سمع صوت اطلاق المدافع ، الذى لم يسمع منــذ مغادرة نيونجام ، وسمع الصوت خافتا داخل المخزن ‥ وسرعان ما سمعت ضجة استعدادات وصوت أوناش تدور وسلاسل تصلصل وبسرعة دارت ماكينات (تيلبك) مما أكد أنها على وشك أن تغادر الميناء ٠

وبينما كان الاسرى يتصنتون فى الظلام ، وقد سادهم صمت ينذر بالويل ، ازداد فى جو المخزن شعور بالاختناق فقد أدرك الجميع الشواهد على وجهها الصحيح وعرف كل فرد بدقة ما نووا عليه ·· لقد كانت بداية النهاية فى رحلتهم ·

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت ·· اذ تكلم ميشيل بالفرنسية فى هدوء مخاطبا رفاقه فى الظلام ·

« يا اخوانى ، جاء دورنا ليذهبوا بنا الى المجهول اننا جميعا خائفون ·· ويجب أن أعترف أن الحالة أبعد من أن تكون مطمئنة .. أليست هذه هى اللحظة التى يجب أن نظهر فيهـا أى نوع من الرجال نحن ؟ أن بعضنا مؤمنون أو يدعون ذلك فهذا هو الوقت الذى يجب أن نظهر فيه ذلك ·· لقد تعلمنا فى كتب الدين ما قاله المسيح : اذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فانى سأكون فى وسطهم ، ولن يخيب رجاؤهم اذا طلبونى ·· الا يجدر بنا أن نتذكر الآن وعده ، اذ لن تكون لنا فرصة أخرى أفضل من هذه لنظهر ايماننا به ؟

وتوقف ميشيل فترة ولكن أحدا لم يتكلم ·· ولكن شيئا ما فى نوع هذا الصمت جعله يعتقد أن كلماته كان لها وقع فى نفوسهم ·

واستطرد ميشيل · سنعمل الآن سلسلة بأيادينا وسأصلى لله بالنيابة عنا جميعا ·

وبدت حركة فى الظلام اذ تجمع كل الاسرى المتحـدثين بالفرنسيـة ، ووجدوا طريقهم حول المكان الذى كان يقف فيه ميشيل ·· وتماسكت أيديهم حوله ثم رفع ميشيل صوته ثانيا :

يا الهى من أعماق ما نقاسيه من عذاب الاحتضار نلجأ اليك لكى تمد لنا يدك الرحيمة وتساعدنا وان تزيل عنا ، اذا شاءت ارادتك ، الخطر الذى يهدد نزلاء هذه البآخرة ·· ومهما حدث لنا نتوسـل اليـك أن تحمى زوجاتنا وأطفالنا وتحفظهم من كل شر ·· هذه هى طلبتنا يارب نتوجه بها اليك فاستجب لصلاتنا ·

وظلت الايدى متشابكة لحظة أخرى ثم عاد الرجال الى أماكنهم ... ولكن بالنسبة للكثيرين منهم ، كما قالوا لميشيل بعد ذلك ، لم يعد الجو مشحونا بالخوف كما كان .

وما كان ميشيل ينتهى من كلامه ، حتى توقفت فجأة الضجة التى كانت على سطح الباخرة ، وفى نفس الوقت سكت اهتزاز ماكينات الباخرة .

وساد الصمت التام المخزن بضعة دقائق بينما كان الاسرى ينصتون باهتمام الى ما سيحدث بعد ذلك .. وعندئذ فتحت الكوة وصاح صوت بالالمانية كل الاسرى المتحدثين بالفرنسية يصعدون الى السطح .. ولم تحدث أى حركة لان أحدا لم يكن قد فهم المقصود .. وبعد دقائق تكرر الامر ولكن بلهجة أشد حزما .. وكان ميشيل الذى يقف عند أسفل السلم أول من فهم الامر فصاح بالفرنسية « انهم يطلبوننا .. كل من يتكلم الفرنسية يصعد الى السطح ، اسرعوا » .

قال هذا ودفع بصدبقه سينوتى على السلم وتبعه الآخرون وهم يتعثرون فى أجسام الاسرى الآخرين .. وكان بعضهم أضعف من أن يستطيع تسلق السلم فكان ميشيل يساعدهم .. وعندما صعد آخر رجل ورأى أن الفتحة على وشك أن تقفل تبعهم بسرعة ..

كانت الباخرة لا تزال على الرصيف . وفوق سطحها حوالى مائتين من الفرنسيين والبلجيكيين والسويسريين والهولنديين كانوا فى صف أمام مائدة حيث كانت امرأة من قوة ال S.S تقيد أسماءهم وأماكن ميلادهم فى سجل أمامها .

ولم يفهم أحد منهم المقصود بذلك .. ولكن كان يمكن أن يقرأ على وجوههم الشعور بأن المقصود قد يكون خيرا وقد تأكد لهم ذلك ، عندما أدير خرطوم مياه وطلب اليهم أن يزيلوا الاقذار التى على أجسادهم ..

كان يوما من أيام الربيع الدافئة ، وتجرد ميشيل من ملابسه وجعل الماد البارد يغسل كل جسمه .. لم يكن يعتقد بعد أنهم قد نجوا حقا .. فان استجابة صلاته بمثل هذه السرعة تدخل فى نطاق المعجزات . ولكن كيفما حصل فان مثل هذا الحمام شىء جدير بحمدهم ..

وسرعان ما انهارت الآمال مرة أخرى عندما حجز المائتى أسير فى مخزن آخر أقرب الى الاماكن التى كانت محتلة بالروس والبولنديين · ومرة أخرى سادهم الظلام الكثيف وأصبح مستقبلهم أكثر غموضا من أى وقت آخر ·

على أنه كانت هناك علامة واحدة مشجعة · هى أن الروس والبولنديين لم يظهروا عداوة للجنسيات الاخرى التى يبدو أنها أحرزت مكانة جديدة فى نظرهم ·· فكان ذلك فألا طيبا للفرنسيين : علامة الاحترام من جانب المحكوم عليهم الى المرجأ تنفيذ الاحكام عليهم ·

وفى صباح اليوم التالى دعى المائتان الى السطح مرة أخرى ·· وهذه المرة لم يكن فيها شك ·· فقد كانوا راحلين ·· كانت هناك « صقالة » موضوعة وكان أوائل الاسرى يمرون فوقها فعلا ··

وعلى الرصيف كانت توجد عربة واحدة باقية · وكان يقف على مدخلها رجل طويل أبيض الشعر عرف فيه ميشيل زميله القديم فى المعسكر الدكتور الامريكى جاكسون ·

فصعد ميشيل وهز يد الامريكى بحرارة قائلا : « لابد أنك ستأتى معنا » ولم يجب جاكسون ولكنه رفع يده فى ارهاق مشيرا الى الهياكل الآدمية المنهوكة التى تغطى أرض العربة حيث كانت توجد أجساد مرضاه الهالكين ·

ولم يستطع ميشيل الانتظار فقد كان طابور الاسرى قد أخذ يتحرك وكان عليه أن يجرى ليلحقه وعندما وصل الى الصف الاخير تطلع حوله فرأى الدكتور لا يزال شاخصا بنظره اليه ·

لقد كانت النظرة الاخيرة من هذا الامريكى المخلص ومن الضرورى الآن أن نترك ميشيل مؤقتا ونتتبع مصائر الاسرى الآخرين ·

بعد ساعات قليلة من مغادرة الجماعة الفرنسية ، تسلم الدكتور جاكسون أمرا بترك مرضاه ، وكان معظمهم وقتئذ فى حالة الموت ، وأن

يدخل الباخرة (تيلبك) حيث وضعوه فى الحجز مع بعض الاسرى الباقين وبعد دقائق تحركت الباخرة وبعد أن عبرت القنال خرجت الى عرض البحر ·

وعلى بعد ميل من الميناء كانت توجد بأخرة كبيرة راسية فى الخليج · كانت مسلحة بالمدافع المضادة للطائرات وفيما عدا ذلك كان لها مظهر احدى البواخر الفاخرة وكان اسمها (كاب أركونا) ·

واقتربت تيلبك واتجهت الى جانبها ·· وفتحت مخازنها الثلاثة العليا ، ونقل نزلاؤها بما فيهم الدكتور جاكسون الى الباخرة الاخرى التى كانت محملة ببضعة آلاف من الاسرى وتحركت تيلبك ، بمخازنها السفلى التى ما زالت مملوءة بالاسرى ، وألقت مرساها على مسافة بسيطة ·

وفى صباح اليوم التالى جاءت باخرة سجن أخرى اسمها أثين الى جانب كاب أركونا · وفى هذه المرة كان الاجراء عكسيا ، نزل مائتا سجين من كاب أركونا وصعدوا على ظهر أثين ·

وبينما كانوا يتسلقون القضبان شاهد الدكتور جاكسون وهو يراقب من ظهر كاب أركونا بين الاسرى ابنه فيليب الذى فصلوه عنه منذ مغادرة المعسكر ·

فصاح باسم ابنه وحاول أن يندفع نحوه · وسمع فيليب الصرخة فتحول وحاول أن يعود ولكن رجال ال S. S دفعوه بوحشية وأبعدوه عن نظر أبيه ، وفى الحال أقلعت أثين وأخذته بعيدا ·

وكان بين جماعة الفرنسيين فى نفس المخزن مع فيليب المهندس موريس جاشنى الذى حاول ميشيل أن يقنعه بالانضمام اليهم قبل مغادرة المعسكر ·

كانت الروح المعنوية فى داخل المخزن منهارة للغاية · وكانت تأتى من الجانب الآخر أصوات طرق ثقيل وكان هذا نذير شؤم الى حد ما ··

ثم توقفت الماكينات • وقد ساد الصمت التـــام الذى أعقب ذلك بدأت الاعصاب تتوتر وأخذ بعض الاسرى الذى أصابتهم نوبات هستيرية ، فى الصياح والضرب بقبضاتهم على هيكل الباخرة •

ورأى جاشنى لمنع استفحـــال حـالة الذعر بين الاسرى أن يخــلق موضوعا لتهدئتهم وتحويل اهتمامهم فأخذ يحدثهم عن أول موضوع تبادر الى ذهنه كمهندس فحدثهم عن قوة الآلات القاطعة بمناسبة ضجة الطرق فى الباب المجاور وأخذ يتحدث بصوت مرتفع كما لو كان يلقى محاضرة • وكان تأثير ذلك مذهلا فى هذا الظرف الى حد أنه جذب اهتمام الرفاق عن تتبع ظاهرة أخرى فلم يلحظوا أن ماكينات الباخرة قد تحركت من جديد وأن الباخرة أخذت تتحرك •

وعندما انتهى جاشنى من كلامه كانت الباخرة قد وقفت • وســمع وقع أقدام على سطح الباخرة ثم ساد الصمت • وتسلق أحد الفرنســيين السلم ووجد غطاء الكوة مفكوكا فدفعه وأخرج رأسه وسمعه الآخرون وهو يصيح بأننا على الرصيف •

واندفعوا لتسلق السلم • وكان هناك أسرى من الحظائر الاخرى فوق السطح • ولم يكن هناك ما يدل على وجود حراس الامن أو ملاحين منالالمان انما كان يقف على ظهر الباخرة بعض الرجال المسلحين فى ملابس الميدان الكاكية والخوذات ، وكانوا من رجال حرس جيش مونتجمرى •

وفى نفس الوقت كان آخر فصل من هذه الدراما يمثل فى عرض البحر ففى الوقتالذى وقفت فيه أثين أولا وكان جاشنى يقوم بمحاولته لتخفيف حـــالة الذعر بين الاسرى ، كانت قد ظهرت على مسرح الحـــوادث بعض قاذفات القنابل البريطانية •

واذ شاهدت عدة بواخر ألمانية ، أمرها قائد سلاح الطيران البريطانى بالعودة الى الميناء • وفى نفس الوقت ألقيت قنبلة انذار فى البحر •

وردا على ذلك فتحت كاب أركونا نيرانها بينما ابتعدت تيلبك وباخرة سجن أخرى دوتشلاند عن المكان ولم تطع الاوامر الا الباخرة أثين وذلك لان قبطانها هو الذى تولى القيادة وأراد أن يتجنب أى سوء تفاهم فأمر بالعودة الى الشاطىء .

وعندما تبين رجال ال S.S ما كان يفعله القبطان حاولوا التدخل ، ولكن الملاحين منعوهم وقبضوا عليهم ونزعوا سلاحهم وعند وصول الباخرة الى الشاطىء سلموا للبريطانيين .

ولم يكن يبدو على البواخر الاربعة ما يوحى أن بداخلها أسرى فليس على سطحها الا بعض الملاحين وبعض بوليس الأمن المسلحين .

ولذلك فعندما تجاهلت أمر العودة الى الشاطىء ، قرر قائد السلاح الجوى البريطانى مهاجمتها . وهكذا صوبت ضربات مباشرة الى تيلبك والى دوتشلاند . وفى دقائق قليلة غرقتا بكل من فيهما من الاسرى .

كما أصيبت كاب أركونا بقنبلة حارقة فاشتعلت بها النيران عن آخرها . واستطاع ملاحوها وحرس بوليس الامن أن ينجوا بالقوارب ولكن معظم آلاف الاسرى دفنوا فى داخلها .. اما محترقين أحياء أو مختنقين من الدخان أو غرقوا مع السفينة عندما غاصت .

استطاع مائتان أو ثلاثمائة فقط أن يخرجوا الى البحر أحياء وهؤلاء أصابتهم نيران حراس الامن من قوارب النجاة فقتل معظمهم اما غرقا واما قتلا ..

وقليل جدا من استطاعوا التشبث بالحطام العائمة واستطاعوا أن يصلوا الى الشاطىء ، ولكن حتى هؤلاء كان الالمان فى انتظارهم فألقوا بهم مرة أخرى الى البحر .

وبالرغم من كل ذلك استطاع حوالى عشرين أو ثلاثين منهم أن يشقوا طريقهم الى الداخل حيث بدوا أمام الجنود البريطانيين الذين ذهلوا لرؤيتهم اذ كانوا أشبه بهياكل حية ٠٠ وهكذا هلك معظم أولئك البؤساء الذين عانوا الاهوال فى نيونجام ٠

كانت الميناء التى رست عندها أثين هى نيوستادت على شمال خليج لوبيك ٠

وبمجرد أن نزل الاسرى المتحررين على الشاطىء زودهم البريطانيون بالاغذية ، واقتيدوا الى القشلاقات البحرية الالمانية بعد أن استردوها ٠٠ ولما كان كثير منهم فى أشد حالات الارهاق أو فى حاجة الى رعاية طبية عاجلة ، حصل جاشنى على اذن بنقلهم الى المستشفى المحلى وأعطيت لهم وسائل المواصلات لهذا الغرض وهكذا أمكن انقاذ حياة بعضهم ٠

ونزل جاشنى الى الشاطىء للبحث عن غرقى آخرين ما زالوا على قيد الحياة ٠ وبعد أن تجول ساعات على الشاطىء التجأ فى ساعة متأخرة من الليل الى احدى البلوكات وما كاد يروح فى النوم حتى أيقظه صوت يناديه باسمه ، كان صوت الامريكى الصغير فيليب جاكسون ٠ وكان معه ضابط انجليزى طويل القامة ٠ قال جاكسون انه قادم خصيصا للتحرى عن ميشيل هولارد وقال البعض انك ربما تعرف شيئا عنه ٠

وحاول جاشنى أن يتكلم ولكنه وجد أنه قد فقد صوته فبعد أسره طيلة عشرة أيام داخل حظائر المراكب المختلفة ، مع توقع الموت باستمرار وتفاقمت هذه المتاعب بأحداث الاثنى عشر ساعة الاخيرة ، كان فكره قد تشتتت واحتاج الى جهد لكى يسترد وعيه ، فسأله الضابط : هل تعرف ميشيل هولارد ؟

فقال جاشنى أعرفه ؟ أظن ذلك ٠٠ كنت أعرفه أكثر من أى شخص آخر فى المعسكر ٠٠

وقال الضابط : ولكنك لا تعرفه كما نعرفه نحن ٠

ـ وكيف يكون ذلك ؟

ـ لأن ميشيل هولارد هو الرجل الذى أنقذ لندن ٠ ولم يكن جاشنى يعرف عن ميشيل أكثر من أنه كان يعمل مع البريطانيين ، فقد حيرته هذه الملاحظة وكانت لغزا فى نظره ولكنه دعاها تمر ٠

واستطرد الضابط : ويهمنا أن نعثر عليه ، وكان أملنا أنك تستطيع مساعدتنا فى ذلك ٠

ـ لقد كان أعز أصدقائى فى المعسكر ولكنى لم أره منذ أن افترقنا وليست لدى أى فكرة عن مكان وجوده وأخشى أن يكون قد أصابه مكروه ٠ ٠

وانصرف الضابط ومعه جاكسون بعد أن شكر جاشنى ٠ ولكنهما لم يذهبا بعيدا حتى جرى وراءهما جاشنى ليقول لهما بأنه سيبلغهما عندما يقف على أى أنباء عن ميشيل ٠٠

وبعد أيام قلائل بينما كان جاشنى يزور المرضى فى المستشفى ظهر الضابط له مرة أخرى وقال له انه وقف على أنباء عن هولارد فقد سمعوا أنه فى أمان وأنه وصل الى السويد ٠٠

ونعود الآن الى ميشيل مرة أخرى بعد أن تركناه آخر مرة ، كما نذكر مبتعدا هو والاسرى المتكلمين باللغة الفرنسية بعد ترك الباخرة تيلبك التى قضى عليها بالهلاك ٠ كانوا لا زالوا يجهلون أين يذهبون بهم ، أو ماذا يكون مصيرهم ، ولكن نجاتهم من الباخرة التى لم يبق فيها أحد على قيد الحياة كان له أثره فى نفوسهم ٠ أوحى اليهم بأن مصيرهم قد تحول فى النهاية وجهة أفضل ، وأحس ميشيل لاول مرة منذ القبض عليه من خمسة عشر شهرا بالامل يراوده من جديد ٠٠

فى آخر الرصيف كانت تنتظر عدة لوريات ، ولم يكن المكلفون بهـا من بوليس الامن .S.S بل حتى لم يكن يبدو عليهم أنهم من الجنود ٠٠ كانوا يضعون أحزمة من الجلد ولكن لا يحملون سلاحا ٠

وركب الاسرى اللوريات وسارت بهم قليـلا الى رصيف آخر حيث كانت ترسو باخرتان تجاريتان فاخرتان كانت كل منهما ترفع علمـا أزرق به صليب ذهبى ، وكتب على جانب كل باخرة اسـمها : احداهما (ماجدلينا) والاخرى (ليلى ماتسين) ٠

وصعد الاسرى الى ظهر الباخرة الاولى حيث وجدوا أنفسهم فى أماكن فسيحة جيدة الاضاءة نظيفة ، ووزع عليهم بسكويت الباخرة الكبير الحجم فكانت أول مرة يأكلون فيها طعاما جافا منذ أسبوع ٠

وازداد اقتناعهم بتطور ظروفهم الى افضل ، على أن ظاهرة واحـدة كانت تسبب قلقهم ، ان السقالة الموصلة للباخرة كانت تحت حراسـة صف ضابط ألمانى ، بينما كان يراقب حركة الركوب ضابط من بوليس الامن

ومضت بضعة ساعات أخرى ، صعدت فيها مجموعة أخرى منالاسرى للباخرة الثانية ٠ وهؤلاء كانوا جميعا من النساء ٠

وأخيرا تحركت ماكينات (مجدلينا) واستطاع الاسرى أن يروا من خلال الفتحات اتساع الثغرة كلما تحركت الباخرة بعيـدا عن الرصيف ولكنهم استطاعوا أن يروا أيضا سفينة ألمانية بحرية تتبع الباخرة ٠ وأن ضابط الامن كان لا يزال على الباخرة ٠

واجتازت مجدلينا الميناء بسرعة متجهـة الى عرض البحر ، وسرعان ما غابت الارض خلفها ٠ وعند ذلك أوقفت البـاخرة ، وأنز سـلم على جانبها ٠ ونزل عليه ضابط الامن الى سفينة الحراسة التى عادت به عندئذ الى الشاطىء ٠

فى هذه اللحظة فقط زالت كل شكوكهم ·· لم يعودوا بعد أسرى بل أحرارا · وأخذ بعضهم يغنى وأخذ آخرون ينشدون المرسلييز معا ··

على أن ميشيل كان يرى غمامة تخيم على مظهر البهجة والفرح ، فمع شعور الارتياح والشكر على نجاته كان تفكيره يتجه نحو أولئك الذين بقوا فى مخازن تيلبك · فكان يتساءل عما جرى لهم ·· أزعجه التخوف والقلق ، من أن يكون قد أحاق بهم شر خطير لا يدرى كنهه فاستحوذ على كل مشاعره فى تلك اللحظة فلم يترك له مجالا للابتهاج بها ·· كما أنه لم يكن فى حالة تسمح له بالتحرى فى أسباب نجاته التى لم تتبين له الا بعد بضعة أسابيع ·· حيث اكتشف أنه مدين بنجاته هو ورفاقه الى رجل فرنسى من جماعتهم ·· هذا الرجل أثناء تكليفه بتأدية احدى الواجبات اليدوية التى كانت تتطلب نزوله من سيلبك والسير مسافة على الرصيف مر ببعض البحارة الذين كانوا يرتدون كساوى لا تبدو ألمانية ، واعتقادا منه أنهم قد يكونوا أجانب من باخرة محايدة ، تدبر فى كتابة عبارة استغاثة على قطعة من الحجر وتركها فى طريق مرورهم ، والارجح أنها قرئت بواسطة هؤلاء السويديين وأدت الى الافراج عن جماعة صغيرة من أسرى تيلبك ··

فاذا كان كذلك فلابد أن يكون نتيجة ترتيب محلى بين قائد بوليس الامن وقبطان الباخرة السويدية ربما مقابل أغذية أو لوازم طبية التى كان الالمان فى حاجة اليها ·· ولو كان ذلك الاجراء نتيجة أوامر عليا لكان قد تم الافراج على الارجح عن جميع الاسرى المتكلمين بالفرنسية ، فى حين أنه لم يفتح الا مخزن واحد من مخازن تيلبك ·

وصحيح أن الكونت برنادوت كان قد قضى عدة أسابيع فى مفاوضات مع هيملر ورئيس أركان حربه شيللينبرج .من أجل الافراج عن جميع الاسرى السياسيين ، ولكن لغاية لحظة الانهيار الالمانى ، بالرغم من نجاحه فى أعظم عملية انقاذ فى التاريخ ، بانقاذ جميع السكندنافيين وحوالى خمسة وعشرين ألفا غيرهم ، معظمهم نساء أسيرات من رافنسبروك ، الا أن مصير الباقين كان لا يزال فى كفة القدر ··

وصحيح أيضا أن جهود برنادوت الرئيسية ، بخلاف رافنسبروك كانت موجهة الى نيونجام حيث أقنع هيملر بتجميع جميع الاسرى السكندنافيين كخطوة أولى لاعادتهم الى أوطانهم (وهؤلاء كانوا يشملون الدانمركيين والنرويجيين الذين سبق ذكرهم فى الفصل السابق) . وكان لا يزال يسعى للوصول الى الافراج عن العشرين ألفا الباقين الذين كانوا ما زالوا على قيد الحياة ، من جميع الجنسيات ، وكان من بينهم ميشيل عندما حطم آماله اخلاء المعسكر الفجائى يوم ١٨ من أبريل سنة ١٩٤٥ ، وكل ما عرفه عن مصيرهم أنهم نقلوا فى عربات المواشى الى جهة غير معلومة وكانت كل التحريات والاستفسارات التى توجه بشأنهم الى نورمان قائد المعسكر يرد عنها دائما بأنه (لا أخبار عنهم بعد) • ولذلك يمكن الافتراض باطمئنان أن هرب ميشيل يعزى الى حسن الحظ وليس نتيجة لفرار مقصود من السلطات الالمانية العليا •

ولا يزال هناك سؤال •• اذا كانت نوايا الالمان تجاه العشرين ألفا هى ضرورة افنائهم • وهناك قليل من الشك فى هذا ـ فماذا كان الحافز لهم على ذلك ؟ كانوا قد خسروا الحرب وكان الريخ الثالث ينهار ساعة بعد أخرى ، فما الذى كانوا يكسبونه باضافة هذه الجريمة الاخرى الى جرائمهم ؟

الجواب لا يمكن أن نجده الا فى العقلية الالمانية وفى تصميم الرؤساء النازيين بأنه اذا كان قد قدر لهم السقوط فلماذا لا يجرون العالم كله معهم •• يضاف الى هذا التصور الاخرق ، بخلاف رغبتهم الطبيعية فى ازالة كل الشواهد على جرائمهم ، ان العشرين ألفا ، لغاية اللحظة الاخيرة كانوا يمثلون رصيدا ، شيئا لا يزال تحت سيطرتهم ، وما كانوا ليسلموه الا فى مقابل بعض المزايا مثل العفو العام لانفسهم من أى عقاب للحلفاء • وعندما تبين لهم أن الاسرى أصبحوا لا يصلحون أداة للمساومة كان الاجراء المنطقى من وجهة نظر النازى ، هو ابادتهم ـ الشكل الوحيد من السياسة العملية التى يعرفونها •

أخذت الباخرة مجدلينا تعرج خط سيرها حتى تتجنب حقول الالغام، وترسو فى الليل ، فقطعت المسافة الى الساحل السويدى فى ثلاثة أيام •

ومرت فى طريقها بعدة بوارج ألمانية قادمة من الشرق منكسة الاعلام ·· كان قد أشيع أن هتلر قد هلك ، ولكن لم يكن أحد يصدق ذلك ·

وظل كثير من الاسرى فى أماكن نومهم ، كانوا قد تضعضعوا نتيجة للتجارب التى مرت بهم · وبقى معظم الآخرين على السطح غير قادرين على أن ينسحبوا من منظر البحر بالرغم من شدة البرد ·· وقضى ميشيل الوقت فى ازالة مئات من القمل من جسمه ··

وفى أواخر اليوم الثالث دخلت الباخرة ميناء صغيرا ورست بجوار أحد الارصفة ·· ونزل المائتا أسير ينقصهم الاثنان الذان ماتا فى الرحلة . أمكن مساعدة البعض على السير أما العاجزون فقد حملوا على نقالات ·· وكانت نساء الصليب الاحمر السويدى تنتظرهم بالسجائر · وأخذ أقذرهم الى الحمامات بعد أن نزعت ملابسهم لحرقها وتولت العناية بهم ممرضات المستشفى اللاتى يرتدين ملابس وقائية وقفازات وأقنعة من الجلد فأعطوهم ملابس جديدة وأدوات حلاقة ·· لم يصدقوا أنهم أصبحوا يرتدون ملابس على مقاسهم ، فهؤلاء الرجال منذ أن أصبحوا لا يعتبرون أنفسهم كذلك ، عندما رأوا أنهم قد أصبحوا أناسا يرتدون كالمتمدينين . استردوا ثقتهم واحترامهم لانفسهم · وتبينوا أنهم ألقوا عنهم ، معملابسهم المذرية القذرة ، ما عانوه من شعور بالخجل والازدراء ·

وبعد ذلك وزعت عليهم بطاقات بواسطة السفارة الفرنسية وبعد أن كتب كل منهم رسالة لعائلته جمعت منهم لتصديرها رسميا الى فرنسا ·

وكتب ميشيل بطاقته ، ولكن لعدم ثقته بالطرق الرسمية حصل على بطاقة أخرى وأرسلها لزوجته بأن ألقاها من النافذة مشيرا لىا أحد المارين بالشارع لكى يرسلها · وبررت النتيجة تصرف ميشيل فان البطاقة غير الرسمية وصلت باريس فى خمسة أيام فى حين وصلتها البطاقة المرسلة عن طريق السفارة بعد ذلك بعشرة أيام ·

على أنه لم يكن عن طريق البطاقة أن سمعت مدام هولارد بأنباء هروب زوجها ·· ففى اليوم التالى لوصوله الى السويد زارها موظف

بريطانى كبير وأبلغها أن ميشيل فى أمان وأنه سيأتى اليها قريبا فى باريس ٠٠ وأضاف بأن جلالة الملك قد أبلغ بذلك ، وعبر عن ارتياحه لانباء نجاته بأن رغب لهذه المناسبة أن يتفضل بمنح زوجها اسمى وسام عسكرى يمكن أن يمنح لاجنبى وهو «وسام الخدمة الممتازة » وقال الزائر انه مكلف من قبل حكومة جلالته أن يتحرى عن أى طريقة أخرى يمكن بواسطتها أن تظهر الحكومة عرفانها للخدمات العظيمة التى أداها الكابتن هولارد ٠

شكرت مدام هولارد الزائر بحرارة وقالت أنها تأثرت الى أقصى حد باهتمام جلالة الملك وبالعرض الذى تقدمه الحكومة ولكنها لا تستطيع ، عن نفسها وبالنيابة عن زوجها أن تقبل أى مكافأة مادية ٠

وبالرغم من أن ميشيل كان فى حالة أفضل من غيره بكثير فلم يعتبر صالحا للسفر قبل مضى ستة أسابيع ٠٠

وفى يوم ١٨ من يونيه هبطت احدى طائرات السلاح الجوى البريطانى فى السويد ومعها أوامر باحضاره الى فرنسا عن طريق لندن حيث عمل ترتيب استقبال خاص له ٠

ولسوء الحظ وصلت الطائرة متأخرة فان ميشيل كان قد سافر قبل وصولها بساعات ضمن فريق من عشرة أفراد من الاسرى السابقين وكانوا أول دفعة يشرف على ترحيلها الصليب الاحمر السويدى ٠٠ وكانت هذه الميزة ، التى لم يسعى للحصول عليها ، قد أتيحت له باجماع أصوات زملائه ٠

وطبقا للمقتضيات العسكرية حلقت الطائرة .D.C فوق البحر متبعه ساحل الدانمرك وهولندا والبلجيك وفرنسا ٠٠ وطوال مدة الرحلة الجوية التى استغرقت خمس ساعات ظل ميشيل يتطلع من النافذة حتى لا يضيع لحظة من هذه الرحلة الرائعة ٠

وقد لا تكون كلمة « رائعة » كافية للتعبير ٠٠ لم يكن فقط لانه كان عائدا من منفى ، ولغاية آخر ساعة من اليوم الاخير لم يكن هناك أمل فى نجاته ، وانما لانه كان يفعل ذلك كرجل حر فى مملكة حرة فكان يبدو له ذلك أقرب الى الحلم منه الى الحقيقة ٠

وفوق دييب عبرت الطائرة الساحل ثم دارت الى الجنوب واتخـذت اتجاه الطريق الرئيسى الى روين ٠ تاركة أوفاس الى اليسار ومرت بالقرب جدا من موقع V. I فى بونتو فوبورج ، بحيث استطاع ميشيل أن يرى مدى تأثير قنابل سلاح الطيران الملكى التى ألقيت منذ ثمانية عشر شهرا . كان الموقع لا يزال كتلا من الخرائب والعوارض الملتوية ٠

كان هذا ذروة الحلم ٠٠ أن يتمكن من النظر الى أسفل وهو فى أمان تام على الخرائب التى تخلفت عن أجهزة الدمار الشيطانية ، والتى ساعد هو بنفسه على تدميرها ، وكان مقصودا بها تدمير الحرية التى استردهـا لتوه .. كان ذلك بالنسبة لميشيل أسمى تجاربه التى مر بها ، المعجزة .. وظل مشدوها بقوة هذه المعجزة مدة نصف ساعة أخرى ، عندما قفز من الطائرة لكى تستقبله وترحب به أحضان عائلته ٠

